

روايات إلهي

وَلَحْتَ الْغُرُوبِ

بهاء طاهر



دار الهلال

سلسلة شهرية تنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الاشتراكات

قيمة الاشتراك
المستوى (١٢ عددا)
٦٠ جنيه مصري داخل
(ع.م.ج) تسدد
مقدما نقداً أو بحالة
بريدية غير حكومية -
البلاد العربية ٣٥
دولارا - أمريكا وأوروبا
آسيا وأفريقيا ٥٠
دولارا - باقي دول
العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تصدد مقدماً
بشيك مصرفي لأمر
مؤسسة دار الهلال .
بريد الاشتراكات

Email : subscription_dep@yahoo.com

الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد
عز العرب بك (السبتديان
سابقاً) ت: ٣٦٢٥٤٠٠
(٧ خطوط).
المكاتبات:
ص.ب. ٦١ العتبة -
القاهرة - الرقم البريدي
١١٥١١ - تلغرافياً: المصور -
القاهرة ج.م.ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 3625469

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيد

رئيس التحرير

مجدي الدقاس

المستشار الفني

محمد أبو طالب

مدير التحرير

محمد رضوان

سكرتير التحرير

محمد عبد العظيم

الإصدار الأول - يناير ١٩٩٩

العدد ٦٩٥ نوفمبر تشرين الثاني ٢٠٠٦ م - شوال ١٤٢٧ هـ - هاتور ١٧٢٣ ق

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ دينار
- السعودية ١٢ ريالاً - البحرين ١٠,٢ دينار - قطر ١٢ ريالاً - الإمارات ١٢ درهما
- سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما -
فلسطين ٢,٢ دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

ثمان
النسخة

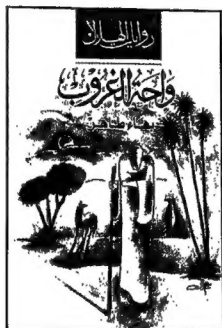
البريد الإلكتروني:

darhilal @ dscc.gov.eg

وَلَحْتِ الْغُرُوبِ

بهاء طاهر

دارالاهلاق



الغلاف للفنانة: سهام وهدان

الخطوط للفنان: محمد العيسوي

الإهداء

إلى ستييفكا أناستاسوفا

القسم الأول

تنويه

الاسم الحقيقي لمأمور واحة سيوة فى أواخر سنوات القرن التاسع عشر هو «محمود عزمى» ، وإليه ينسب عمل ترك أثراً باقياً فى الواحة سيتعرف عليه القارئ فى موضعه من الرواية . وباستثناء ذلك لا توجد أية معلومات تاريخية منشورة عن هذا المأمور أو عن سيرة حياته .

١ - محمود

يقول لى زوجتك امرأة شجاعة ، كائى لا أعرف كيف هى زوجتى ! أليست ذاهبة معى برضاها إلى الخطر ؟ ومع ذلك فلعلى لا أعرف بالفعل كيف هى كاثرين . ليس هذا وقته . المهم أنه لم يذكرها مصادفة . وراء كل كلمة من كلماته هدف ، ولكن كاثرين ليست هى المشكلة الآن . ثم إنى لن أحل أى مشكلة وأنا أتجول فى ممرات نظارة الداخلية المعتمة وبعد مقابلة المستر هارفى المقبضة .
لم يكن فيما قاله أى جديد غير التلميحات المبطنة التى فهمت بعضها وتحيرنى بقيتها .

عرفت من قبل أن ألقاه أن المسألة منتهية . أبلغنى الأميرالوى سعيد بك أن مفتش النظارة رفع توصية إلى معالى الباشا ناظر الداخلية وأن معاليه أصدر أوامراً بالنقل على أن ينفذ فوراً . لم يبق أمامى سوى أيام قليلة للاتحاق بالقافلة المسافر من كرداسة ، وهو ينصحنى كصديق بالعدول عن فكرة اصطحاب زوجتى معى . الرحلة إلى الواحة ليست سهلة والمهمة نفسها صعبة جداً كما أعرف ولكنى حرّفى النهاية . واجبه مع ذلك أن يحذرنى من خطر الرحلة وأنها تستغرق فى الظروف الحسنة أسبوعين على الأقل ومع دلائل ماهر .

أثق أن سعيد لا يحاول إخافتى ، وأظن أنه فعل كل ما يستطيع لإعفانى من المهمة . صداقتنا قديمة العهد وإن تكن قد فترت مع الزمن وأوشكت أن تقتصر على علاقة رئيس بمروجه ، لكن حكايات عصر انقضى وأسراره تجمع بيننا . لم نعد نتكلم عنها منذ سنين ولكن كلينا يعرف أن الآخر مازال يذكر . غير أن الزملاء الآخرين يحذروننى من السفر بإشفاق مشبوه . بعضهم أسعده الإفلات من المهمة

وأنها أصبحت من نصيبى ، وآخرون كانوا يجتهدون لإخفاء التشقى . حدثونى عن قوافل عديدة تاهت فى الصحراء وابتلعتها الرمال . قوافل صغيرة ضاعت ، وجيش فارسي جرار هزمته الصحراء فى الزمن القديم وطمرته الرمال إلى الأبد وهو فى طريقه ليفزو الواحة . قالوا لى محظوظة هى القافلة التى تنهى الرحلة قبل أن ينفذ زادها من الماء ، وقبل أن تغير الرياح معالم الطريق فتبنى تلالاً لم يكن لها من قبل وجود وتدفن الآبار التى يعولون عليها فى سقيا الجمال ، ومحظوظة أيضاً إن لم تهاجم مضاربها فى الليل ثناب أو ضباع وإن لم يلدغ الثعبان من ركبتها واحداً أو اثنين .

قليل ذلك وغيره فلم أهتم به . خوفاً من وصول القافلة سالمة إلى مقصدها لا يقل عن خوفاً من أن تضل الطريق إليه . أعلم جيداً أنى ذاهب إلى المكان المنذور لقتلى وديما لمقتل كاثرين معى .

ذلك إذن من بين ما كان يلحح إليه المستر هارفى فى مقابلة اليوم ؟

دخلت مكتبه مصمماً أن أستقظه .. ما الذى بقى لأخسره ؟

هى المرة الأولى التى أدخل فيها مكتب المستشار الذى يمسك كل خيوط النظارة بين يديه . وجدت دبلوماسيته فى الحديث مفتعلة ووجنته نفسه مفتعلاً وهو يجلس بقامته القصيرة خلف مكتب ضخم وفوق رأسه طربوش غير مقنع يبرز منه شعره الأشقر . لا يخاطبنى ولكنه يوجه الحديث معظم الوقت إلى شيء غير مرئى على يمينه فى ركن المكتب . يكرر على سمعى ما سبق أن سمعته من الأميرالاي سعيد لكنه يغمزنى فيما يعتبره نقطة ضعفى . لا يبدأنى (مبسوط) كابتن محمود . عبدالظاهر أفندى - عفواً بل يقصد الآن «ميجور» محمود - لتعيننى مأموراً للواحة! يتظاهر بأنه يتصفح ملف خدمتى الموضوع أمامه ويكمل أنى كنت سالتنظر طولاً هذه الترقية.

قاطعته بائسامة حاولت أن تكون مهنية :إذا ما روعى يا سعادة المستشار

أن قليلين في النظارة يرحبون بهذه الترقية !

لا يعلق بشيء ولا ينظر نحوى ، بل يقلب فى الملف الآخر المكتوب عليه بخط كبير بالإنجليزية " واحة سيوة " . يبدو مستمتعاً بما يقرأ . يتمتم لنفسه بين لحظة وأخرى . Very interesting , interesting . يرفع وجهه نحوى أخيراً و على شفثيه ما يشبه الابتسامة - إذن فأتنا أعرف حضرة صاغ محمود ، إننى سأعامل فقط مع رؤساء العائلات الذين يسمونهم فى الواحة الأجواد .

بالطبع ، أعطانى سعيد بك كل التعليمات اللازمة .
يوصل أيضاً كاتنى لم أقل شيئاً لا شأن لى بالفلاحين الذين هم .. يعود للملف بحثاً عنهم ، فاذكره بهم الزجالة .

يكرر وهو يخطف نظرة أخرى إلى الملف: نعم ، نعم ، الزجالة . ماداموا راضين عن هذا النظام فما شأننا نحن ؟ هذا يشبه إسبرطة إلى حد ما . هل تعرف إسبرطة فى اليونان القديمة مستر عبدالظاهر ؟
أعرفها مستر هارفى ..

يسو على وجهه نوع من خيبة الأمل لأنى أعرفها لكن يصمم أن يكمل محاضرتة - نعم ، إسبرطة ، مع الفارق بالطبع ! إسبرطة كانت مدينة لإنتاج العسكر يدرّبون الأطفال من الصغر ليصبحوا جنوداً ويعزلونهم عن سكان المدينة ، لهذا أصبحت إسبرطة كلها جيشاً يسكن مدينة . أقوى جيش فى اليونان كلها قبل أن يظهر الإسكندر . وهؤلاء الـ .. الزجالة فى الواحة أيضاً مجنونون للعمل فى فلاحة الأرض حتى سن الأربعين . ممنوع عليهم الزواج أو دخول المدينة وعبور أسوارها بعد غروب الشمس . شخصياً هو يرى هذا تنظيماً للمجتمع والعمل جديراً بالنظر . يكاد يقول إنه جدير بالإعجاب . أنظر مستر ظاهر إلى مستعمراتنا فى أفريقيا وآسيا التى تسودها الفوضى لأن العمل هناك ..

أقاطعها مرة أخرى ضاحكاً - سعادة مستر هارفى . نحن ليست لنا مستعمرات فى أفريقيا وآسيا .

لكنى أمسك عن القول - نحن مستعمرة !

يَقْطُبُ لحظةً ويتوقف عن الاسترسال في مسألة المستعمرات، يرجع إلى النظر في الملف ثم يرفع رأسه ويبتسم فجأة ابتسامة مأكرة وهو يخاطبني: لا تخصصنا بالطبع الجوانب الأخرى من نظامهم الذي يعزل الرجال عن النساء في سن الشباب . مسألة لا تعيننا . لا دخل لنا بعاداتهم البدائية ..

أفهم ما يريد قوله لكنني لا أريد على كلامه فيعود إلى مخاطبة الشيء غير المرئي على يمينه - ثم إنني سمعت بالطبع من حضرة سعيد بك أنهم ينقسمون هناك إلى عشرين متخاصمتين .

يكاد صبري ينقد - نعم ، نعم ، وأعرف أن المعارك بينهما لا تنقطع .

يحول وجهه نحوي من جديد ويضبط على كلماته - حتى هذا لا شأن لنا به . هذه المعارك جزء من حياتهم وهم أحرار فيما يفعلونه بأنفسهم ، إلا بالطبع إن أمكن عن طريق تحالفات معينة مع عشيرة أو أخرى تحويل ذلك إلى وسيلة لضمان السيطرة . هذه مسألة مجرية ومضمونة بشرط ألا يستمر التحالف مع طرف واحد لمدة طويلة . يجب أن يكون التحالف مع هؤلاء مرةً ومع خصومهم في المرة التالية . هل تفهم ؟

.. أحاول يا سعادة المستر . أعرف هذه السياسة ولكن لم يسبق لي أن جربتها .

يقول وفي لهجته لأول مرة شيء من التشفي - سنتعلمها حضرة مأمور . لا تنس أن مهمتك الأولى ستكون جمع الضرائب . مهمة صعبة كما تعرف .. صعبة جداً . حب البقاء سيعلمك هذه السياسة وغيرها يا ميجور..

توقف فجأة وابتسم مرة أخرى وهو يقول - هناك مع ذلك شيء فكا هي في المسألة كلها . هؤلاء الناس بنوا حصناً في الجبل وبنوا البلد وراء الحصن ليحموا أنفسهم من غارات البدو ومع ذلك فإن الدماء التي كان يسفكها البدو في العراء يتكفلون هم بإراقتها وراء الأسوار . هو يجد هذا مدهشاً جداً . يجد شرقياً جداً!

يصعد الدم إلى رأسي فأندفع - مثل هذه المعارك بين الأمالى موجودة في الشرق وفي الغرب يا مستر هارفى ، هذا يختلف عن غزو الأعراب ..
يتطلع إلى وجهى ملياً ثم يتكلم بلهجة مستمتعة - الصاغ محمود أفندى مازال متأثراً بأفكار من الماضى . ولكنى بالطبع لم أعد أتعاطف مع العصاة ؟
أعجز عن السيطرة على نفسى فأندفع من جديد - لم أكن متعاطفاً مع أى عصاة . كنت أؤدى واجبى لا غير وبغيت الثمن ظلماً مرتين .
يهز رأسه . على العموم فأننا أعرف بطبيعة الحال أن عملى سيكون موضع النظر والمراجعة .

فكرت أن هذه هى فرصتى الأخيرة فحاولت أن أتكلم بلهجة محايدة تماماً أتمنى أن يكون عملى مرضياً عند النظر والمراجعة . ولكن ماذا لو لم أنجح ؟
يرد بإيجاز : تعلم أنك أنت الذى ستدفع الثمن .
ثم يستدرك ويكاته قرأ ما بخاطرى : لن يكون الجزاء على أى حال هو إعادتك إلى القاهرة .

يفير الموضوع فجأة - يجب أن أعلم أن سعيد بك كان يعترض على أن أصحب معى السيدة زوجتى ، حرصاً عليها بالطبع . لكنه أبلغ سعائته أن النظارة لا تتدخل فى حياة الضباط الشخصية ، ثم إن السيدة على ما يعتقد ..
توقف لحظة وبدا متردداً فى اختيار كلماته قبل أن يكمل: السيدة امرأة شجاعة ، ثم كررها وهو يهز رأسه ، نعم امرأة شجاعة .

لم أقل شيئاً ، فوقف فجأة ووقفت أنا أيضاً وبدأ يحدثنى بلهجة رسمية: ستسافر مع قافلة كرداسة لأنها جاهزة للرحيل ، ولكنى سأرسل مع قافلة مطروح التى ستتحرك بعد أسبوعين عدداً من الخيول (وعلى شفقيه شيخ ابتساماً) وأرجو أن تصل الخيول حية .



قلت لنفسى وأنا أخرج من مكتبي إذن مرة أخرى هزمنى الإنجليز ! لكم أكرهكم يا مستر هارفى . لكم أكرهكم جميعاً وأكره هذه النظارة ولكن لا مفر .

يجب أن أعود إلى البيت الآن لأتجهز للسفر . وما الذى بقى لأجهزه ؟ كاثرين جمعت ما يلزم من المتاع منذ أخبرتها بأن كل المساعى لإعفائى من المهمة فشلت وجمعت أيضاً من المكتبات كل الكتب التى تتحدث عن الواحة أو التى يرد فيها ذكر لها . لم يفتها شيء . بالأمس حشنتى عن خطتها العجيبة لمقاومة لدغات العقارب والثعابين ، فأحلتها إلى شيخ من شيوخ الرفاعية وأقنعتها أن له خبرة فى معالجة السموم . إذن فهى تخاف من ذلك أيضاً ، فما سر حماسها للسفر ؟ حاولت كل شيء لإقناعها بالبقاء بون فائدة . تعلم الخطر الذى ينتظرنى هناك لكنها لا تهتم . لو كنت سانجاً لقلت إن السبب هو الحب وإنها لا تريد أن يهلك زوجها وحده . أظن أنها تحبنى ، ولكن ليس إلى هذا الحد !

مشيت من النظارة عبر شارع الدواوين حتى وصلت إلى قسم عابدين . فى قسم الشرطة هذا صنعت كل حياتى فضاقت كل حياتى . على مسافة قصيرة من البيت الذى لم أعرف غيره أيضاً منذ مولدى . ولكن فى صباى لم يخطر على بالي أبداً أنى سأنتهى إلى هذا العمل .

فات وقت الندم على أى حال . ثم على أى شيء أندم ؟ وما الذى كنت أتمناه فى صباى ؟ لم تكن فى ذهنى أى فكرة عن المستقبل . كنت أتمنى فقط أن تستمر الأحوال على ما هى عليه . طفولة سعيدة وصبا أسعد . لم ييخل أبى عليّ أنا وأخى الأصغر بأى شيء . لم يحرمننا من أى متعة ولا قسا علينا حتى نهتم بالتعليم وننتهى منه فى الوقت المناسب . أحب أخى سليمان أن يقضى معظم وقته مع أبى فى متجره بالموسكى ، يتعلم أصول المهنة . أما أنا فلم يعكر صفو حياتى شيء . البلد كله كان يفلئ فى آخر أيام الخديو إسماعيل وأنا أتلکأ فى المدرسة التجهيزية حتى يقترب سننى من العشرين . أعرف النساء وأعاشر الجوارى وأقضى الليالى مع الصحاب نتنقل بين المقاهى والحانات . وبيتنا الكبير فى

عابدين لا تتطلع فيه الولايم ولا يكاد يخلو ليلة من لضيوف وحفلات السمر وأشهر المطربين والمطريات . فى كل ليلة فيما عدا ليلة الجمعة يرفع الخدم فى نهار الخميس كل الاثاث من الصالة الكبيرة فى الطابق الأول . ويفرشونها بالسجاجيد ويعبقونها بالبخور وتوضع فى الأركان أبريق النحاس . المملوءة بالماء المعطر بالموارد . تلك ليلة أهل الطريقة والانشاد والذكر التى يهجر فيها أبى وأنا معه كل متعة أخرى . أرتل مع المرتلين وأنطوح مع الذاكرين إلى أن يغمرنى العرق وتتحل أطرافى فيأتى النوم بعدها مائساً وعميقاً طول الليل . وفى الصباح أذهب مع أبى وسليمان مبكرين لصلاة الجمعة فى مسجد سيننا الحسين . لكن فى الليل ترجع الدورة إلى ما كانت عليه ، إلى أن فابتنا أقدامنا مع صحبى ذات مساء بالمصافاة إلى مقهى (متاتيا) بميدان العتبة ، وهناك رأيت ذلك الرجل المغم الذى يتحدث العربية بلغة الأتراك أو أهل الشام . لم أكن قد سمعت مثل كلامه من قبل ، أو لعلى كنت أسمع ولا أهتم به . لكن كلام الشيخ الأفغانى وحماس المريدين حوله فى حلقته أرغمانى على أن أسمع وأن أهتم . فأتمنت إلى جانب الخمر والنساء مجالس الشيخ وقراءة الصحف التى يحررها تلاميذه - " مصر " و " التجارة " و " الطائف " . كلما أغلقت حكومة الخدير صحيفة منها انتقل إلى أخرى جديدة تكرر ما كانت تقوله أحتها المصادرة وكها تهاجم الحكام الذين أغرقوا مصر بالديون وقادوها إلى الإفلاس ، وكلها تشتعل بالنسب لسيطرة الأوروبيين حتى صار منهم نظار فى حكومة البلد وموظفون فى كل نظارة . وأسمع أيامها أيضاً أن الشيخ وبعض مريديه يعتقدون الماسونية وأن أتباع هذه العقيدة ينتمون لديانات مختلفة ويجمع بينهم الإيمان بالحرية والتأذى بين الناس من كل جنس . فأسعى إلى أن أنضم أنا أيضاً إلى محفل ماسونى وأنتظر اليوم الذى تصبح فيه الأرض كلها محفلاً واحداً لعالم من الأخوة الأحرار . وأسمع يتكويّن حزب وطنى سرى . أقرأ منشوراته المعنونة " مصر للمصريين " فيجرفنى الحساس وأسعى للانضمام للحزب غير أننى لا أعرف طريقة للوصول إليه . تعطلنى أيضاً أول خيانة غيرت حياتى عندما أقلست تجارة أبى . لكنى مازلت حتى الآن لا أفهم كيف كنت أفعل كل هذه

الأشياء دون تردد . كان كل شيء يسلم إلى الآخر بسلاسة دون أى قلق أو تئيب ضمير . كما لو كان طبيعياً جداً أن أسكر وأن أتردد على المحفل الماسونى وأضاجع النساء وأذهب إلى حلقة الأفغانى وأدور مع أبى والمريدين فى حلقة الذكر . بل فكرت أيامها أن أهتم بالدراسة لأحصل على الشهادة وأدخل مدرسة الحقوق مثلما كان معظم الطلبة يحلمون . اعتقدت أنى مهية لذلك لأن أكثر ما كان يستهوينى فى المدرسة حصص الخطابة والأدب لولا أن أبى أفلس . أغراه تاجر يونانى بمكاسب كبيرة من استيراد زيت الزيتون من بلده ثم أغرقه بالديون وفوائد الديون إلى أن انتزع فى النهاية مكان الموسكى لنفسه . لم يبق أى مورد للبيت الكبير المليء بالجوارى وبالخدم ، فاجتهد أبى إلى أن ألحقنى بالشرطة . وكان ممكناً وقتها بما حصلته من التعليم وبشهور من التدريب أن أصبح ضابطاً . واطمان الوالد قبل أن تقعه حسرته وأمراضه إلى أن مرتبى يكفى لكى أعول أمى وأخى ولكى يبقى البيت مفتوحاً وإن يكن بدون الولائم والطرب أو حلقات الذكر . اختفى الزوار واختفى معهم حتى المريدون والمنشدون . لم أعد إلى تلك الحلقات سوى مرة واحدة بعد سنين طويلة عندما دعانى الأميراللى سعيد إلى ليلة إنشاد فى الطريقة التى يتبعها ، لكنى لم أكرر التجربة. لم تحرك فى نفسى شيئاً مثلما كانت تجربتى نشوتها فى الزمن القديم .

وأسأل نفسى الآن إن يكن كل ذلك الماضى البعيد قد اختفى ، أسأل إن يكن ذلك الشاب الموزع الروح قد التأمت أجزاؤه لم زادتها الأيام تبعثراً . حين تزوجت كاثرين بعد طول تردد كنت أحلم أن تستقر النفس أخيراً . ها هى أسرة وبيت وزوجة ذكية وشجاعة ، فلماذا لم يأت ذلك الاستقرار أبداً ؟ لماذا هو مراوغ وبعيد؟ اليقين الوحيد هو تلك البذلة الرسمية التى ألبسها ، والمهنة التى جاعتنى دون أن أرغبها ولم أعد أعرف لنفسى مهنة غيرها رغم كل ما جرت عليه عبر السنين . ثم هذه الواحة .



٢- كاثريسن

أعرف أن محمود سيوحشه هذا البيت الواسع . سيشتاق في صمت الصحراء إلى الحى الذى لا تهدأ فيه حركة الناس وغناء الباعة . لن يوحشه بالطبع قصر الخديو المجاور لنا الذى لم تطأه قدمانا وإن أحببت ما يظهر من خضرة حدائقه الجميلة من وراء الأسوار . لا يتصور محمود الحياة بعيداً عن بيته الذى لم يعرف غيره أما أنا فتنتقلت بين ثلاثة منازل ولا يجرفنى الحنين إلى بيت بعينه . يعود المكان إلى ذهنى فقط حين أذكر سكانه فأسترجع حتى روائحه المألوفة وأركانها المنسية . تدهشنى ألعاب الذاكرة .

تأخر محمود قليلاً . ذهب إلى النظارة لينهى الإجراءات وقال انه سيرجع بعدها ليساعدنى فى حزم الحقائق . لم يبق الكثير ، كل شيء جاهز للسفر إلا محمود نفسه . اعتدت من زمن بعيد على تقلباته التى لا تنتهى . فى البدء كان يذهلنى حين يقول الشيء وعكسه أو يفعل أشياء متناقضة دون أى تمهيد . (ما هذه المرة فالمسألة تختلف ، حزنه يزداد عمقاً .

لم يكن سعيداً حين قابلته ولا كنت أنا أيامها ، لكننا استطلعنا أن ننتزع السعادة وعشناها زمناً . أراءه دازماً كما رأيت أول مرة على جسر (الدمبية) التى جمعتنا عليها المصادقة فى الرحلة إلى أسوان . انتبهت إليه وهو يقف بقامته الفارعة مرتدياً زيه العسكرى وطويوشه الذى يبرز منه شعره الأشيب يتوج وجهه الشاب . وسامته لفتت نظرى على الفور لكنها لم تكن هى ما جذبتنى إليه . من البدء وجدته يختلف عن الضباط الذين قابلتهم فى القاهرة . يختلف فى الواقع عن كل الرجال الذين عرفتهم هنا . اعتادوا أن يتحدثوا معى كأجنبية وإنجليزية فى بلد

يحتله الإنجليز بكل خضوع بينما تسيل من عيونهم نظرة شهوة مستجدية كدموع
الانحاذين . عندما اقتربت منه بدا لى الطريوش مثل تاج فرعونى فوق رأسه .
وجهه الصارم بعينييه السوداوين الواسعتين وملامحه المتنامقة وجه ملك حقيقى
انتقل من جدران معبد إلى سطح تلك الذهبية . سألته كم بقى من الوقت قبل أن
نصل إلى أسوان ؟ لم يتقدم نحوى محنياً رأسه كالآخرين ، بل لمحت نظرة عداء
خاطفة فى عينييه ، لكنه تلفت حوله ولم تكن فى الأفق غير زراعات على جانبيه
النهر وقرى متشابهة عند أطراف الحقول . نظر فى عيني وقال بإنجليزيتة التى
كانت ركيكة أيامها ، لا أعرف ، أنا هنا مع حرس الذهبية . كان ضمن قوة حراسة
لأحد الأمراء أو الوزراء المسافرين على ما أذكر . وعندما بقيت واقفة أمامه قال
بفتور يمكن أن أسأل أحد الملاحين لو أردت ، فقلت سألتى معك .

ومن وقتها بقيت معه ، فى (الذهبية) على النيل وفى شوارع أسوان ومعابد
الأتصر ، ثم فى القاهرة عندما عبقنا زواجنا . ظل وقتاً طويلاً متردداً فى
الاقتراب منى وأنا التى أتكلم معظم الوقت . أظن أن الانقلاب أتى عندما عرف
أنى أيرلندية وأنى أكره الإنجليز لأنهم يحتلون بلدى كما يحتلون بلده وأشعر
بجنسيتهم التى أحملها عاراً سأدخل منى يوم تستقل أيرلندا . بعدها أنهار سد
بينى وبينه . انتهت مقاومته التى كنت أراها مثلما أرى الحب فى عينييه . أم أنى
كنت واهمة ؟ هل كان حباً أم رغبة ؟ لم أهتم لذلك كثيراً فى حينها وحذرنى هو
منذ بدء علاقتنا بأنه عاهد نفسه ألا يتزوج أبداً ، ثم لم يصمد طويلاً ذلك العهد .
بدا الشيخ الذى عقد قراننا فى القاهرة تemisاً وهو يرى رجلاً مسلماً وضابطاً
محترماً يتزوج امرأة أجنبية من غير دينه . كان يوجه أسئلة فيطل ارتياح متزايد
من عينييه ويكرر الجواب كأنه لا يصدق نفسه . ليست بكرأ ؟ أملة ؟ أكبر منه
بستين ؟ لا ينوب عنها فى عقد الزواج أب أو أخ ؟ تزوج نفسها بنفسها ؟
قال لى محمود إنه ليس فى ذلك ما يخالف شريعتهم ، لكنى رأيت الماثون ينكب

على أوراقه يدون فيها ما سمع دون أن يرفع رأسه حتى لا ترى نظرة المسخط في عينيه . غير أن الشيخ كان مهذباً جداً إذا ما قورن بوقاحة الإنجليز عندما ذهب إلى القنصلية لأسجل زواجه - تتزوجين مصرياً ؟ وتتزوجينه أيضاً حسب شريعتهم ؟ وقبل الرجوع إلينا هنا ؟ هل تعرفين حقوقك التي ضاعت ؟ رددت بطريقتهم . قلت شريعتهم تعجبني أكثر من شريعة الإنجليز في أيرلندا . زواجي تم على الأقل باختيارى ولم يفرضه أحد عليّ بالقوة . حين سمعوا ذلك أسرعوا فى الإجراءات كثيراً لكى لا يطول بقائى فى القنصلية .

توقع محمود ألا يوافق مستشار النظارة الإنجليزي على سفرى معه إلى الواحة . أظن أنهم وافقوا بكل سرور متمنين لى الهلاك هناك فى أسرع وقت ! فى أيامنا الأولى ، فى شهورنا الأولى ، عرفت مع محمود سعادة لم أكن أظن أنها ممكنة فى هذه الدنيا بعد تجربة مايكل التمسمة . ومن البدء عرفت أن محمود لا يطبق أى كلام عن الحب ، لا يقوله ولا يحب سماعه . الحب عنده هو ممارسة الحب لا أكثر ولا أقل . وهو هنا ملك أيضاً . مستعد دائماً لأن يعطى ، قادر دائماً على إيقاظ لهفتى وخبير بتجارب كثيرة منذ صباه لم ينكرها . وتعلمت أنا بالغريزة وحدها - التى نسيتها مع مايكل - أن أجارى خبرته ، وألغى أن أكون قد علمته شيئاً أيضاً . أفهمته أنى لا أحب العنف والاقترحام الذى كان يتصوره دليل الرجل ، وأنى أحب اللمسات الرقيقة وأن يتجاوب الجسدان معاً ببطء وسلاسة من متعة التقارب والتلاصق إلى قمة النشوة والامتلاء .

بالتدرج تجاوب معى فعشنا عيداً متصلاً لشهور طويلة . لا ييخل هو ولا أتردد أنا . لم أصدق أنى يمكن فى أى وقت أن أقبل هذا الفهم للحب والحياة . لكنى رافقته راضية تماماً ، سعيدة تماماً . هل سقطت بفضلها عنى أوهام كثيرة أو كنت أنا مستعدة لذلك من الأصل فلم يفعل محمود إلا أن نزع عنى قناع الزهد؟

معه أيضاً قبلت أشياء ما كنت أتصور أنى أقبلها . شعرت بعد شهرونا الأولى أنى لست وحدى فى حياته . أشمّ وهو معى فى الفراش رائحة امرأة أخرى وعرقها . أحسّ بطيف امرأة بينى وبينه ، ثم أكذب نفسى حين أجد عطاءه لا يقل بل يزيد . لكنى أعرف أن جسدى لا يكذبنى - هناك من تشاركنى فيه . اجتاحتنى غيرة لا تحتمل فقضيت نهاراً كاملاً أستجمع نفسى وأرتب أفكارى لأواجهه . وحين عاد من عمله ضاعت كل الأفكار التى رتبها فسلاته فور دخوله ونحن نقف فى صالة البيت : محمود ، هل تخوننى ؟ فردّ على بسؤال - تقصدين هل أعرف نساء غيرك ؟ أومأت برأسى فقال بهدوء - نعم . انفجرت وجسدى كله ينتفض - هكذا إذن ! فماذا لو عرفت أنا رجلاً غيرك ؟ ردّ ببساطة أقتلك على الفور . صرخت إذن فلماذا لا أقتلك أنا الآن ؟ سكوت لحظة كأنه يفكر ثم أخرج مسدسه من جرابه وقدمه لى بامتداد نراعه وهو يبتسم - فى الواقع هذا هو العدل . من حقدك هذا أيضاً . خذى . لن أمنحك . أزحت نراعه المصدودة واندفعت إلى غرفتى صائحة : لن أعيش مع مجنون ! أغلقت الباب على نفسى وبدأت أجمع ثيابى وأشيائى للرحيل .

قاطعته أربعة أيام وفى اليوم الخامس كنا معاً فى الفراش من جديد . قال وهو يضمّننى إليه - الكذب أسهل الأشياء لكنى لا أكذب ، جسدى هو المشكلة . لا تكفيه امرأة والطلاق ليس مشكلة أبداً . أنت أيضاً يمكن أن تتركينى فى أى لحظة لكنك لم تفعلى . كلانا يحتاج الآخر ولهذا ربطنا الزواج . تمتعت أسأله ولكن فى كل ذلك أين الحب ؟ فقال فوقى وقبلنى .

قبلت هذا النوع من الحب وهذا النوع من الزواج فهل هى حياة فى قلب الحقيقة أو فى قلب الكذب ؟ لم يخطيء . كلانا يحتاج الآخر . لماذا ؟ وحتى متى ؟ الآن أشعر أنه حتى هذه العلاقة التى قبلناها معاً قد تغيرت . ليست الحكاية هى النساء هذه المرة . لكن محمود ينسحب داخل نفسه كما لم يحدث أبداً منذ عرفته .

أَيكون كل ذلك بسبب المهمة التي كرهها منذ سمع عنها ؟ بذل كل المساعي لإعفائه منها ولم ينجح ، أعرف الخطر الذي ينتظره ولكن محمود ليس جباناً ، سيؤدى واجبه هناك مثلما اعتاد طول حياته سواء أحب الواجب أو كرهه ، أنا واثقة من ذلك ، هو يكتف حتى الألم الذى يعاوده فى موضع الرصاصة التى هتكت عظام ذراعه ، تشتد آلامه فى الشتاء والبرد وأدرك ذلك فقط من تعبيرات وجهه حين يضغط بيده بقوة على ذراعه ، لكنه لا يشكو ولا ينطق بكلمة ، قلت له مازحة إنه لن يعانى من البرد هناك أبداً ، فالحر على مدار العام ، هز رأسه قائلاً لو كانت المشكلة فى الحر ! ،

المشكلة الحقيقية لا أجعلها ، قرأت كل شيء عن الواحة كتبه المؤرخون والرحالة ، أعرف تاريخها القديم والحديث ، لعلى أعرف التاريخ القديم أكثر ، لكنى درست أيضاً ما جرى فيها منذ بداية هذا القرن عندما غزاها جيش والى محمد على ، ضم الباشا الواحة إلى مصر فأنهى استقلالها الذى استمر لمئات من السنين لم تخضع خلالها (سيوة) لأى دولة أو قوة خارجها ، قرأت كيف قاوموا حكم المصريين لا يكفون عن التمرد والثورة على الجنود ومحاربتهم ولا يكف المصريون عن قمع ثوراتهم بقسوة تلد تمرداً جديداً وثورة جديدة ، وأعرف كما يعرف محمود أن المأمور وهو حاكم الواحة يظل هدفاً ثميناً لهم ، فى البدء كانوا يقتلون العمدة المحليين الذين تختارهم القاهرة من أبناء سيوة ، يكون قتلهم رسالة إلى المأمور أنهم ليسوا بعيدين عنه ، لكنهم فى التمردين الأخيرين قتلوا المأمورين نفسيهما وأرسلت الحكومة جيشاً كبيراً أعاد الهدوء ثم انسحب ، فهل ما زال الهدوء باقياً ؟

أتمنى ، من زمن بعيد أحلم بالرحلة فى الصحراء دون أن أتخيل أنها ستتحقق بهذه الطريقة .. حلمت أن أرى الواحة التى خطا فوق رمالها الإسكندر الكبير وعاش فيها قصته المثيرة التى لازمته حتى الموت ، عندى أحلام أخرى هناك لا

أجسر حتى على التفكير فيها الآن . سيأتى كل شيء فى أوانه . المهم أننا سنكون هناك محمود وأنا وحدنا . لا خطر هناك فى أن تنازعنى فيه امرأة أخرى . الأخطار الأخرى ليست ثمناً باهظاً لنسترد حياتنا كما كانت فى صفاتها الأولى . تأخر محمود حقاً .

ربما ما زال فى النظارة ، أو لعله يودع شوارع مدينته ويفكر الآن مثلى . يجرى جرداً لحياته ويحسب كيف وصلت به إلى هذه اللحظة ، الانتقال إلى مصير مجهول مع هذه الأيرلندية التى رمتها المصادفة فى طريقه .

وأنا أيضاً ، كم من مصادفة قادتنى إلى هذه اللحظة ؟ لا .. لا . ليست مصادفات . أنا المسئولة عن كل شيء ولست نادمة أبداً . ربما يكون أبى قد وضعنى على بداية طريق ، ولكن إرادتى هى التى قادتنى إلى هنا .

لو كان حياً الآن لرأى فى كل ما يحدث لى مع محمود عقاباً أستحقه . ما كان ليوافق أبداً على هذا الزواج من الأصل وهو الكاثوليكي الغيور . مع أنه أول من علمنى أن أحب الشرق وأعشق آثاره . نعم ، أثار فضولى بالذات إلى ما تركه اليونان والرومان من آثار ما زالت مجهولة ، ولكن بالطبع بشرط أن أبقى بعيدة عن ناس الشرق الأحياء . هم فقط مستودع للتاريخ . يجب أن أتذكر دائماً أنني أيرلندية وكاثوليكية .

لا أنسى أبداً غضبته حين تحدثنا مرة عن الأديان ونحن نتكلم عن اليونانيين القدماء ، موضوعه المفضل . تطرق الحديث إلى ألهمتهم فقلت له إن اليونانيين أيامها ، مثل المصريين القدماء ، بل مثل كل الناس من قبلهم وبعدهم كانوا يعبدون الخالق كما يتصورونه ، وبما أن الإله واحد فى كل زمان ومكان ، فلا بد وأنه يقبل الصلاة من كل من يعبده . كنت صغيرة أيامها - ربما فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة - لكن أبى لم يحاول أن يناقشنى أو أن يعلمنى . احتقن وجهه - إذن فأنث تساووين بين من يعبد الإله الحقيقى الواحد ومن يعبد تمثلاً أو شجرة أو

أى إله زائف ؟ .. تساوين بين المؤمنين بالرب المخّص وبين الوثنيين والمتوحشين الذين يُصلّون لتساعدكم ألتهم في الصيد والحرب ؟ - رغم خوفى من غضبه لحظتها ردت عليه . لا أقصد ذلك أبداً يا أبى . أقصد أن كل الناس يبحثون عن الخالق ويعبدونه بإيمان ونية حسنة، وحتى لو أخطأوا الاختيار فهو يعرف بالتأكيد صدق نيتهم لأنه يعلم كل شيء . لكن أبى لم يسمعنى وصمم على أن أذهب إلى الكنيسة لاعترف للقس بخطيئتى وألتمس الغفران . وذهبت بالطبع لأنى أنا أيضاً كنت كاثوليكية مخلصة .

لكنم أفتقده الآن رغم كل شيء ! لو كان حياً لطلبت منه أن يساعدنى فى بحثى، فهو الذى علمنى اليونانية واللاتينية وقال لى موهوبة فى اللغات ويجب أن أستفيد من هذه الموهبة . أظن أنه لم يخطيء . علمت نفسى بنفسى قراءة الهيروغليفية ومشتقاتها ، وبعد زواجى من محمود تعلمت العربية . كان أبى سيفخر بى - فى هذه الناحية على الأقل . اعتاد أن يقرأ لى أبحاثه وترجماته عن اليونانية وأن يشجعنى أنا أيضاً على الترجمة ويحمس لكل ما أكتب . لكنى واثقة أنى ما كنت أستطيع إقناعه بزواجى من محمود . مستحيل .

أمى أيضاً لم أرها منذ جئت إلى مصر ولا أعرف ما هو شعورها الآن . تكتب لى أحياناً باقتضاب لمجرد الواجب . لم ترض عن زواجى الأول وأظنها أكثر رفضاً لهذا الزواج الثانى . أختى «فيونا» وحدها هى التى فهمت على الفور . ومثلما سامحتنى لزواجى من مايكل باركت زواجى من محمود . غفرت لى قصة مايكل وإن لم أغفرها أنا لنفسى . لا غرابة أن أبى كان يسميها فيونا القديسة . تكتب لى رسائلها الطويلة والمحبة باستمرار . هل ستأتى ذات يوم إلى مصر كما وعدت ؟ وكيف يمكن أن تصل إلينا حتى لو جاءت ونحن مسافران الآن بعيداً عن كل عمران ؟ كتبت إليها حتى تؤجل مشروع السفر .

لكن لأمض إلى النهاية . هل أريدها بالفعل أن تأتى أم أريد رغم شوقى لها أن

تظل بعيدة ؟ لا أريد ما يذكّرني بتلك القصة المؤلة . بصعوبة شفيت منها . أنا واثقة بالطبع أنها لن تفعل أى شيء لتعيد الذكرى . ربما حتى لا يرد اسم «مايكل» على لسانها لو تقابلنا . ليست هى المشكلة وإنما أنا : إحساسى بأنى سرقتها من أختى . لو تعرف فيونا كم هى محفوظة لأنها نجت منه !

جارنا القريب، صديق أبى وزميله الشاب ، المدرس مثله ، ذو الوجه الملائكى والحديث الهامس، جمع بينه وبين أبى الاهتمام بدراسة لغة اليونان وحضارتهم ، لكن أبى ظل طول عمره مكتفياً بالهواية . أما مايكل فكان ينشر مقالات فى مجلة محلية صغيرة ، وأحياناً يقبلون منه موضوعات فى مجلة شهرية متخصصة فى التاريخ . فهمت مثل الجميع وهو يتردد على البيت أنه مهتم بفیونا . اعتاد أن يقضى معها أوقاتاً فى حديقة البيت يتبادلان الحديث . ولم يكن فى ذلك أى غرابة . فیونا هى الأجل والأصغر والأرق . مجرد النظر إلى وجهها المشرق سعادة . أعرف أن جسدى لا بأس به ولكن وجهى عادى تماماً . غير أنه باغتنى بعرض الخطبة بعد عام من وفاة أبى التى لم أتخلص من صدمتها .

دخلت مكتبه ذات صباح مشمس فوجدته منكفئاً على كتاب يقرؤه . لم يمرض قبلها ولم يشك من أى شيء ، بل كان مرحاً أكثر من العادة فى ذلك الصباح . قال لى محمود إنه عاش صدمة مماثلة . لم أفهم معنى ذلك الموت . لا أفهم أى معنى للموت ، لكن مادام محتملاً فلنفعل شيئاً يبرر حياتنا . فلنترك بصمة على هذه الأرض قبل أن نغادرها .

سألت مايكل عندما جازى فى الصديقة : لماذا أنا ؟ فردّ لائى أحبك أنت . وفيونا ؟ فكرر أنت من أحب . وقالت أمى فى غضب شديد - أوحى لنا جميعاً أنه يريد فيونا والآن يخطبك أنت ؟ كأنها فضيحة . هل جرى بينك وبينه شيء لا نعرفه؟ أقسمت دون كذب إنى لم أفكر فيه أبداً ، وإنه فاجئى بطلبه ، ثم إنى أنا أيضاً لا أريده . لكن فيونا نفسها التى حسمت : هى لم تنتظر إلى مايكل أبداً إلا

كصديق لأبى والأسرة ، وحتى لو كان قد تقدم لها لاعتذرت .
إن يكن هذا صحيحاً فهي ليست فقط الأجمل بل الأنكى .
لا بدّ أنها فهمته أفضل منى . قالت إنها لن تقبل ما يكل فى أى حال وتركت لى
أنا حرية أن أقبله أو أرفضه . فكرت قليلاً ثم وافقت . قلت لنفسى ستجد فىونا
الجميلة بالتأكيد فرصاً أفضل .

لماذا أهملت إصرار أمى على أنه مهما يكن ما تقوله أختى فإن هذا الزواج
خيانة لها ؟ كان يجب أن أفهم مثلها أنه شخص لا يؤتمن ولكن ما كان لى أن
أعرف وقتها صفاته الأخرى . بعد الزواج فقط جريت غيرته المجنونة من الرجال
الأخرين . فرض علينا عزلة لا نزور فيها ولا نزار ولا نكاد نخرج سوياً من البيت .
لكن غيرته كانت أيضاً من الكتب .

اعتاد أن يرانى أدرس مع أبى وأن يُظهر أمامه اهتماماً بتشجيعى ومتابعة
تقدمى فى الدراسة . وبعد الزواج صار يكره أن يرانى أمسك كتاباً . يسخر من
قراءتى وترجماتى . ماذا سأفعل بها وأنا ليس لى عمل ؟ أليس الأفضل أن أهتم
بإشغال البيت ؟ يرمينى طول الوقت بالجهل ويكتشف أخطاء فى قراءتى لليونانية
واللاتينية .

جريت فى البدء أن أمتدح عمله . أبدى إعجاباً مبالغاً فيه بمقالاته وبالدراستات
التي أعرف أنه ينقلها عن غيره بشيء من التحوير . لا فائدة . على الأقل كان يفهم
أنى أنا فقه وأن إعجابى كاذب . لكنه لا يعترف بهذا بل يصبر على أننى فشلت مثل
غيرى من القراء فى إدراك الفكرة الأساسية فى مقاله . العيب عيبى أيضاً . أنا
المسئولة لأن أفكاره تستعصى علينا .

ومن بدء الزواج أيضاً اكتشفت بخله . لم يكن بخيلاً بالمال فقط . ليس ذلك
عيباً كبيراً فى بلد فقير لا يسمح للناس بترف التبنير . لكنه كان شحيحاً فى كل
شيء آخر ، حتى فى مشاعره .

فى المرات القليلة التى طارحنى فيها الحب كان يتصرف كأنه يقدم لى خدمة عظيمة ، خدمة يتعجل الانتهاء منها . لم أكتشف جسدى فى الحقيقة إلا مع محمود بعد المحاولات الفاشلة مع مايكل . عرفت مع محمود أن ممارسة الحب لحظة خارقة يخلق بها جسدان معاً خارج مدار العالم إلى نعيم يكون جديداً فى كل مرة . تحلّ نعمة فذة كان كل مرة هى أول مرة ، وكأن تلك الشهقة الأخيرة هى ميلاد جديد أو بعث جديد . شيء لم أعرفه أبداً مع مايكل ، يختلف تماماً عن لزوجة العرق والاشمئزاز وتوتر الجسد المتعطش إلى الارتواء وأرتياحه مع ذلك للخلاص من عذاب الاشتباك الذى لا يقضى إلا إلى التقرّز من النفس ومن شريك الفراش .

مرة سألته لماذا تزوجتنى ؟ فردّ على طريقته فى السخرية لى أعذب نفسى . لعله كان صادقاً ، لا يمكن لرجل أن يتزوج امرأة لا يحبها إلا إن كان يهوى تعذيب نفسه . ولكن لماذا ؟ ظلت حتى آخر عمره أرى فى عينيه نظرة حزينة وذليلة لفيونا . فلماذا لم يتزوجها هى واختارنى أنا ؟ عرفت فى حياتى رجالاً يتجنبون الارتباط بالجماليات خوفاً من نظرات الآخرين التى تتسائل هل يستحق هذا الرجل تلك المرأة ؟ ربما كان أيضاً جباناً إلى هذا الحد ، أو ربما كان متأكداً أنه لا يستحقها فاختار الأخت العادية التى لن يحسده عليها أحد ، ليعذب نفسه كما قال وليعذبنى معه أربع سنوات كاملة .

لكنه اكتشف بعد محاولتى الأولى لاسترضائه أنى لست من كان يظن . لست من تصبر على الإهانة ، بادلته قسوة بقسوة وكرهاً بكراهة . عرضت عليه فى يده زواجنا أن نقوم برحلة إلى مصر لأن مصر القديمة طالما فتنتنى ولأنى أملت لو سافرنا بعيداً أن نتجح فى التقارب والتفاهم . قلت إننا سنقتسم تكاليف الرحلة لأن ما تركه لى أبى كان يكفى لذلك . لكن مايكل اعتبر مجرد الفكرة دليلاً على الجنون . سفه وتبذير دون معنى . أستطيع أن أعرف عن مصر كل شيء من قراءة

الكتب إن كان عقلى يستطيع أن يستوعب شيئاً . تحدثته . بدأت دراسة لغة المصريين القدماء . درست بنفسى الهيروغليفية والديموطيقية . لم يرضه ذلك أيضاً . كان يخطف الكتب من يدى ويمزقها لأنى أضيع وقتى فيما لا يفيد بدل أن أعمل فى البيت . فلأحاول على الأقل إتقان اللغات التى بدأتها . كنت أقوم بكل هذه وأخذ كتاباً من مكتبته وأشرع فى تمزيقه . يهجم على ليضربنى ويمنعنى فأخذ مزيداً من كتبه أضربه ببعضها وأمزق منها ما أستطيع . كننا نقتل أهدنا الآخر فى تلك المعارك بالكتب والتضارب فى معارك أخرى . كان الأمر سينتهى فعلاً بجريمة أو فضيحة لأنى فكرت كثيراً أن أهرب من البيت ومن البلد كله لولا إشفاقى على أمى وفيونا ، ولو لم يقتله فى النهاية بخله وعناده .

ظل يعتبر السعال الذى يفتك بصدره نزلة برد عادية . عالج نفسه بالأعشاب والمشروبات الساخنة وخمر الروم الدافىء والحمامات الساخنة والباردة وكل الوصفات التى جربها أو سمع بها من قبل . رأينا جسده ينوى وسعاله يتحول إلى نباح مجرد سماعه يثير الغزع . ولم ينفع إلحاحى أنا وفيونا وأمى بأن يعرض نفسه على طبيب . المسألة لا تستحق ، آخر وصفة يجربها أو آخر شراب يتعاطاه هو العلاج المجرب والأكيد للقضاء على النزلة الموهمة . وفى النهاية ، عندما يصق مع سعاله كتل الدم وذهب إلى الطبيب كان الوقت قد فات من زمن .

أرعبنى منظره على سريريه فى المستشفى ووجهه بلون الطباشير وهو يلهث عاجزاً حتى عن السعال . كان الرعب موجوداً لكنى فتشت فى نفسى عن حزن حقيقى فلم أجد . حتى عندما كان ينظر نحوى بعينين مذعورتين كأنه يطلب نجدة لا أملكها . وارتعت من نفسى عندما مات لأنى وجدت داخل نفسى وبرغمى تنهيدة ارتياح تهتف : أخيراً !

لم يكن ذلك بإرائتى . لم أقتله ولم أتمن له الموت لكنه انتهى من تلقاء نفسه فما هو ذنبى ؟ قمت مع ذلك بواجبى فى فترة الحداد وأتقنت كل المظاهر المطلوبة .

لكن حزن فيونا عليه كان حقيقياً . ما يديرنى ؟ لعلها كانت تحبه بالفعل وإن
أنكرت . أو لعله قلبها الذى يعطف على كل الناس . ما يديرنى ؟ كأن حياتى ليس
فيها ما يكفى من التعقيد! .

أربع سنوات مع مايكل أماتت فى نفسى أشياء كثيرة ، وستتان مع محمود
بعثت فيهما من جديد . نعم ، لا أقل من بعث حقيقى لامرأة أخرى ، لعل الشفاء
بدأ منذ رحلة الصعيد التى يسرها لى ما ورثته من مال مايكل المسخر بنساً فوق
بنس . شعرت وأنا أتحرك وسط الآثار أتأمل الصور والتماثيل ، وأقرأ بنفسى
الكتابات المنقوشة على الأعمدة والجدران وأدونها فى كراساتى أن تلك متعة تفوق
ما كنت أحلم به ، ثم قابلت محمود . أية نعمة أنه نقيض لمايكل فى كل شيء !
يعطى بإسراف ولا يعرف حدوداً لأى شيء ، ولا حتى للتناقضات وتقلبات المزاج!
هاهو أخيراً .

أسمع وقع خطواته المألوف على السلم.

تعال يا محمود ! سنرحل إلى الصحراء معاً . سنولد هناك أيضاً من جديد
معاً ، وفى هذا البعث لن أفرط فيك ، ستكون لى .



٣- ممرود

هاهو بستان الروح كما قال سعيداً ربما روحه هو، لا روحى أنا، لا يحرك شيئاً فى نفسى هذا البستان الأصفر، ربما الغضب .
تترامى الصحراء أمام عينيّ ولا شيء فيها غير الرمال والكتبان والأحجار
والسراب اللامع فى الأفق ، قيظ بالنهار ولسعة برد فى الليل ، بين الحين والآخر
سلاسل من جبال رمادية كأنها بقايا جبل واحد حوّلته صاعقة إلى أنقاض
مهوشة .

أركب وكأثرين جملين فى المقدمة . تلبس زيّ ركوب الخيل بسرواله المنتفخ
حول الفخذين وتتفرد بسرج مسقوف بقماش سميك مثل هودج مفتوح . يبدى
الدليل ويدو القافلة اهتماماً بنا . ينصبون لنا خيمة فى الليل بينما ينامون فى
العراء مستترين من الرياح بجمالهم الباركة . أمّا الجنود العشرة الذين التحقوا
معى بالقافلة فيركبون فى المؤخرة ، باستثناء الشاويش إبراهيم جندى المراسلة
الذى ألحقه الأميرالاي سعيد بخدمتى قبل السفر وأوصانى به .

كلما مرّ يوم فى الطريق خيم صمت أعمق على القافلة وكل العيون مصوبة
للأمام تحقّق فى الفراغ . قيم يفكر كل منهم ؟ لا أعرف، ولكن الصمت يغزوينى أنا
صخباً وصوراً توقظ كل الماضى - كل الأحياء وكل الراحلين . ربما يكون ذلك قد
بدأ حتى من قبل الرحلة . أفكر فى أشياء كثيرة لا سيما فى النهاية .

هل أخاف الموت ؟ بالطبع . ومن لا يخافه ؟ أسأل نفسى كيف سيباغتتنى :
فى الواحة برصاص؟ أو كموت عادى بعد مرض قصير أو طويل ؟ فى حادثة
عابرة ؟ باختناق فى الحمام أو تسمم من طعام ؟ هل يأتى بدون أية مقدمات على

الإطلاق؟ مئات الأشكال تختبئ في زوايا مظلمة من الطريق لتتقش مرة واحدة هي نفسها النهاية. أتعمد كثيراً أن أنسى ، لكنني لا أنسى في هذه الرحلة أُمي . أراها في انتظاري في تلك الليلة عند عودتي إلى البيت. تجلس على مقعدها الكبير إلى جوار السرير ، بينما ترقد الخادمة على الأرض مستغرقة في النوم . كنت أعرف أن أُمي لا تنام قبل أن تطمئن إلى عودتي وقبل أن تسألني سؤالها التقليدي إن كان أخي سليمان قد كتب رسالة من الشام ، في الغالب لا تكون هناك أية رسالة ولكنني أطمئنتها بأنني سمعت أنه هو وأولاده بخير . قبكت كالعادة رأسها ويدها وسألتها إن كانت بحاجة إلى شيء . طلبت كوباً من الماء لأن قلبها لم يطاوعها أن توقظ الخادمة . وقبل أن أصل إلى باب الغرفة نبهتني " من القلة البنى " ، ثم لاحظتني و " في الكوب النحاس " . ذهبت إلى الصالة حيث تضع القل . في صينية على إفريز الشباك البحري ، ورفعت القلة التي تبخرها دائماً بالمسكة وتغطيها بمفرش رقيق مخمّر والتي يبرد فيها الماء بالفعل أكثر من غيرها . صببت الماء في الكوب النحاسي المزخرف بفروع نباتات ملونة ورجعت إلى الغرفة وفي نيتي أن أداعبها عن هذا الكوب الذي لا تشرب إلا منه لأن أبي أهداه لها ذات يوم . مرت بقيقة واحدة أو بقيقتان مع هذه الأشياء ، وعندما فتحت الباب والكوب في يدي ، رأيت رأسها يميل على صدرها . اقتريت منادياً فلم تجبني واكتشفت أنها انتت .

عشت شهرين عاجزاً عن فهم أي شيء . أكرر لكل من يعزّيني ما حدث ما بين لحظة خروجي من الغرفة وعودتي إليها ، كأن هذه التفاصيل تتطوى على سرّ أو لغز يفسر ما حدث . وكنت أمشي مرتعش الساقين ، لم أفهم وما زلت عاجزاً عن الفهم .

نعم أخاف الموت ومع ذلك كنت مستعداً في وقت ما أن ألقاه بون تردد . أيامها كان هناك معنى غير أنه زمن وانقضى . لم يعد يذكرني به سوى الالم

المتقطع لأثر الرصاصات التي هشمت عظام نراعى . أما الآن فمن أجل أى شيء .
أموت فى هذه الواحة المنسية وسط هؤلاء الببو الذين أكرههم ؟ تقول كاثارين إن
سكان الواحة ليسوا بدواً ، غير أن كل أهل الصحراء بدو وقد عرفتهم بما فيه
الكفاية . ستندم هى أيضاً لإصرارها على السفر . حذرتها كثيراً فظلت ترد دائماً
بأنه لا شيء يجعلها تندم ما دامت قد اختارت . لم أفهم مع ذلك سر تليفها على
السفر . أظن أنها مرة أخرى حكاية الآثار . أهلكتنى فى معابد الأقصر والصعيد
وسقارة ودهشور ، وفى النهاية اعتدت أن أتركها تذهب حيث تشاء بحراسة جندى
المراسلة . والآن تتحدث بوله عن الإسكندر الأكبر وزيارته للواحة ولا تصدق
نفسها أنها ذاهبة إلى حيث ذهب ! تريد أن تغير الصحراء لتتبع خطاه وتفتش عن
آثاره ولا يهم أن تكون حياتها هى الثمن . امرأة شجاعة ! امرأة مجنونة !
بصعوبة أقنعته أن تتخلى عن فكرتها بأن نجرب لدغ الثعابين قبل السفر لكى
نكتسب مناعة من زواحف الصحراء ! نصحتها بأن تأخذ رأى شيوخ الرفاعية
الذين اكتفوا بإعطائها قوارير فيها سوائل لا أعرف ما نفعها . لكن ربما هذا
الجنون هو ما يربطنى بها . لم تقنعنى أى امرأة عاقلة بقيد الزواج . بالطبع كانت
هناك قبلها (نعمة السمراء) لكنى أنا الذى أضعتها ، ولم يخطر على بالى يوماً أن
أُتزوجها . كفى !

لست مسافراً الآن من أجل كاثارين على أى حال ، ولا من أجل الترقية التى
ظل هارفى يلح على تنكيرى بها . ربما لولا عار المحاكمة العسكرية التى ألح إليها
سعيد ، ولولا أنى لا أعرف لنفسى مهنة أخرى لرفضت الترقية والسفر معاً ،
كفى ! فليحدث ما يحدث . أنكر من أيام المدرسة بيتاً قديماً من الشعر

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم ما فى غد عمى

تمنيت لو كان الأمر هو العكس . لو أجهل ما حدث بالأمس وأعلم ما فى الغد ،

بل أوافق حتى على أن أظل أعشى عما يحمله الغد بشرط أن يختفى الأمس أيضاً . أوافق على ما هو أقل - أن يشرق الصبح فأعيش يومى وحده وقد غابت من ذهنى كل الذكريات . أى ترتيب مريح للحياة أن نعيش اليوم دون إزعاج الأمس والغد معاً لكن فى هذه الصحراء لا شيء فى ذهنى غير الأمس وأنا لا أحبه .

فى النهار المشاهد المكررة نفسها ، لا يكسر رتابتها إلا مساحات متباعدة يتغير فيها لون الرمال إلى الأحمر أو الأبيض أو ظهور كثبان تجهد الجمال عند صعودها فتبطيء حركتها . وكل يومين أو ثلاثة يزعم الدليل مبشراً بقرب وصولنا إلى بئر أو إلى واحة صغيرة مهجورة نستريح عندها ريثما ترتوى الجمال . تمرّ عينيّ على المعالم مروراً عابراً لكنى أختلس النظر إلى كاثرين فأراها على ظهر جمالها تدير رأسها لليمين والشمال بدهشة لا تتطفيء فى عينيها . هل ترى هى أيضاً بستان الأميرالاي سعيد ؟ ما الجديد الذى يجذبها هكذا طول الوقت ؟ سألتها ذات ليلة ونحن نجلس أمام الخيمة وهى تتطلع باستغراق إلى السماء المزينة بالنجوم ، فردّت :

وكيف لا ترى أنت بنفسك ؟ مثلاً هذه النجوم . أنا لم أرها أبداً فى المدينة كثيرة لهذا الحد ولا مضيئة بهذا الشكل .

رفعت عينيّ للسماء وأنا أقول - لأن القمر مازال هلالاً .

فردّت : أعرف . لكنى أرى النجوم هنا أكبر وأقرب . أراها تومض وكأنها تتحرك نحوى باستمرار فأكاد ألسها بيدي ، كما لو كانت تسبح بسرعة فى السماء لتهبط إلى الأرض .

ضحكت ضحكة خافتة وأنا أقول أعرف أن كثيراً من الأيرلنديين شعراء ولكن الصحراء تغيرنا بشكل مختلف .
- فكيف تغيرك أنت ؟

- أنا تمتد صحراء أخرى داخل نفسي ، لا شيء فيها من سكون الصحراء
التي نعيشها . صحراء مليئة بالأصوات والناس والصور .
- هذا جميل أيضاً .
- يكون جميلاً لولا أن تلك الصور عقيمة أيضاً كالصحراء . كلها ترد إلى
ماضٍ ميت ، لكنها تطاربنى طول الوقت .
تتهددت وهي تقول : قد لا يكون للصحراء ننب في هذا . ربما تكون تلك أشياء
حملتها أنت معك إليها .
غمغمت وأنا أنهض : ربما .
كان حديثنا في الطريق يختزل أيضاً يوماً بعد يوم .



لكن الصحراء اندخرت لنامع ذلك شيئاً آخر .

فى الليلة التاسعة من رحلتنا أناخت القافلة بعيداً عن أى من واحات الطريق الصغيرة . وفى الصباح كان النور شاحباً ولم تغمرنا أشعة الشمس . ظلت مجرد كرة برتقالية فى السماء يحجبها ضباب أو غبار كثيف . وبدا الدليل متجهماً وعصبياً وهو يتعجل رجاله تحميل الجمال وإحكام وثاقها عندما بدأت ريع جنوبية خفيفة يصحبها صفير خافت تثير زوابع متفرقة من تراب أبيض يتطاير فى دوامات صغيرة ثم يهبط فوق الرمل .

ونصحنا الدليل حين اقترب منا وسط هرواته بأن نلثم وجهينا جيداً لنحمى الأنف والعينين ، غير أن القافلة واصلت الطريق كالعادة ، بل تقدمت بسرعة أكبر . وبدا لى أن الرياح تسوق الجمال على الرمال مثل القوارب فى الماء . انتفخت جلابيب الرجال وراء ظهورهم وأحنينا جميعاً رءسنا لتجنب الهواء والرمال . ثم بدأت الجمال تصرخ وهى تعدو تارة وتتوقف أخرى وظهرت فى الأفق البعيد سحابة بيضاوية كبيرة مثل تل حلزونى يزحف نحونا يبطء فوق الرمال . أمر الدليل بصوت صارخ كل الركب بالنزول وبأن ننيخ الجمال ونتشبث جيداً بأعنتها . لكن الأمر جاء بعد أن نفخ جملان حمولتيهما وانطلقا هائمين فى اتجاهين مختلفين . تطايرت حمولة من الأقمشة التى انتشرت أسرع ملونة هاربة فى الفضاء ، والأواني المعدنية التى راحت ترتطم ببعضها البعض فى صليل متتابع وسط صراخ الجمال وصياح الرجال ، بينما زحف التل الحلزونى نحونا بسرعة وهو يسوق أمامه رمالاً تنفذ إلى وجوهنا المثلثة مثل السهام . ومع اقتراب السحابة تحول صفير الزوابع إلى هزيم ملو ولم يعد أحد يسمع ما يصرخ به الدليل . احتضنت كاثرين فى صدرى ونحن نترنح مثل الباقيين نركب برغمنا فوق الأرض ونسقط ثم ننهض ونترنح من جديد وسط دائرة الجمال الباركة محاولاً أن أحميها ونفسى من وابل الحصى والحجارة الصغيرة التى ترجمنا قبل أن تطبق علينا

الظلمة الكاملة وبلغنا الهدير فلم أعد أسمع حتى صوت كاثرين التي كانت تصرخ وهي تتشبث بي . لم يعد غير طوفان الرمال والأحجار التي تأتي من كل مكان وتتراكم فوقنا - كلما حاولت أن أنفضها ازداد ثقلها فوق رأسي وكنتى وقتل نفسي إنها ستطمرنا إلى الأبد .

وفي اللحظات التي عجزت فيها عن التنفس والتي أطبق فيها ضيق هائل على صدرى تمنيت الموت من قلبي . وتسلك إلى رأسي فكرة خاطفة وأنا أحتضن جسد كاثرين المنتفض . فليأت ! هو مؤلم ولكنه ليس مخيفاً . فليأت بسرعة ! أود النهاية كراحة جميلة من عبء لا يحتمل . فليأت !

لكنه لم يأت ..

وإنما انتهى كل شيء فجأة .

وكما أدركتنا سحابة العاصفة وبعثرتنا في الصحراء انحسرت بسرعة ورحلت إلى مكان مجهول . حل سكون وسطعت شمس أما نحن فظلنا نسعل ونتنقل رمالاً صفراء امتلأت بها حلوقنا وأفواهنا وسمعت صوت الدليل اللاهث المتقطع يأمر رجاله بأن يلتقطوا ما يمكن جمعه من المتاع المتناثر في الصحراء . وزعق واحد من البدو.. لكننا فقدنا جملين، فردّ الدليل إن عاشا فسيبرجعان، وزعوا ما بقى من حمولتيهما على بقية الجمال . أما كاثرين التي ظلت تدفن رأسها في صدرى طول الوقت، فقد رفعت وجهاً شاحباً ومغبراً وهي تنزع لثامها وتشهق شهقة طويلة ثم حاولت أن تبتسم .

قلت وأنا لا أزال في دهشة من نفسي : لم يكن مخيفاً جداً .

غمغمت كاثرين :

ما هو ؟

الموت .

تراجعت خطوة وهي ترفع بصرها نحوي وسألتني تقصد أنه لم يكن قريباً

جداً؟ فكرت لحظة قبل أن أردَ عليها : بالعكس ، بل لأنه كان قريباً جداً .
لكنها لم تعد تسمعى . راحت وسط شبهقاتها وسعالها تنفض الرمال بعناية
عن وجهها وثيابها ، ولم أستطع أنا أن أشرح كيف أن قرب الموت هو الذى جعله
أليفاً ومرغوباً . وساعتها وجدت أمامى إبراهيم جندى المراسلة ووجهه يختفى
خلف قناع من ذرات صفراء متلاصقة لا يبدو منه غير العينين والشفقتين .
سألتنى بلهفة : سعادتك والهانم بخير ؟

- نعم وأنت يا إبراهيم ؟
- أنا كما ترى رجل عجوز يا سعادة الأمور . حين أطبقت علينا الظلمة تلوّت
الشهادتين ولكن كتب لنا عمر جديد والحمد لله
إبراهيم هو الوحيد بين صحبتى من الجنود الذى خاض الرحلة إلى الواحة من
قبل . شارك فى شبابه فى إحدى الحملات العسكرية على سيوة وزكّاه لى
الأميرالائى سعيد لهذا السبب .
كانت كاثرين تتابع حديثنا فأشارت بيدها إلى إبراهيم وهى تقول أرايت ؟ لم
أسألها عما تقصده ولا كان هناك وقت للسؤال . شملت الحركة القافلة كلها وبدأت
الجمال الباركة تنهض استعداداً للرحيل .



عادت القافلة تسير وسط هدوء تام. اختفى صوت الرياح وصراخ الجمال والقافلة تشق طريقها فوق رمال ناعمة وساكنة كأن الصحراء لم تعرف عاصفة فى أى وقت . الجمال المتعبه تتقدم ببطء ولا يحاول الحداة استعجالها وقد ارتسم الإجهاد على وجوههم أيضاً . وفى منتصف النهار وصلنا إلى بئر صغيرة تحفها أشجار قليلة معظمها ذابلة فوجدنا أحد الجمالين اللذين فقدتهما القافلة . كان باركاً وهو يئن وجسده مثخن بجراح مفتوحة مستطيلة كضربات سياط متوازية . ريت الدليل على رقبته وهو يخاطبه: كان يجب يا صاحبنى أن تسكن فى

العاصفة لا أن تجرى منها إلى الهلاك . ألم تعلمك الصحراء والقوافل ؟

ثم انحنى وراح يدهن جروحه بزيت يصبه من قارورة معدنية . التقت نحوى وأنا أراقب ما يفعله وقال كأنه يدافع عن نفسه : ليس هذا موعد العاصفة . أنت مبكرة شهراً على الأقل عن موعد العواصف . صحبت هذه الصحراء عمرى كله وأعرفها مثل كف يدى . أحفظ دروبها ومراسمها ولكنها تغدر . مهما صحبتها وأمنت لها يمكن أن تخونك .

- ليس بقدر ما يخون البشر .

سألتنى وهو منهمك فى تطبيب الجمل بيديه معاً : ماذا قلت لسعادتك ؟

- سألتك كم من الوقت سنبقى هنا .

- يجب أن ترتاح الجمال . سنقضى هنا بقية النهار ونبيت الليل .

أمر الدليل بأن نكون ، كاثرين وأنا ، أول من نستخدم البئر واحتجز عنا بقية القافلة . وبعد أن اغتسلنا وغيرنا ثيابنا التى كانت محشوة بالرمال ابتعدنا حين أقبل الرجال وهم يهللون ويقفزون فى البركة الضحلة المحيطة بالبئر . وقفنا تحت ظل نخلة تصل إلينا ضحكاتهم وصيحاتهم وهم يعبثون فى الماء وقالت كاثرين وهى تبتسم:

- قد يقال إن هؤلاء الرجال سعداء لنجاتهم من الموت . قد يقال إنهم وجدوه

مخيفاً بالفعل.

- وقد يقال أيضاً إنى كنت أخافه مثلهم لكنه حين اقترب منى ولامسته وجنت ناعماً ورقيقاً ، يهمس لى تعالى . كلما أتيت أسرع كلما كان أفضل . ليست أول مرة أواجه فيها الموت ، أما الآن فى هذه الصحراء فهناك شيء لا أستطيع شرحه ، إغواء أو نداء .

هتفت كاثرين فى غضب : كفى ! أنت تعرف أنى لا أخاف الموت . سيأتى فى موعده لكنى لا أشتهيه ولا أتغزل فيه . هذه الحياة لكى نحيها فلنحاول إذن أن نجعل لها معنى . فى الحقيقة أنت الذى تخيفنى الآن .

- إذن لا تهتمى . ربما هى لحظة عابرة ، فأتنا منذ بدأت هذه الرحلة لا أكف عن التفكير فيما حدث لى فى الحياة . سررات قليلة وأحزان ثقيلة . كان الصحراء تسألنى إن يكن هذا هو الحال ، أليس صحيحاً إذن أنه كلما كان أسرع كلما كان أفضل؟

- قلت لك لا نذب للصحراء ، ليست خواطرك الكثيرة عن الموت هى ما يزعجنى الآن ، فهى ليست اكتشافاً يفصك وربما يفكر معظم الناس بهذه الطريقة فى لحظات الأزمة والحزن ، لكن هناك شيء أبعد من ذلك موجود معك من زمن ولا نذب فيه للعواصف أو الصحراء فما هى أزمته يا محمود ؟ أنت وحدك الذى تعرف . أما ما أعرفه أنا فهو أن هذه الصحراء ستحاربنا وكذلك الواحة وأعداء نعرفهم وآخرون نجهلهم وسنموت بالطبع فى النهاية . سنموت مثل كل الناس ، ولكن يجب ألا نموت مهزومين .

- ومن قال إنى أنوى أن أنتحر ؟..

ثم ضحكت : سيتكفل أهل الواحة بالمهمة .. ولماذا تتصورين من الأصل أن أنتحر؟ ما الذى نملكه بالفعل غير هذه الحياة؟ يجب أن نعيشها حتى آخر لحظة . رفعت كاثرين يديها إلى أعلى واتسعت عيناها قليلاً وهى تقول :

- كيف أنى لم أجن حتى الآن ؟

وفى هذه اللحظة اقترب منا إبراهيم والماء مازال يقطر من شعره ويتخلل غصون وجهه الأسمر .

قال : سعادة المأمور يريد أى شيء ؟

ابتسمت وأنا أسأله : وما الذى يمكن أن تفعله من أجلنى فى هذا المكان يا إبراهيم ؟ تلفت إبراهيم فى الخلاء وأشار إلى نخلة عالية ذابلة وهو يقول نحن فى موسم البلح . لو كانت هذه النخلة تطرح بلحاً لطلعتها من أجل سعادتك ..

- كفى نفاقاً يا إبراهيم ! لو طلعتها لكسرت رقبتك فماذا ساستفيد ؟ وأنت

تريد أن تعيش أليس كذلك ؟

بسط كفيه وهو يقول : من أجل الصغار يا سعادة المأمور .

قالت كاثورين إذن بدلاً من طلوع النخل قل شيئاً ينفعنا عن الراحة قبل

وصولنا .

- لكنى حكيت لك كل ما أعرفه يا هانم . هى ليست مثل أى مكان وناسها غير بقية الناس . قولى عنهم ما شئت لكنهم أشجع من رأيت فى حياتى . عندما جئت مع الجيش قبل عشرين سنة كنا نضرب البلد بقنايل المدفعية ولم يكن معهم سلاح غير البنادق الصغيرة يطلقونها علينا من وراء الأسوار لكنهم لم يستسلموا مع كثرة قتلاهم حتى نفذت ذخيرتهم . بينهم عداوات لكنهم دائماً يد واحدة على الأعراب . وهم .. هم أيضاً لا يسمحون للأعراب بدخول بيوتهم .

قالت كاثورين ضاحكة : ولا سيما الكفار ، أليس كذلك ؟

بدأ الارتباك فى وجه إبراهيم وهو يغمغم : العفو يا هانم .

التفتت كاثورين نحوى وهى تقول : قرأت بالفعل أنهم يكرهون الأوروبيين بالذات

وأنهم قتلوا منهم بعض الرحالة الذين ذهبوا يستكشفون الواحة .

- عندما أفكر فى كل الكوارث التى جلبها الأوروبيون على بلدنا قاتنا لا ألومهم .

ولا تنسى أنى حذرتك أكثر من مرة . أنتِ التى صممت .
قالت بخفة: ومازلت مصممة . سترى أنى سأروضهم .
التفت إلى إبراهيم وأنا أقول: ولكنى أظن أن كرههم للحكومة أشد !
قال بصوت خافت : هم يكرهون دفع الضرائب . وأظن أن معهم ..
ثم لزم الصمت واستأنن فى الانصراف ورجع ناحية البئر .
قلت لنفسى إذن فسيستقبلوننى بالأحضان من أول لحظة ! المطلوب منى قبل
كل شيء جمع الضرائب المتأخرة . أن أرسل للقاهرة فور وصولى حمولة ألفى
جمل من التمر ، وخمسمائة جمل من زيت الزيتون وغرامة مالية للتأخير خمسة
آلاف ريال . أحسن المستر هارفى الاختيار !
كانت بقية القافلة مقبلة نحونا وبعض الرجال يعصرون ثيابهم المفسولة وتقدم
أحدهم مهولاً وهو يقول :
- غير الدليل رأيه . قرر أن نرتاح هنا الآن وأن نستأنف الرحلة بالليل . يقول
إن الصحراء أكثر أمناً من هذه البركة التى تقصدها الذئاب والضباع فى الظلام.
قلت وأنا أضرب بعوضة على خدى : وكيف ستكون جحافل هذا البعوض فى
الليل ؟



نصبوا الخيمة الوحيدة فدخلت كاثرين لقتام . هي محتلوطة يأتيها النعاس
سريعاً حينما تشاء . لا تخوض منى معركة مع النوم كل مرة . نام الرجال أيضاً
- البنى والتجار والجنود وهجعت الجمال استعداداً لرحلة الليل . الصحراء
فى سبات تمتد حتى الأفق يحرأ ساكنأ من رمال منبسطة ، لا حركة ولا صوت ،
هى والجمال والبشر يتعافون من العاصفة . ما أعمق هذا السكون ! قال لى
الأميرالائى سعيد صدقتى أنى من ناحية أحسبك لأتلك ذاهب إلى الصحراء ، جنة
الأنبياء والشعراء . إليها يفر كل من يترك وراءه الدنيا لى يجد نفسه وفيها تورق
الأنفاس الذابلة وتزهو الروح . ما أطيبك يا سعيد ! كان ما عاشه الإنسان عمره
كله وتراكم فى الصدر يمكن أن يتبخر بمجرد النقلة من التراب إلى الرمل ! أنت
مثل كاثرين التى تتفرل فى الصحراء وتقول إنها تغيروا . يدشنى هذا حقيقة ،
فهى ليست من أهل الطريق مثل سعيد ولا أظن أن أمور الروح تشغلها . وكيف
تقول بهذه الثقة أننا سنهزم الدنيا ؟ أى سلاح كان يمكننى أنا مثلاً أن أشهره فى
وجه الدنيا بعد أن أغمد الجميع السلاح ؟ الطيبون مثل الأميرالائى سعيد اكتفوا
بأن يضعوه فى القمد أما الباقون فأغمدوه فى صدر البلد . رأيت يعينى (الوالس)
الذى كسر عرابى ثم رأيت (الوالس) الأكبر بعد أن كسروه . جنب بيتى بالضبط.
فى الميدان الذى شهد المجد والفرح وعرابى فوق حصانه شاهراً سيفه يعتف
الخدو الذى طالما أذلهم " لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا ترأثاً وعقاراً ووالله
الذى لا إله إلا هو إننا لن نورث وإن نُسعيد بعد اليوم " والناس يتجمعون وأفدين
من الشوارع والحواري يتعانقون على غير معرفة وفى عيونهم دموع الفرح . يوم
عيد فى المحروسة وفى المكان نفسه ، بعد سنة لا غير ، رأيت العربات المذهبة
تجرها خيول مطهمة تنهأى واحدة بعد أخرى إلى الميدان الفسيح ، تقل كبار
رجال البلد ، الباشوات والبيكوات ، نواب البرلمان الذين كانوا يلقون الخطب الملتهية
ضد الإنجليز أيام (الهوجة) ، رأيتهم هم أنفسهم ، يترجلون بجلال من عرباتهم
، بثيابهم المطرزة ونياشيتهم المذهبة لينضموا إلى الخديو فى منصته وهو

يستعرض جيش الاحتلال وعلى يمينه الأميرالاي سيمور الذى دمرت مدافع أسطوله الإسكندرية وعلى يساره الجنرال واسلى الذى أباد بمعونة الخونة جيشنا فى التل الكبير . وأقرأ بعد ذلك بأيام أن هؤلاء البكوات والباشوات جمعوا فيما بينهم مبلغاً كبيراً من المال وقدموا به هدايا معتبرة لسيمور وواسلى، ويومها بكيت بلدى ونفسى، وتسألنى كاثرين ما هى أزمى؟

لكن ما هى بالفعل أزمى ؟ هذا عهد قديم مضى وانقضى فما هى المشكلة الآن ؟ قمت من مكانى ومشيت مولياً وراء ظهري الخيمة والواحة المهجورة لا شيء غير الرمل وتلال بنية بعيدة مثل تماثيل لوحوش رابضة . رأيت الرجال ينامون مبعثرين فوق الرمل يحتذى كل منهم بما يجده من ظل تحت نخلة أو شجيرة أو فى ظل جمل بارك ، والبعض يغطون وجوههم بمناديل كبيرة . استطاعوا هم أيضاً أن يجدوا السلام والنعاس فى هذا القبط. وحدى إذن أنا العاجز عن النوم . أقضى الأيام والأعوام فى تفتيق صلح مع نفسى لا يعيش طويلاً . ما إن أقول إننى عملت ما كان ينبغي عمله حتى يهزأ منى شىء فى داخلى فأجبرى إلى الخمر والنساء مثلما كان حالى وأنا مراهق وشاب. لكن أين هى براءة العمر الأول عندما كانت الأشياء سهلة وبسيطة ولمائية النفس تأتي دون تعب ولا تفقيد ؟ وما جدوى التفكير فى ذلك على أى حال؟ لكن لا مهرب من الوجوه التى تزحم الفضاء وتفرض وجودها فجأة على غير انتظار . يطل أبى . أراه فى دكانه فى الموسيقى بزجه البشوش الواثق من نفسه فى أيام مجده ثم يهاجمنى بالوجه العجوز الكسير بعد هزيمته . يظهر أخى سليمان الذى غاب عني من زمن فأحاول أن أسترجم ملامحه . وأرى وجه نعمة السمراء ، الوحيدة التى ظلت أبحث عنها فى كل من عرفت بعدها من النساء . ويطفو وجه طلعت زميلى وصديق الشباب لكن مع ظهوره تختفى كل الوجوه الأخرى ويطن فى أذننى نوى المدافع. أنفنيه عامداً وأرجع إلى نعمة . لم أترك قيمتها عندما كانت ملك يدي ؟ لا تفلح حيلتى . طلعت هو الذى ينفىها ويحاصرني . سأرجع من حيث أتيت.

لا تحملنى قدامى طويلاً فى الشمس الحارقة فأعود إلى الخيمة أستجدى النوم. لا فائدة . لا نوم يقترب من جفونى ولا أستطيع حتى أن أغمض عيني . لا مهرب من وجه طلعت . أخرج من الخيمة وأجلس على الرمل فى ظلها . محفورة فى الزمن تلك الساعات والأيام مع طلعت مهماً تعمدت أن أزيحها . أرانا نجرى أنا وهو على شاطئ البحر . نجرى من قلعة إلى أخرى مع دوريتنا الصغيرة من الجنود . ننتظر أن يتوقف ضرب المدافع فنزاحم الأهالى المنذعين نحو البحر ، نحو المكان الذى دارت فيه آخر معركة . ثيابنا جميعاً ملطخة بالدم . لا وقت لنفكر فى شيء ولا حتى فيما يدور تحت أعيننا . يجب أن نسرع . قنابل الإنجليز القادمة من أماكن كثيرة من البحر تتطاير شظاياها فوق رؤوسنا . نصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نخترق الجموع المتدافعة فى شوارع الإسكندرية لكى تفسح الطريق للخيول التى تجر العربات . ننزل تارة لكى نشق الطريق بأجسادنا ثم نعود مرة أخرى لنعتلى العربات المكسّة بجنود الطوابى المربطين فوقها بالحبال لكى لا يسقطوا فى الطريق ومعهم من أصيب من الأهالى الذين تطوعوا فى الطوابى . لا شيء بيننا نفعله لنستجيب لاستغاثات الجرحى وأنيهم ولا لنوقف نهر الدم المتساقط من العربات بطول المسافة من الطابية حتى باب المستشفى فى الرمل . نتركهم فى المستشفى يفرزون الموتى من الأحياء ونرجع مسرعين مرة أخرى بطول الساحل نبحث عن ضابط كبير أو رئيس يوجهنا لشيء مفيد نفعله . كنا مجرد ضابطين ملازمين صغيرين انتدبونا من القاهرة إلى الإسكندرية بعد المذبحة التى قتل فيها عدد من الأجانب واتخذها الإنجليز مبرراً للحرب . لكننا لا نجد أحداً من الرؤساء نسأله . وأرانى مع طلعت فوق ريوه نرقب من بعيد ما يجرى لإحدى الطوابى . يقول طلعت بصوت مختنق هذه مجزرة وليست حرباً وأردّ معك حق . نرى سفن الإنجليز تضرب الطابية كما لو كانت فى نزهة استعراضية . تتجمع ثلاث سفن كبيرة فى نظام هندسى وتوجه مدافعها نحو الطابية ثم تتسفها

بكل دقة ، وترد الطابية ، يرد من بقى حياً فيها ، يضرِبون مدافعهم العتيقة فتسقط قذائفهم بعيداً جداً عن السفن . حتى القنابل التي تصل إلى الأسطول تصدها ستائر من فولاذ تحيط بالسفن فتتفجر مكان القذيفة نافورة بيضاء عملاقة في البحر دون أن يصيب أى سفينة أذى ، لكن الانتقام يأتى على الفور ، تقترب البوارج المظمنة من المنافذ التي تطل منها المدافع وتضربها بنيران الرشاشات . تحصد جنود المدفعية الذين لا تحميهم ستائر من فولاذ ولا من حجر ، ولا يتوقف الضرب إلا بعد نصف الطابية وجنودها فتجرى نحوها . تتلهف على سماع صوت خيول عربات الإسعاف وأجراسها لكن القصف يستمر حتى بعد أن رفعت الطوابى الرايات البيضاء ولم يبق فيها مدفع واحد يصلح للضرب .

وفي طريق عودتنا من المستشفى العسكرى نرى المرائق فى المدينة ، فى المنشقة وفى كرم الدكة . ونرى فى أحد الشوارع الأعراب يحطمون المتاجر المغلقة وينهبونها . يلقون المشاعل ليجرقوا ما لم تسبقهم إليه مدافع الإنجليز . نجاصرهم ونطلق عليهم نيران مسدساتنا وبنائنا فيتحصنون خلف الجدران ويبادلوننا إطلاق النار . تسليحهم أفضل منا بكثير . غير أن كبيراً منهم يأمر رجاله بصوت عال بإيقاف الضرب ويتقدم نحونا وهو يرفع يديه . يقف فى منتصف الطريق ويسألنا بدهشة لماذا نطلق النار ؟ ألم تصلنا الأوامر ؟ هم ينفذون الأوامر فلماذا نقف فى طريقهم ؟ يسأله طلعت أى أوامر يا مجنون ؟

أرى عيني طلعت المحمرتين والدم المتجلط فوق سترته العسكرية وفوق يديه مثلى ومثل كل جنود النورية . منظره هو الذى ينطق بالجنون بينما يقف الأعرابى أمامنا بثيابه البيضاء الضففاضة يخاطب طلعت بهدوء واستعلاء : أوامر سعادة الباشا المحافظ يا حضرة الملازم . هل نسيتم كيف ساعدناكم قبل شهر يوم قتل الأروام ؟ ألم يأمركم عمر باشا يومها بالآ تتعرضوا لنا ونحن نضرب الأجانب ؟

ألم تنتفوا الأوامر لكى يسقط عرابى الذى يعصى أفتدينا الخديو ويخرب البلد ؟
ما الذى تغير الآن ؟ لماذا تضربون علينا النار ؟

بدأ طلعت يضحك ضحكات قصيرة أشبه بالشهقات وهو ينظر نحوى قائلاً
سمعت ؟ هيا بنا يا محمود ! فلنرجع إلى القسم ! فلنرجع إلى البيت ! هل نعصى
أوامر رئيسنا سعادة المحافظ ؟ نعصى أوامر مولانا الخديو ؟ مولانا الأميرال
سيمور ؟ فلنرجع إلى البيت ! .. ظل يضحك ضحكاته الغريبة وهو يلوح بيده
المسكة بالمسدس فشعر الإعرابى بالخطر وبدأ فى التراجع فى اتجاه رجاله
المتحصنين خلف الجدران لكن طلعت صرخ وهو يصوب مسدسه نحوه: انتظر !
انتظر ! خذ هذه لك ! وهذه لمولانا الخديو ! وهذه لـ .. ولم يستطع أن يسمى من
يريد له طلقته الثابتة لأن رصاصات كثيرة انتهالت نحوه من أتباع البدوى الذى
جرى ليلحق برجاله . طرحت طلعت أرضاً وانبطحت بجانبه . استطعت أن أصيب
البدوى فسقط على الأرض وظل يزحف حتى لحق ببقية العريان وأصابتهى أنا
رصاصه فى أعلى ذراعى اليسرى عند الكتف . ولم يبق لنا غير الأهالى الذين أتوا
على صوت إطلاق النار وهم يحملون البنادق والنباييت والسكاكين ، فلاد معظم
العريان بالفرار ، لكنى استطعت القبض على عدد منهم . توجهنا إلى مستشفى
الرهبان فى شارع السبع بنات فضمموا جرحى وأودعت هناك طلعت والجرحى من
الجنود والأعراب ثم سقت المأسورين إلى قسم اللبان .

نظر مأمور القسم الإيطالى الجنسية إلى ذراعى المضمدة والمربوطة إلى عنقى
ولم يقل شيئاً لكنه أشار إلى العريان المقبوض عليهم وسألنى - بما هذا ؟ حكيت له
ما حدث فظل يتطلع فى وجهى صامتاً لفترة قبل أن يشير إلى جنوده أن يودعوا
الأعراب فى الحجز ثم أشار لأول مرة إلى ذراعى المربوطة إلى رقبتى وهو يقول
ما زالت هناك حرائق فى المنشية، إن لم يكن جرحك خطيراً ، فاذهب بسرعة مع
الدورية وساعد فى إجلاء الأهالى . وكان هذا هو التكليف الوحيد الذى تلقفته فى

ذلك اليوم . سألت المأمور عما سيفعله بالأعراب، فردّ باللغة العربية التي لا يتكلمها ولا يفهمها : " شوف شغلك !

ولم يكن هناك شغل يمكن أن أقعله أنا أو الجنود في المنشية أو في أى مكان آخر من المدينة . تحولت الإسكندرية إلى شعلة من النيران بعد أن تجدد الضرب من الأسطول ولم تميز القنابل بين الحصون والبيوت ولا بين الجنود والأهالى . تدافع الآلاف رجالاً وأطفالاً ونساءً نحو باب رشيد على مدى يومين ليفلتوا من مدينتهم المحترقة . سيل لا ينقطع من البشر جرف معه جنود النورية فوجدت نفسى وحيداً أنتقل من مكان تقترب منه السنة اللهب إلى مكان آخر تدفعنى إليه الجموع التي تزحف ويحاصرنى أزيز النيران ويكاء الأطفال وعويل النساء وشتائم الرجال الذين يلعنون بصوت عال الإنجليز والخبث والجيش والشرطة وأشار بعضهم نحوى وهم يقولون «خونة ! » . معهم حق . ففى ذلك اليوم الذى احترقت فيه مدينتهم وفتقوا أنباعهم ، وأباعهم من كان يستطيع أن يفرّ من خان ممن لم يخن ؟ الخديو انتقل من قصر إلى قصر ليحتمى بالأسطول الذى يفوز بلده ، ولاذ به كثير من كبار البلد ، والجيش انسحب بعد تدمير الطوابى دون أن يشرح لهم سبب خروجه من المدينة ، والشرطة تركتهم دون حماية ممن يحرقون وينهبون . طويت وسط نيران الحرائق والفوضى الصفحة التى سطرتها شجاعة جنود الطوابى ومن حارب معهم من أهل المدينة . فكيف كان لى أن أقول لهؤلاء المهاجرين الذين يسبوننى أننى أنا ، بالذات ، لم أخن ؟

ولا تبقى فى ذهنى غير صور مبعثرة من هذين اليومين . أرانى وسط الآلاف الذين يسدون الشوارع وعربات (الكارو) المحملة بالناس والأمتعة والمتوقفة وسط هذا السد من البشر والكل يتشاجر مع الكل ، وأرى غيمة الغبار والدخان المعلقة فوق الرعس والتي نشرت الظلمة فى عز النهار ، وأشارك مع سرية من الجيش تقبض على لصوص ينهبون المتاجر المهجورة وتعدمهم فى الحال ، وأرى طوابير

من الجنود متجهة نحو باب رشيد للخروج من المدينة ، لكنى لا أنكر هل نمت ولا أين نمت ولا ما الذى فعلته بالضبط فى هذين اليومين . ذهبت بالطبع إلى المستشفى ليفيروا ضمادات الجرح الذى كان ألمه يشتد ولكى أطمئن على طلعت . أصابته رصاصات فى بطنه وساقيه لكن حياته لم تكن فى خطر (ليتها كانتا ليت مات فى لحظة صدقه ! وليتنى رحلت معه !) . ورأيت رئيسى الإيطالى حين ذهبت إلى القسم . أشار باشمئزاز إلى قذارة زىى الرسمى . لم يخرج هو أبداً من المكتب أثناء ضرب المدينة ، وكانت شارات رتبته تلمع على كتفيه وزية الرسمى النظيف محكم على جسده الممتلئ . وأذكره وهو يسلمنى تلك الورقة الصغيرة المزينة بالإختام التى تلقى أمر انتدابى لأعود فوراً إلى عملى فى المحرسة دون أن يشرح السبب . لكننى اكتشفت فى القاهرة أنه أرسل برقية يتهمنى فيها بالتقصير فى أداء واجبى وأثنى تغيبت عن عملى يومين متتاليين وهو يشك أننى عاونت خلال هذه الفترة العصاة الذين نشروا الفتنة فى الإسكندرية ويطلب التحقيق معى .

لم يستغرق التحقيق الذى أجراه معى اليوزياشى سعيد أفندى وقتاً . كان الحال فى القاهرة يختلف تماماً عما تركته ورائى فى الإسكندرية . فالعصاة هناك هم الأبطال فى القاهرة المحرسة .. كلهم مجلس تكوّن من كل طوائف أهل مصر بالدفاع عن البلد ضد الغزاة .

قلت فى التحقيق كل ما فعلته منذ بدء ضرب الطوائى ، ونكرت بالذات ما سمعته من الأعرابى عن تعليمات المحافظ عمر باشا لطفى يوم المذبحة وأثناء ضرب الأسطول للمدينة ، وسجّلت ما حدث منذ إطلاق النار علينا وحتى تسليم العربان المقبوض عليهم فى قسم اللبان . ولم تكن برقية المأمور الإيطالى قد أشارت بكلمة إلى هؤلاء العربان ولا إلى إطلاق النار علينا وإصابتنا . واستشهدت على كل ما حدث بالملزم طلعت الذى كان علاجه مستمراً فى الإسكندرية .

سجل الـيونـياشـى سـعيد أقوالـى وأمر بحـفظ التحـقيق وعودتـى للـعمل . كـنا ، كـلانا ، مـشـغولـين مـع الشـرطـة فـى حـفظ الأمان بالقاهرة فـى فـترة الحـرب . أهـملت حـتى عـلاج الجـرح الغائر فـى كـتفى فـتأخـر التئامه وشفـاؤه . كـنت أتابع مـع الناس بفـخر وحماس ما يـحدث فـى القـتال فـى كـفر النوار . صمود جـيشنا وعـجز الإنجليز عـن كـسر التـحصينات هـناك وانسحابهم أمام هـجمات جنودنا .

لكن باب التحقيق فُتِحَ معى من جديد بعد شهرين وكان كل شيء قد تغير .
أسأل نفسى طول الوقت عن الخيانة . سألت نفسى كثيراً لماذا خان الباشوات والكبار الذين يملكون كل شيء ؟ ولماذا يدفع الصغار دائماً الثمن - يموتون فى الحرب ويُسجنون فى الهزيمة بينما يظل الكبار أحراراً وكباراً ؟ وسألت نفسى ولماذا يخون الصغار أيضاً ؟ لماذا خان الضابط يوسف خنفس جيش بلده فى التل الكبير وقاد الإنجليز ليفدروا به ويفتكوا به ليلاً ؟ كيف كان يفكر وهو يرى مدافع الإنجليز تحصد إخوانه ورفاق سلاحه اللذين كان يأكل معهم وينام معهم ويضحك معهم ؟ وهل وقعت عيناه على زميله الضابط محمد عبيد وهو راى على مدفعه وسط الفوضى والهزيمة يطلق النار على الإنجليز حتى صهرته حرارة مدفعه كما سمعنا ؟ كم أحببته وكم أحبه الناس ! لم يصدقوا أنه مات . يقولون إنه غاب فقط ، يسمونه الشيخ عبيد ويقولون إنه شوهد مرة فى الشام ومرة فى الصعيد . ينتظرون رجعه ليواصل الحرب ضد الإنجليز ! لكنه يظل حياً ، أما يوسف خنفس فهو الحقيقة الباقية . لماذا يرحل عبيد فى عنفوانه مثل طير يمرق فى السماء بسرعة ويعيش خنفس دهرأ كئنه لن يموت أبداً ؟ لماذا خان ؟ لماذا نخون ؟ ويقول الدليل إن الصحراء تغدر لمجرد عاصفة أتت فى غير أوانها اتعال أحذرك أنا كيف يكون الغدر !

٤- كافرين

يفوص محمود داخل نفسه ، أراه يفوص أكثر فالكثر ، يركب الآن فوق جملة مطرق الرأس كالنائم دون أن ينظر حوله إلى شيء . توقعت أن تخرجه هذه الصحراء قليلاً من قوقعته ، أن يرى كم تختلف عن أى مكان رأيناه معاً فى مصر ، لكنه يسألنى فى دهشة ما الذى يعجبك فيها ؟ كيف لا يرى ؟ قرأت كل شيء عن هذه الصحراء وعن سيوة من قبل أن نبدأ الرحلة - كل ما جلبته معى من أيرلندا من كتب الرحالة والمؤرخين وكل ما استطعت أن أجده فى مكتبات القاهرة . اعتقدت أنى لن أكتشف جديداً وإن يدهشنى شيء . درست كل المكتوب عن الطريق وعن الآبار والكثبان والعواصف ، لكن الكتب لم تحدثنى عن الصحراء الحقيقية . لم أعرف منها كيف تتغير الألوان فوق بحر الرمال عبر ساعات النهار ، ولا وجدت فيها كلمة عن تحرك الظلال وهى ترسم سقفاً رمادياً خيالياً على قمة تل أصفر أو تفتح بوابة داكنة فى وسطه ، ولم تعلمنى كيف تنعكس السحب العالية الصغيرة فوق الكثبان أسراباً مسرعة من طيور رمادية ، ولم تتحدث عن الفجر ، بالذات الفجر ، وهو يتحول من خيط رقيق أبيض فى الأفق إلى شفق أحمر يزيح الظلمة ببطء إلى أن يتوهج الرمل بحرراً ذهبياً مع أول شعاع للشمس وساعاتها تنفذ إلى أنفى رائحة لم أعرفها فى حياتى أبداً من اختلاط ندى الفجر بالشمس بالرمل ، رائحة شهوانية لا تنفذ إلى أنفى وحده بل تتفتح لها مسام جسمى كله فأكاد لولا الخجل ، لولا أصوات رجال القافلة الذين استيقظوا خارج الخيمة ، أن أمسك بيد محمود وأقول تعال هنا بسرعة ! فوق هذا الرمل المبتل !

وأسال نفسى بدهشة كيف لا يشعر هو بما أشعر به ؟ لم لا يحتضننى أو

يقبلنى على الأكل ؟

فى كل لحظة تحمل لى هذه الصحراء جديداً ، ولكن «محمود» هو الذى يفاجتنى . يقول إن الصحراء تنتشر داخل نفسه . ليت هذا كان صحيحاً ! ما أغناها هذه الصحراء ! لكنى لم ألاحظ أيضاً قبل ذلك أن الطبيعة خارج الصحراء تستهويه . لم يتوقف أبداً أمام أشجار أو زهور . لم يقل مرة إن البحر يفتنه أو النهر . وعند زيارة الآثار يستبد به الملل بعد خمس دقائق ، لا يتأمل عمارة بناء ولا لوحة على جدار .

لا أريد أن أقول إنى أنكى منه أو أنى أرى ما يعجز هو عن رؤيته . ربما أنا التى أعجز عن فهم ما يهتم به لكنى حاولت ، أحاول ، فهذا هو الرجل الذى أعشقه . شجعت على قبول المهمة على أمل أن تغيره الرحلة الطويلة وأن يبعث الخطر روحه الهامدة . لكنى لن أكون صابقة تماماً لو قلت هذا . فانا أيضاً أقطع هذه الصحراء ، لكى أنفذ مهمة ! ولكن فلننتظر الآن ، لم يحن الوقت بعد حتى للتفكير فى ذلك وأنت الآن يا محمود مهمتى ، أنت شغلى الحقيقى . ما الذى يجعلك تنبهر إلى هذا الحد بخاطر الموت فى العاصفة بدل أن يدفعك للتشبث بالحياة مثل إبراهيم ومثل كل الناس ؟ وهل غيرت رأيك فجأة لكى ترضينى أم أن هذا جزء من تقلباتك التى لا أفهمها ؟ وفى وسط هذه التقلبات أين أجد «محمود» الحقيقى ؟ ساكتشفك مهما طال الوقت . وربما معك أيضاً ساكتشف كاثرين حقيقية أجهلها ، من يدري ؟

تشق القافلة طريقها نحو الغرب فى الصحراء فتقترب من الواحة يوماً بعد يوم . أشتاق حقاً إلى الوصول إليها . كل شيء فيها كالأساطير . المكان والناس والتاريخ والجغرافيا . هى كما قرأت جزء قديم من البحر وما زالت هناك حتى الآن فى رمالها وتلالها أصداف البحر وقواقع . سكانها ينتمون للغرب لا للشرق ، إلى قبيلة زناتة من قبائل البربر فى المغرب ويتكلمون لهجة من لغة البربر . لكنها فى

الزمن القديم كانت جزءاً من مصر الفراغة ومركزاً لعبادة إلههم الأكبر آمون .
وهناك أسطورة الأربعين شخصاً الذين هجروا قرية أغورمي المليئة بآثار القدامى
ليبنوا في الغرب منها وسط الصحراء الفسيحة مدينتهم الحالية ويحيطوها
بالأسوار.

أشتاق بالفعل إلى رؤية ذلك كله وفهمه ولا بد أن الواحة تبادلني شوقاً بشوق !
لا أظن أن أحداً مثلي قد أتاها ، كل من جاورها قبلي اكتفوا بوصف آثارها من
الخارج ، وبعضهم رسموها ، ولكن من منهم كان يستطيع قراءة لغة المصريين
القدامى أو لغة اليونان ؟ حتى الذين نقلوا النقوش من على المعابد أخطأوا أخطاء
فاحشة لأنهم نقلوا الهيروغليفية باعتبارها مجرد رسوم . استطعت بمجرد النظر
إليها أن أدرك الأخطاء . أنا الوحيدة القادرة على كشف أسرارك أيتها الواحة .

قليلٌ من التواضع يا كثارين !

لماذا؟ أليست هذه حقيقة ؟ مع ذلك فلأسكت حتى لا يصيبني الكبرُ الذي رأى
اليونان أنه أصل كل المأسى في الحياة ، إذن فلأتواضع . لا أحتاج إلى مأس
جديدة . يكفي أن أفتح عيني على جلال هذه الصحراء .

اختفت الآن التلال والهضاب وأصبحنا نتحرك وسط رمل ناعم بامتداد الأفق ،
لا يبين من وسطه شيء غير التماعات السراب الزرقاء ، ولكن تفاجئنا ونحن نعبّر
تلك المساحات المنبسطة من الرمل الأصفر بحيرات شاسعة من رمال بيضاء أو
كتبان مستديرة مثل قباب صغيرة أو نهود في صدر الصحراء ، وشعرت بأن حركة
الجمال تسرع فوق هذه الرمال الناعمة وأن الأرض تنحدر تحت أخفافها فتقدم
الجمال بخفة ونشاط كأنها تنزلق فوق الرمل ، هل تخفق قلوبها كما يخفق قلبي
مع اهتزاز الهبوط ؟ أدركت أننا دخلنا أخيراً في المنخفض الكبير المُفضي إلى
الواحة الذي كان قبل قرون وقرون جزءاً من البحر الأزرق الكبير . لم تصابفنا
منذ ثلاثة أيام أية خضرة في الطريق ، ولا حتى تلك الصبارات الصغيرة التي

تتحدى الجفاف وتسقى نفسها من قطرات الندى. لا أثر لأية حياة. قال الدليل عند آخر بئر مررتا بها أن نأخذ كفايتنا من المياه لأننا لن نصادف بئراً أخرى حتى نصل إلى الواحة .

وفى الصباح الموعود سمعت فى القافلة صياح تهليل وهتافاً مفاجئاً من البدو والتجار . أخيراً من بعيد ، بعيد جداً ، تتشق الزمال عن قمم نخيل فيلوحون جميعاً فى حماس وألوح معهم للحياة التى ولدت فجأة من الموات وتركض الجمال المنهكة مشاركة فى الصباح ومدركة أنها قد بلغت أخيراً نهاية السعي.

يستقبلنا حين نصل رجال قرية صغيرة على مشارف الواحة فى ساحة مكشوفة تحيطها الأسوار . أنتبه إلى أنه لا يسون ثياب البدو الفضفاضة ولا جلابيب الفلاحين السابغة ، لكن جلابيبهم بيضاء قصيرة كقمصان واسعة وأسفل منها سراويل طويلة ومعظمهم حفاة . طافوا بنا يقدمون فى سلال من الخوص التمر المسكر واللوز ثم سقونا بعد ذلك لبناً فى أوان من الفخار .

كان محمود يقف إلى جوارى ومن حوله جنوده . لاحظت أن الأماهى الذى يتبادلون الحديث والضحكات مع البدو والتجار تبرز من عيونهم نظرة عداة حين يقتربون منا ، يجتهدون لإخفائها بإسبال جفونهم وإسراع خطوهم لينتفوا منا بسرعة ثم يبتعدون وهم يهمهمون فى غضب . وقال لنا الشاويش إبراهيم محرجاً إنهم فى دمة وحيرة لأنهم يرون لأول مرة فى الواحة امرأة سافرة الوجه تلبس مثل الرجال . ابتسمت فى وجوههم ورفعت يدي بتحية لكتهم كانوا يتجمعون بعيداً عنى فى دوائر صغيرة وهم يختلسون النظر نحوى ويهمسون إلى بدو القافلة الذين ظلوا يتجنبوننى أيضاً طول الطريق . كانوا يسألونهم عنى فى أغلب الظن. لاحظت أن قليلاً من أهل الواحة يتكلمون العربية مع البدو ولكنهم فيما بينهم يتحدثون بصوت عال لغتهم التى لانفهمها . ظلوا يدمدمون وهم يهزون رؤوسهم وينقلون أنظارهم منى إلى محمود . وانتبه إلى ذلك فظل يلازمى ممسكاً بئراعى

طوال الوقت ويصحبته الجنود. أما أنا فلم أهتم.

أخذت أتحرّك من مكان إلى مكان فى الساحة المزدحمة يلازمى حرس لا
مهرب منه وأنا أستفهم من إبراهيم عما يدور بين التجار ورجال القرية الذين
تجمعوا حولهم . سألته لماذا يكتفى التجار بتقديم زجاجات العطور وعقود الخرز
ولا يبيعون شيئاً آخر من بضائعهم؟ ، فهمض لى بأنهم يرجئون عملهم الحقيقى
لحين وصولهم إلى سوق البلدة الكبيرة ومقابلة تجارها. لكنهم قد يبيعون هنا
أيضاً بعض الملابس الرجال والنساء ، فتلك عادتهم من قديم الزمان، لا يلبسون
إلا الثياب التى يصنعونها من أجلهم فى كرداسة وتحملها إليهم القوافل .

حل النساء وتقرر أن نقضى الليلة فى القرية لكى ترتاح الجمال المجهدة التى
ساقوها لترتوى من نبع قريب ، وأمر محمود بأن ينصبوا الخيمة إياها فى هذه
الساحة المحاطة بالأسوار .

سألت محمود : هل لاحظت أننا لم نر أى نساء من سكان هذه القرية ؟ حتى
الأطفال كانوا صبية فقط .

ابتسم محمود: ذهنى غير مشغول الآن بالنساء .

ثم اكتسى وجهه بالجد وهو يقول : يجب أن نفكر الآن فى العمل .
نادى إبراهيم وقال له: اسأل هل يوجد أى من الأجواد فى هذه القرية يمكن
أن أتكلّم معه.

فضحك إبراهيم وهو يقول : أى قرية يا سعادة المأمور ؟ لا توجد هنا أى قرية.
سألته متحيرة - هؤلاء الرجال الذين استقبلونا إذن، أين يسكنون ؟
- هؤلاء يا هانم ، فلاحين ، زجالة ، يعملون وينامون فى البساتين القريبة ،
التى تحيطها الأسوار . الأجواد والكبار الذين يملكون البساتين يسكنون فى البلدة
الكبيرة التى ستقصدنها فى الصباح وسنراهم هناك. لابد أنهم أرسلوا الآن أحد
الزجالة ليلفغهم عن وصول القافلة وعن وصول سعادة المأمور بالذات .

قال محمود : لم يخطيء الأميرالاي سعيد بك حين قال لى إنك تعرف الكثير عن أهل هذه الواحة .

- لا أحد يعرف عنهم الكثير يا سعادة المأمور . جئتها كما قلت لك فى حملة للجيش قبل عشرين سنة وبقيت فترة لم أر فيها غير الحرب والضرب ..

قال محمود وهو يبتسم : فلماذا تعود إليها إذن مرة أخرى ؟

- قلت لسعادتك أيضاً ، من أجل الصغار .

كان إبراهيم عجوزاً بالفعل ، وجهه يدل على أنه تجاوز الستين وإن كانت نحافته وخفة حركته توحيان بأنه أصغر سناً ، فما معنى «الصغار»؟

تدخلت فى الحديث وقلت : ولكن أولادك لابد أن يكونوا كباراً الآن يا إبراهيم . تفادى الرد عليّ مباشرة وقال بعد سكتة : هم أحفادى يا هانم .

شعرت أن هناك شيئاً فى الأمر فتوقفت عن الكلام لكن «محمود» هو الذى سأل ببساطة وأين أبائهم ؟

قرفع رأسه وقال بلهجته القروية: عجبت للزمن .. ثم سكت من جديد ..

سكت محمود أيضاً لكن إبراهيم أكمل ببساطة : كما ترى سعادتك هو يختار كما يشاء . ذهب أولادى فى عز الشباب . تمنيت لو أئى فديت واحداً منهم عندما

هجمت (فريرة) الكوايرا على بلدتنا ، لكنها حكمة المولى . تركوا لى قبيلة من الأحفاد تفادتهم الكوايرا أيضاً كما تفادتنى . ربما من أجلهم كتب الله لى هذا

العمر . ومن أجلهم ساعدنى الأميرالاي سعيد بك - الله يستره - على أن أعمل معك هنا لكى أدخر لهم قرشين . ثم حاول إبراهيم أن يبتسم وهو يقول : كما ترى ،

نجوت من الكوايرا ، ومن حرب الواحة ومن حرب الإنجليز التى يسمونها (الهوجة) ، وما أنا أمام سعادتك كالحصان .

قال محمود : رينا يعطيك طول العمر يا إبراهيم .

فردّ بضحكة صغيرة: " ثانى ١٩ " كل ما أطلبه من الله أن يعيدنى مرة أخرى

سالماً إلى بلدى . ثم غير الموضوع فجأة وهو يضحك : هل تعرفان ؟ طلب البدو من الزجالة أن يحيوا لنا الليلة حفلة طبل . ستريان ما لم تراه من قبل ! .. بعد إذن سعاتكم أنصب الخيمة .

وحين انصرف ، قال محمود بشيء من الدهشة: يقبل الحياة كما هي !

فقلت: وهل هناك حل آخر يا محمود ؟

- لا وقت عندى الآن حتى للتفكير فى هذا . الأجواد يستعدون لى ويجب على أنا أيضاً أن أستعد لهم . ثم انصرف عنى وهو يقول انتظر لحظة يا إبراهيم .
لا أحد يتعلم من أحد !

لكن ليلة الطبل كما أسماها إبراهيم علمتنى أنا شيئاً .

حضرت القافلة كلها الغناء الذى دار فى الساحة الرملية المكشوفة نفسها تحت سماء سوداء وقمر كبير يبدو الناس فى نوره كظلال متحركة . بدأ إنشاد الزجالة الجالسين فى دائرة على الأرض تحيط بهم مشاعل عالية قليلة وسط حماس وتهليل من البدو الذين أعتقد أنهم كانوا مثلى لا يفهمون أياً من كلمات الأغاني وإنما يأسرهم كما يأسرنى ذلك الإنشاد الذى بدأ بنعومة قريبة من همس أنثوى ممطوط الآمات وانتقل نون فاصل إلى خشونة صارخة على إيقاع طبل سريع كنوى.. الرصاص ومزامير بدائية تطلق هى أيضاً أنات وصرخات ، قبل أن ينهض المغنون وينضم إليهم بقية الرجال لتصفق عشرات الأيدي على الإيقاع السريع وتعلو الآمات المنغمة فتبدو آتية من كل مكان فى الفضاء ، وذلك أيضاً قبل أن يكون المنشدون دائرة يمسك فيها كل منهم بوسط زميله ويدورون فى حلقة تتدافع وتتطوح فيها الأجساد الراقصة على وقع الغناء الشبقي الذى يتصاعد إلى هدير صاخب . وشعرت قلبنى يدق بسرعة كائه سينفجر مع تلك الإيقاعات المدوية فاختلست نظرة حولى ، ووجدت «محمود» نفسه منجذباً إلى هذه النومة مثل البدو الصامتين فاغري الأفواه .

وفى تلك الليلة ، فى الخيمة ، ضاجعنى محمود أو ضاجعته أنا بحرارة ولهفة،
نشبع جسدين من مجاعة طالت ، حريصين مع ذلك ألا تصدر أى صوت ، لكن
الاصوات التى نكتمها تزيد من توتر الجسدين واندفاعنا مشهودين ليغوص كل
منا فى جلد الآخر ينشد الخلاص وانغوص معاً فى مهد الرمل الناعم .
بداية لا بأس بها فى الواحة ١



مع مطلع الشمس عادت القافلة تكمل طريقها إلى البلدة الكبيرة . كانت الجمال التي مجّت مياه الآبار المالحة في الصحراء قد ارتوت من مياه عذبة ، قيدت منتعشة وراضية وكنت أنا أيضاً منتعشة مفتحة العينين لكل جديد يصادفنا . مازالت هي الرمال في معظم الطريق وتلال أو جبال صغيرة بنية اللون بعيدة جهة اليمين ، لكننا نمر بين حين وآخر بآبار وبحيرات تتفرع منها قنوات تمتد إلى الأراضي المزروعة المحاطة بالأسوار والتي لا يبين من ورائها سوى سفوف النخيل العالي يحتضن سباطات بعضها مازال بلحها أخضر ، لكني أشم أيضاً رائحة التبن النفاذة وفواكه أخرى ، وأنتبه إلى تلك الأغاني التي لا تنقطع من وراء الأسوار .

أدرك أنها أناشيد العمل للزجالة التي سمعت عنها ، أغان لكل نوع من الزرع والحصاد ، كلما توقّف منشّد عن الغناء ، سمعت آخر يكمل الأغنية من الحديقة نفسها أو من وراء أسوار أخرى . وكان تواتر الغناء بامتداد الطريق يكمل سحر أمسية الليلة التي انقضت . لكني تذكرت أيضاً أنه هي تنافس عشيرتي الواحة على حق الانفراد بتلك الأغاني ، قامت بينهم من قبل معارك . فهل وصلوا إلى حل يجعل الأغاني مشاعة للجميع ؟

ومررنا في طريقنا ببحيرة واسعة تلمع وسط الرمل بزرقة السماء تترجرج فيها أمواج صغيرة ، لا بد أنها بحيرة مالحة.

ولا تستغرق القافلة في الطريق أكثر من ساعتين قبل أن نصل إلى قلب الواحة.

لم نصادف في الطريق شيئاً من المباني غير أسوار البساتين التي لا يرى ما بداخلها أحد ، ولغت نظري منذ دخلنا الواحة كثرة النخيل قرب عيون الماء ، بل ورأيت نخيلاً غائصاً في البحيرات لا تطفو سوى قممه ، ولكن الآن ، فجأة ، بعد أن ارتقينا ريوّة ، اخضرّ الأفق كله أمام عيني ، غابة لا يحدها البصر من سفوف

متشابك في الفضاء . بحر أخضر داكن كثيف و متموج تنهض فوقه البلدة مثل جزيرة بأسوارها الرمادية ومساكنها الصفراء المبنية فوق هضبة هرمية .

حاذاني محمود بجمله ووقف يتطلع مثلى إلى البلدة فى صمت ، فقلت له مأخوذة بما تراه عيني بون أن أحول بصرى: لم أر فى حياتى مثل هذا المنظر ، بركان ومادى يبرز من موج أخضر .

قال محمود: أو هرم مدرج لم يفكر أحد من الأسلاف أن يبنى مثله . هرم قاعدته مستديرة .

معه حق، فالبيوت الصفراء الرمادية المتلاصقة تتدرج متناقصة حتى أعلى التل فلا يبين من بعدها شيء غير زرقة السماء .

لم أرفع عيني عن البلدة عندما عادت القافلة تتحرك نحوها وفاجأتى محمود حين كرر : نعم ، هرم كبير يا كاثرين - وفيم كان أسلافنا يستخدمون الأهرام ؟



٥- الشيخ يحيى

أحب بكرة الصبح ، تصحرووحى كل يوم فى هذه الرحلة التى تسبق الشروق متوجهاً من بيتى فى أغورمى إلى مجلس الأجواد . لم تعد عيني الكليلة قادرة على تمييز الصور . كنت مولعاً من قبل بأن أتابع انسحاب الظلام وأنبلج صور الأشياء فى النور الأزرق الوانى كأنما هى النقلة إلى الخلق من العدم . يرتجف قلبى حين تدين مع الأشعة البازغة خضرة الأشجار فى البساتين وحين تلمع مرايا كثيرة فى ماء النبع وتطفو من الظلمة الجبال والقتل . الآن أرى ذلك بقلبي أكثر مما أراه بعيني . حتى هذه النظارة التى عاشت معى زمناً لم تعد تظهر غير ظلال وأشباح . يعذبني أن أثبت حول أذنى هذه الدويارة التى حلت محل ذراعها المكسورة ولكن أنفى مازال يعوضنى ، يشم رائحة الندى فى الرمل والزرع ويميز رائحة السعف ، يعرف أنواع البلح فى النخيل الذى نمر به فى الطريق ، يفرز رائحة الصبار الأخضر من الجاف ، ويشم رائحة الماء الصافى فى النبع ويفرق بينه وبين الماء المختلط بطين الأرض فى القنوات .

لكن أنفى يشم قبل كل شيء فى هذا الصبح رائحة الحرب . فليكدب الله ظننى .. ألم تشبع هذه الأرض بعد من الدم ؟

أسير فى الطريق وحمارى ورائى لا ينهق ولا يكاد يصدر صوتاً . مازال يقالب النعاس ويعديه الصمت المحيط بنا فى الطريق .

يعيدنى أنا ذلك الصمت إلى سنواتى البعيدة فى الصحراء عندما هجرت كل شيء ورائى مغاضباً قومى دون أن أعرف لنفسى هدفاً ولا مستقراً . كم شهراً بقيت فى الفلاة أو كم سنة ؟ كثيراً ما أجهدت ذهنى لأحصى تلك الشهور أو

السنين فلم أفر بشيء . كما لو كان كل ذلك الهيام فى الصحراء يوماً واحداً من عناء لا ينقطع بحثاً عن الطعام والماء ويحشاً عن المأوى ، هروباً من الشمس ومن الوحش ومن البرد . ما الذى تعلمته من ذلك اليوم الطويل بلا نهاية ؟ لا أدرى .

مازلت أصصر على أن أقطع المشوار إلى شالى مشياً لكنى مطمئن إلى أن حمارى يتبعنى لأركبه حين ترتعش ساقى وتكل قدمى . أصبحت عجوزاً يا يحيى ولكنك لم تفقد بعد غضبك . ما زالوا يحملون لهذا الغضب همّاً فى مجلس الأجواد مع أنك لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً . لم تكن كلمتك مسموعة من قبل ولا هى مسموعة اليوم ، فما جدوى الغضب ؟ سأتمالك اليوم نفسى .

تحيّرني الدعوة التى أرسلها الشيخ صابر بالأمس بأن يكون اجتماع الأجواد اليوم فى بيته بدلاً من مجلسنا اليومى فى السقيفة عند مدخل شالى . أنا لا أشك فى صابر لكنه كبير عشيرة الشرقيين . يعلم الله أنى لا أفرق بين غربى وشرقى ، وكلهم يعرفون حكايتى . كان من حقى أن أراس مجلس الأجواد لأنى أكبرهم سناً لكنى تنازلت راضياً وإن أغضب هذا قومى من الغربيين . فليهنأ صابر بالرئاسة لكنى آخذ حذرى منه .

لماذا يجمعنا فى بيته ، أهو مجلس حرب ؟ لا أرتاح له أبداً . لا يصل إلى مقصده صراحة ، بل يظل يلف ويدور . لا يقول لى يا يحيى أنا أعلم منك ، ولكنه يفخر دائماً بأنه تعلم فى جامع الزيتونة فى تونس ، ويكرر أنه كان هناك يفهمهم ويفهمونه لأنهم يتكلمون لغتنا . يريد أن يقول أنهم ليسوا كالمصريين الذين يجهلون لغتنا والذين تعلمت أنا عندهم عندما جاورت سنين قليلة من عمرى فى مسجد إبراهيم ومسجد أبى العباس فى الإسكندرية . ينظر لى وهو يتكلم كأنى أنا المسئول عن جهل المصريين بلغة سيوية ، فابتسم فى سرى . أود أن أقول له أنها من هذه الحكاية يا صابر ! صدّعت روعنا بحكاية تونس والزيتونة ! أنت عالم وأنا جاهل . هل ارتحت ؟ ولعلّى أكون قد قلت له هذا بالفعل . لا أنكر .

لكن أظن أنى ناقشته فى مسألة النبوءات. يحفظ كتاباً يضم نبوءات لا أعلم من أين أتى به يكررها كلما ضمنا مجلس . يتلو هذه النبوءات وكأنه يرتلها ترتيلاً: مكتوب أيتها الأرض أن يأتى عليك وقت تكونين فيه أرملة منكسة الرأس تحثو فوق رأسها التراب . مكتوب أنه سيمشى فى طرقاتك الغرياء فى زهو ويمشى أهلك مطرقين رؤسهم. مكتوب أنه سيعلو صوت السفهاء ويتكلم الحكيم فى كفه . يقلب بصره بين سامعيه بعد هذه النبوءات الكثيرة . ويقول كأنما فى تشفى : اقترت ساعة النبوة والحساب .. لم لا ، وأنتم تشربون الخمر جهاراً ، وتأتون الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتقتلون أنفسكم بأيديكم ؟ لم لا يحق عليكم العذاب ؟

حين أسمعه يقول ذلك أجزره وأنا أصرخ داعياً أن تسبق رحمة ربنا بنا غضبه علينا ، وأن يرحمنا قبل كل شيء من نعيق الغريان . ويصعوبة أرد نفسى عن أن أسأله أتلك هى كل المعاصى يا شيخ ؟ أليس تمنى الخراب هو أيضاً معصية من المعاصى ؟ وأنت ، ألا يملكك الكبر وتسكن نفسك الكراهية ؟ تكرهنا معشر الغريبين وتخفى كراهيتك وراء نبوءاتك المزعومة كأنك تتمنى لو تنزل مصائبها بنا نحن اليوم قبل الغد . ولماذا يا شيخ صابر تخفى ما بنفسك ولا تبديه ؟ احترس يا يحيى . ها أنت تفكر مثلهم . تنتظر بعين الغريبين مهما حاولت .

مع ذلك فأنا لا أنكر هذه النبوءات الكثيرة إلا وأبتسم حين أنكر (مليكة) . كانت صغيرة ، ربما فى الرابعة من عمرها ، بالكاد تعلمت الكلام لكنها تقلد الرجال والنساء فتضحك كل من يسمعها - إلا أمها تسبل عينيها أو تفتحهما على سعتيها ، تمط شفتيها أو تشفط خديها فتغير من ملامح وجهها الجميل وتحاول أيضاً أن تغير صوتها الطفولى ليطابق من تقلده . وكانت أختى خديجة تعتبر ما تفعله مليكة فضيحة ، وتضربها بيديها وقدميها لتكف عن الكلام فتجربى منها لتحتفى وراء ظهرى وهى تصيح إنجدنى يا خالى . أجزر أختى بالفعل لكنى

أحاول أيضاً إسكات مليكة بون فائدة ، بالذات حين تقلد صاير . كانت تدير
حدقتيها إلى طرفي عينيها وتكرر بصوت تحاول أن تجعله خشناً نبوءات الشيخ
الشنيعه التي لا تفهم معنى كلمة منها ، فأضع يدي على فمها لكي لا تكرر أمام
الأطفال والنساء ما لا يصح سماعه ، لكني لا أستطيع مع ذلك أن أمتنع الضحك
فتعاتبني خديجة لأني أشجّع ابنتها على قلة الحياء كما تقول . ومن كان يستطيع
أن يمنع مليكة ؟ لا الضرب يصلح معها ولا الملاينة . لا وهي طفلة ولا وهي كبيرة .
حظك يا مليكة !



عندما وصلت إلى مجلس الأجواد فى بيت الشيخ صابر ورأيتهم متحلقين هناك شممت مرة أخرى رائحة الحرب وانقبض قلبى . رأيت واحداً من زجالتنا الغربيين يجلس مقرصاً على الأرض بعيداً عن حلقة الشيوخ . لم يبلغنى أى من أجواد عشيرتنا أنه سيحضر ، فهل له علاقة بهذا المجلس السرى ؟ الزجالة هم أيضاً جند الأجواد فى ساحة القتال ولهم رأى فى الحرب والسلام . فليخيب الله ظنى .

لا أحد يتكلم . طال الصمت وهم يجلسون فى دائرة على الحشايا يتجنب كل منهم النظر فى عينى أخيه . يهريون من الكلام بالتقاط البلع من السلال الموضوعة أمامهم وإلتهامك فى مضغه دهرأ . ماذا ينتظرون ؟

أخيراً تنحنح الشيخ صابر وقال : دعانى المأمور لمقابلته ..

ارتفعت نحوه الأبصار فأكمل ببطء : وأبلغنى المأمور أنه بعث رسالة جديدة إلى القاهرة وينتظر الرد فى القافلة المقبلة .

عاد إلى السكوت ، فنقد صبرى وقلت : ويدها يا شيخ صابر ؟ ما الذى كتبه فى رسالته وما هو الرد الذى ينتظره ؟ لم لا تتكلم بسرعة وتخلصنا ؟

بعد لاي فهمنا من صابر أن المأمور أرسل يطلب مرة أخرى تخفيض الميرى وأن يكون خراج الواحة فى السنة حمولة ألف جمل من البلع بدلاً من ألفين ومائتى جمل من زيت الزيتون بدلاً من خمسمائة كما طلب الإعفاء من الغرامة .

علا اللفظ من أجواد الشرقيين والغربيين معاً . كنا قد اتفقنا على طلب تخفيض الميرى إلى حمولة خمسمائة للبلع ومائة للزيتون فلماذا لم يرسل المأمور ما اتفقنا عليه ؟

قال صابر إن المأمور أبلغه أن الأوامر التى جاء بها هى زيادة الخراج لا إنقاصه وإنهم لوافقوا فى القاهرة على طلبه فعلياً أن نحمد الله .

استمرت دمدمة الغضب من الأجواد وقال الشيخ عبد الماجد من أجواد الشرقيين : عن نفسى أن لن أسدد شيئاً وليفعلوا ما يشاؤون ،

ورد عليه شيخ آخر من الشرقيين لم أتبيته، قال بصوت خفيض بعد أن هدا
اللغظ : فى كل مرة نقول هذا ونمنع الخراج ثم نسدده فى النهاية وفوقه الغرامات
بعد أن تثنى الجيوش والمدافع .

حل الصمت من جديد فقال الشيخ صابر صمقت (ثم أكمل كالمفلوب على
أمره) ونسيت أن أقول لكم ان المأمور أخبرنى إنه لن يتعامل فى جمع الخراج
مع العائلات كما كان الحال ، بل سيحاسبنى أنا ويعتبرنى مسئولاً عن محاسبة
الأجواد عن أسرهم وجمع الخراج كله حسب ما يأمرهم به فى القاهرة .

آه ! لن يرضينا ذلك معشر الفريين يا شيخ صابر حتى ولو لم ينطق أحد .
ولكن هنا ارتفع صوت الزجال الجالس فى طرف الحجرة وقال بصوت حاد :
لعنة الله على هذا المأمور وعلى اليوم الذى حل فيه بأرضنا ، فلتخلص منه
ومن امرأته !

لكن الشيخ إدريس، من أجواد عشيرتى الفريين، ارتفع صوته فى غضب
قائلاً:

تحشم يا ولد يا مبروك. نحن دعوناك إلى مجلسنا لنسمع ما عندك ، لا لكى
تشير على شيوخك ، فلا تنس مكانك .

انكمش مبروك فى مجلسه، فسأله الشيخ صابر فى هدوء :
ولاي سبب تتخلص منه ومن امرأته ؟

رد مبروك مندفعاً: هذه المرأة دخلت بيوتنا وكشفت عورات نساتنا . فى الجمعة
الماضية صعدت إلى خرائب أغورمى وداست بيوت أهلنا هناك ... منذ متى يا
شيخ صابر نسمح للكفار بتدنيس بيوتنا ؟

تركتهم يتجادلون ورحت أفكر ، ما الجديد فى ذلك كله الذى يدعو الشيخ
صابر إلى نقل مجلس الأجواد من السقيفة إلى بيته ؟ ما من غريب يجرؤ على
التطفل على مجلسنا عند منزل البلدة ، ثم إنه لو جاء المأمور بنفسه وانضم إلينا

هناك لما فهم أى شيء مما يدور لأنه يجهل اللغة ولا جديد فى حديثه عن الخراج .
كل الناس استوعبوا الدرس الذى قاله الشيخ - سننتهى بأن نسد الخراج راضين
أو مكرمين . سيرفض الغربيون بالطبع أن تكون الالتزام بجمع حصتهم وأنت تعرف
ذلك مثلما أعرفه ، فلماذا قلته ؟ سيبين الآن ما ترمى إليه .

انتهيت إليه يقول :

ولكنى سمعت يا شيخ إدريس أن المرأة لم تقصد بيوتنا بل كانت تريد أن ترى
خرائب الملوك هناك ، فمرت فى طريقها على البيوت . هل اشتكت أى من نساتنا
أنها تلصصت على خفايا البيوت وكشفت عوراتها كما تقول ؟ أظن أنها لم تدخل
أى بيت .

قال الشيخ إدريس : إن لم تكن قد كشفت عوراتها فى هذه المرة فستكشفها
فى مرة أخرى يا شيخ صابر . هذه المرأة لا تهدأ ولا تستكين . علمت ، أنها
ستذهب اليوم مع رجلها إلى خرائب أم عبيدة .
رد صابر :

الحمد لله أنه ليست هناك بيوت فى أم عبيدة تكشف عوراتها ..

ولكن مرة أخرى ارتفع صوت مبروك الزجال:

يا شيخ صابر ، هذه المرأة جاءت ومعها كتب الكفار الأجانب التى تعلم السحر
لتكشف كنزنا المخبوء فى باطن الأرض ، وربما تفعل مثل من جاوا قبلها فتخرج
جثث المساكين وتستخدمها فى السحر .

ابتسمت لنفسى - مرة أخرى ذلك الكنز ؟ فتشتم عنه أنتم والأجداد وأجداد
الأجداد ، ومن أجله حفرتم فى كل الخرائب التى خلفها الملوك ونبشتم باطن
الأرض وحفرتم الجبل ولم تياسوا بعد ؟ هبكم وجدتموه الآن فى التوفماذا أنتم
فاعلون به ؟

لكن صابر أدهشنى حين قال بلهجة رزينة : أعلم يا مبروك اننا لسنا نحن

الذين نحرس الكنز وإنما هو الذى يحرسنا . كثرنا عليه رصد من قديم الزمان . منذ دقته ملكنا (خورايبش) عليه رحمة الله وبيئت عليه الرصد المكين . لو اقتريت منه المرأة فسيهلكها كما أهلك كل من قبلها . لن يعود الكنز إلا لنا كما قالت التنبؤات فى الموعد الذى لا يعلمه إلا الله ولكن بعد أن نتوب عن المعاصي . لا تشغل بالك بالكنز ولكن قل لى ، ما الذى جرى لنا يا مبروك عندما قتلنا المأمور الذى قبله ؟

ردّ مبروك فى عناد : جاعنا هذا المأمور الملعون ومعه زوجته التى تدنس بيوتنا وتفتش عن كثرنا .

قال الشيخ صابر : رأيت هذه المصيبة ؟ لم يفدنا إذن قتل المأمور الذى قبله . وماذا عن الذين ماتوا بسبب غزوة جنود الجيش الذين جاء بهم ماهر بك ؟ ماذا عن الذين أخذوهم معهم إلى مصر وشنقوهم هناك، غير أبنائنا الذين مازالوا هناك فى الحبوس؟

سكت الجميع ولكن صوت الشيخ إدريس ارتفع من جديد وهو يقول فى قهر:
يعنى يا شيخ صابر نسكت على هذا المأمور وامراته ونرضى بالعار ؟
مرة أخرى علت همهمة شيوخ الغربيين مؤيدة لإدريس ولكن صابر وجّه له سؤالاً كنت أنتظر سماعه منذ مدة :

هل رأيت أنت يا شيخ إدريس من المأمور محمود نفسه ما يستوجب أن نخلص منه ؟ أنا لم أسمع أنه منذ جاء إلى الواحة قد نهب شيئاً أو جلد أحداً على عادة من جاعنا قبله ، بل إنه يدفع حتى إيجار الحمير التى يركبها هو وامراته ويمشى فى الطرق وحده - لا يحيطه الحرس الذين اعتاد أسلافه أن يرهبوننا بهم. على العكس ، جنوده يحرسون البلد من لصوص البلو ويخرج هو على رأس الجند بجصانه فى الليل ليطاردهم فى الجبل .

بالرغم منى هتفت متحيراً : وهذا والله هو ما يخيفنى منه يا شيخ صابر !

لماذا يفعل ذلك كله ؟ هو لا يحبنا .

ضحك صابر ضحكته الخشنة وهو يقول : وأى مأمور جاء قبله كان يحبنا يا شيخ يحيى؟ كانوا يدفعوننا بالفعالهم إلى أن نقاتلهم ، أما هذا فبأى ذنب نستحل دمه وتجلب على أنفسنا الخراب من جديد ؟

قلت لنفسى فى هذا معك حق يا شيخ صابر، ومع ذلك فهذا المأمور يخيفنى أكثر من سواء . أنا لا أبالى كثيراً بمن يجلدون ويشتمون ويهيبون الناس بالجند فى مواكبهم، هؤلاء مثلهم مثل مبروك . رأيتهم وخبرتهم فى كل الصروب . هم يشعلون النار ويكفون أول من يجرى عندما يشب الحريق ، لكنى أخاف هذا المأمور الصامت الذى يمشى فى طرقاتنا وحده . أعلم أن من لا يخاف على حياته لا تهمة حياة غيره . تلفحنى كراهيته كالنار فى صمته وتكوى أكثر من بذاة غيره. ما الذى ينتظر بلدنا على يديه ؟ وماذا عندك عنه فى نبوءاتك يا شيخ صابر ؟ هل نطقت بالفعل بهذا السؤال أم أن صابر كان يريد على أحد غيرى ؟ سمعته يقول:

أنا لم أجد شيئاً عنه ولا عن امرأته فى النبوءات . قرأتها مرتين منذ حل بنا هو وزوجته فلم أجد لهما إشارة . أو لعل الإشارة موجودة لكنى لم أفهمها . ربما يكونان النذير بكل كوارث النبوءات . رجعتك يا رب .
تكلم الشيخ إدريس فقال بلهجة من تحير فى أمره :

إذن فهل سنسكت عن الرجل والمرأة يا شيخ صابر ؟ إن كنا لا نستطيع أن نعيش فى بلدنا نون أن يدوس الأغراب والكفار على رؤسنا وينسوا بيوتنا فخير لنا أن نترك الديار ونهج فى الصحراء مثل الببو .

قال صابر وفى صوته رنة حزن : بالله عليك لا تتعجل الخروج إلى الصحراء يا شيخ إدريس . لو جاعنا الإنجليز الذين يحكمون مصر الآن وأعجبهم بلدنا فقد يأخوننا لأنفسهم ويرموننا بالفعل فى الصحراء . فعلوا ذلك فى بلاد أخرى .

هزنت رأسى مؤمناً : معك حق يا شيخ صابر . فعلوا هذا فى بلاد الأمريكان
وغيرها من بلاد الله .

كنت واثقاً أن بقية الأجواد لا يعرفون الأمريكان ولا الإنجليز ولا يدركون شيئاً
مما يقوله صابر . وبالفعل قاطعنى أحدهم :

لكن من يأتون بلدنا جنود من المصريين لا من الإنجليز .

قلت : فلنحمد الله على ذلك . المصريون يأتون فيقتلون منا ونقتل منهم ولكنهم
يتركوننا فى أرضنا ..

فاستمر مخاطباً الشيخ صابر : ولماذا يأتى هؤلاء الإنجليز إلى بلدنا ؟ نحن لم
نحاربهم ولا نعرفهم ..

رد الشيخ صابر : لكن زوجة المأمور من الإنجليز . لو قتلناها فريماً يأتينا
جنودهم بدلاً من المصريين ليثأروا لها . يجدونها حجة كعادتهم ليأخذوا أرضنا
وساعتها لن ينفعنا أحد .

لزم الأجواد الصمت لحظة يتدبرون ما قيل ثم تدافعوا مرة واحدة للكلام
وتداخلت أسئلتهم ، لكن صابر تجاوزهم جميعاً موجهاً حديثه بحسم إلى مبروك
الذى ارتفع صوته محاولاً الكلام :

- يا مبروك ! إرجع إلى إخوانك وقل لهم ألا يمسوا هذه المرأة أو زوجها بسوء .
قل لهم إن شيوخكم الأجواد يفكرون ويتشاورون قبل أن يخطوا أى خطوة .

ثم التفت عنه وقال مخاطباً الجمع : وعلى ذكر الشورى يا أجواد . ما رأيكم
أن نبعث رسولاً إلى مولانا المهدي فى جفويب نحكى له ما يحدث ونطلب رأيه ؟

قلت لنفسى هل أكون قد أخطأت فى حقلك يا صابر ؟ أنت فعلت اليوم كل ما
تستطيع لتصرف الزجالة والأجواد عن فكرة القتل وعن الحرب ، خوفتهم من
عواقب لم يعرفوها من قبل حين حدثتهم عن الإنجليز ، وزجرت الزجالة الذين يمكن
أن يؤايبوا شيوخهم أو أن يؤايبهم الشيوخ على الفتنة . واشتريت رضا الغريبيين

الذين يثقون في المهدي السنوسي ويطيعون أمره واستطعت أن تهدىء من ثورة غضبهم لانتهاك امرأة المأمور لحرمة أغورمى . كسبت وقتاً إلى أن يأتى رد السنوسى من جقبوب، وإن يكون الرد كعائته إلا نصحاً بالتزام الهدوء فهل أخطأ ظنى حين تصورتك قد دعوت إلى مجلس جرب ؟ الحمد لله أنه أخطأ هذه المرة.

كان مبروك قد غادر الجمع فاقترصت الجلسة على الأجواد وبدأت ثرثرة أغلقت عنها أننى ولكنى سمعت اسمى فجأة على لسان صابر وهو يقول :

لماذا تسكت يا شيخ يحيى ؟ نحتاج رأيك، أليست هى ابنتك؟

قلت وقد باغتتني السؤال : عن تتكلم يا شيخ صابر ؟

- عن مليكة بالطبع . صحيح هى ابنتنا جميعاً شرقيين وغربيين، ولكن أنت خالها فمن يكون أقدر منك على أن يرد لها عقلها ؟

كنت أستجمع فكرى وأقاوم انفجار الغضب . إذن فلقد أدخلت مليكة يا صابر بسؤال عابر فى آتون الشرقيين والغربيين ؟ لم تعد مجرد زوجة غاضبة من زوجها وإنما مشكلة للبلد كله ؟

قلت بصوتى يكاد يختنق : مثلما قلت أنت هى ابنتكم جميعاً فانظروا ما ترون. كان الانقسام قد بدأ بالفعل وراح شيوخ الشرقيين يرفعون أصواتهم شيئاً فشيئاً وأجواد الغربيين يبادلونهم الصراخ . وأرغمت نفسى على السكوت حتى لا تزيد النار اشتعالاً . صممت أننى عنهم وهربت منهم إلى نفسى .

قلت إن هذا حظك يا مليكة ! هى ابنتى نعم ! أحبها أكثر من أى من بنات صلبى أو أى من حفيداتى ، لكن مليكة التى لم أعرف فى بلدتنا مثل جمالها وذكائها زوجتها أختى لمعبد العجوز الفانى الذى يصلح جداً لها . أسكت يا يحيى ! كم واحدة تزوجت أنت فى حياتك وكنت تصلح جداً لها ؟ ولكنى لم أكن معبداً منذ سنين طويلة توقفت عن الزواج وطلقت من كُنْ تحتى من النساء منذ عرفت أن امرئى معهن قد انتهى . لكن معبد اختار مليكة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة.

اختاروا المسكينة دون غيرها للتجربة . أمها مثل بقية قومي من الغربيين تؤمن بكل ما يقوله مولانا المهدي السنوسي . قال فليتزوج الشرقيون والغربيون ليصبحوا عشيرة واحدة فتتوقف بينهم الحروب . ومن كل البنات اختار معبد الهالك مليكة اليتيمة ووافقت أمها عليه . حاولت ما استطعت لكن أختي ركبت رأسها . أعرف أن زواج العجوز من الصغيرة في بلدنا لا يهم مادام الزوج غنياً وقادراً ، ولكنني أعرف مليكة أيضاً ، وما انتظرتة قد حدث . فرت مليكة من بيت زوجها في شالي ورجعت إلى أمها في أغورمي تطلب الطلاق . والآن أيضاً كل ما توقعت - معبد يرفض الطلاق ويطلب أن تعود مليكة إلى بيت زوجها . لم يحضر مجلس الأجواد لرضه ولكن كل أجواد الشرقيين يتوبون عنه وهم أشد منه غضباً . لاتهمهم مليكة ولكن ما معنى أن ترفض غريبة واحداً من مشايخ الشرقيين ؟ إما أن تعود وإما .. لكنني أعرف أن مليكة لن تعود ، وأعرف أن فكرة المهدي لوقف الحروب لن تفيد ، لن يتغير شيء لو تزوج كل الشرقيين من الغربيات أو العكس .. لن ينزع التزاوج تلك البذرة الكامنة في النفوس . وما هو زواج غريبة واحدة من شرقي ينذر بالشر ، ولأسباب أقل من هذا النزاع بكثير قامت بينكم الحروب . لو أني أعرف لهذا الحقد المميت سبباً ! لو أعرف ما الذي يستأصله ؟ لكن ها هم يتشاورون . يتظاهرون بأنهم يتشاورون .

يقول الأجواد من الغربيين : تردّ المهر ويسرحها .
فيرد الشرقيون لا .. ترجع إلى بيت زوجها أولاً ، إن شاء إن يطلقها برغبتها فهو حر ، لكن ترجع أولاً .

- يسرحها ونزوجه بدلاً منها أشرف بنات الغربيين .
يتدخل الشيخ صابر كانه يريد أن يحل النزاع ولكنه يصب الزيت على النار .
يقول بلهجة متعقّلة : أو يسرحها ونزوجه بدلاً منها أشرف بنات الشرقيين إن كان قد زهد في الغربيات أو زهدن فيه .

ترتفع مهممات الغضب من الغربيين والشرقيين معاً ويرتفع صوت واحد من الشرقيين محتداً :

زوجاته، غيرها، من أشرف بنات الشرقيين يا شيخ صابر . هو لا يريد زوجة جديدة بل يريد شرع الله . ألا يستطيعون أن يحكموا ابتهم ؟

يشعر أجواد الغربيين بالإهانة فينهض بعضهم ويلوحون بأيديهم مهلدين في اتجاه شيوخ الشرقيين وأنهض أنا أيضاً وأنفجر صارخاً مرة واحدة : الآن تذكرون شرع الله ؟ لا شيء عندهم ولا عندنا أسهل من الطلاق . في كل بيت من بيوت البلد مطلقة أو أكثر . هناك من طلقن حتى قبل أن يعرف الزوج بالطلاق لأن أمه كرهت البنت فأبرمت هي الطلاق . فلماذا تنتشبتون الآن بمليكة ؟

قال صابر: إهدأ يا شيخ يحيى . نحن نتشاور وسنجد حلاً . إن شاء الله !
لكني لم أكن أملك نفسي فأكملت وأنا أنهض بدوري :

لو تشاورتم حتى الفد ! لا أنتم ولا هم تريدون حلاً . أنتم تتلهفون على رفع البنادق من جديد لكي تحصلوا بعضكم بعضاً . كفاكم كذباً . كبرتم أيها الأجواد وشابت روسكم ، ألم يعلمكم الشيب شيئاً ؟

قال صابر وفي وصوته رنة غضب : لو قالها غيرك يا شيخ يحيى ! وانت ألم تعلمك الشيب شيئاً من الصبر ؟ من تكلم الآن عن رفع البنادق ؟ الأجواد يتشاورون . كما قلت ..

- أعرف تشاوركم يا شيخ صابر . أعرفه من خمسين عاماً وأكثر . حياكم الله ..

- وإلى أين تذهب الآن يا شيخ ؟ يا يحيى .. يا يحيى ابق معنا ...

- الحمد لله أني است معكم!

كنت أغمغم لنفسي وأنا أهبط الروية من باب الحصن ، إن فلن يكتب ظننى.

هو بالفعل مجلس حرب . ولكن لماذا يهانن صابر المصريين ويشجع الفتنة بين قومه ؟ ستجدي الأيام ! عقواً يا مولانا السنوسى ! فكرتك لا تصلح . لن توقف الحروب . فكرتى أنا وليسامحنى الله كانت أفضل . لو فعلوها قبل خمسين عاماً ! إستغفر الله يا يحيى ! لا تعد إلى تلك الذكرى .

شرعت أحل حمارى المربوط إلى جذع نخلة وأنا أنعمم ، فجرى نحوي واحد من الصبية الذين يلعبون فى الساحة الرملية يستندنى لأركب . دفعته عنى برفق وأنا أقول : مازال جدك قادراً على أن يركب حماره وحده . استندت إلى البرذعة بكتلى يدي ووثبت فوق الحمار فتحرك من تلقاء نفسه متجهاً إلى الشرق نحو أغورمى .. يعرف طريقه . ليتنى أستطيع أن أقول إن البشر يعرفون طريقهم . ليتنى أستطيع أن أقولها حتى عن نفسى !

مرة أخرى لم أستطع لك شيئاً يا مليكة . لم استطع خالك أن يحميك طفلة ولا امرأة . صغيرة جداً كانت وهى تشكولى من أن الأولاد والبناات يفسحون وهم يلعبون فى حديقتى وتجذبنى من يدى لأقضى بينها وبينهم . ينكر الأطفال أمامى أنهم غشوا فى اللعب ولكنها تستدرجهم وتكشف آكانيهم بكل سهولة . أسألهما فى النهاية ماذا تريدن يا مليكة ؟ فتقول بمنتهى الجد ، أريد أن تعاقب الفشاشين يا خالى . أظاھر بائى أزجرهم وأتركها لتلعب معهم ، لكنهم فى النهاية سئموا منها ومنى وأبعدوها عن ألعابهم . وعندما كبرت قليلاً صارت تأتى إلى الحديقة لتقضى معظم وقتها معى . تصاحبنى وسط الأحواض حين أرويهما أو أشذب زرعها وتسألنى لماذا تختلف النباتات التى أزرعها عما تراه فى الحدائق الأخرى من الخضراوات ؟ فأقول لها إن هذه النباتات أدوية وإن قليلين يزرعونها فى البلد . تسألنى مبتسمة وهى تقلّب عينيها بين النباتات وهل من بينها دواء لى ؟ .. دواء لماذا يا مليكة ؟ .. دواء يشفى من الشيطنة ! فأبتسم أنا - إلّا دواؤك يا مليكة ! .. لكن أمى تقول إن شيطاناً يركبنى ، ومعها حق - لماذا أنا غير البنات ؟

لم أقل لها إنها النعمة الوحيدة في هذا البلد .

أوريمما هي غلظتها الوحيدة ؟ لا أدرى ..

فكر في أى شيء آخر يا يحيى . لا تحير نفسك أكثر من حيرتها . الطريق طويل لم أقطع نصف المسافة بعد وقد بدأ العرق يغمرنى . شمس هذا الصباح الباكر حامية أكثر من وقدة الظهيرة . نزلت من الحمار عند منبع الجوبة وتوجهت إليه . ظل الأشجار التى تحف به نعمة . خلعت نظارتى ونزلت بحرص الدرجات الحجرية إلى النبع ثم انحنيت على الماء أغترف منه بيدي وأغتسل . من زمن بعيد لم أعد أرى وجهى فى هذا النبع الصافى كمرآة . لم أعد أرى سوى ظل على سطح الماء وأنا أنحنى فوقه . ماذا تريد يا يحيى ؟ أصبحت عجوزاً جداً . ضعفت بصرك وضعفت جسمك . لماذا إذن لم يضعف غضبي ولا حيرتى ؟ لماذا ما زلت حتى الآن أسأل الأسئلة التى عنبتنى فى شبابى ؟ اقتريت النهاية ولم أعرف طمأنينة القلب .

جلست تحت ظل نخلة إلى جوار العين ومليكة لا تفارقتى . لماذا وضعوها وسط الرعى التى تطحن بالحب والخصام والنزاع ؟ ولماذا الحرب ؟ ولماذا كل الشقاء والتعب فى الأرض ؟ يمكننى أن أفهم حتى نبوءات صابر التى تصب الهلاك على الناس جزاء لما يرتكبونه من المعاصى ، ولكن ماذا عمن لا يرتكبونها ؟ أى ذنب مثلاً جنته هذه الطفلة ؟

عنبت أمك يا مليكة وعنبتك . عنبتها أولاً بجمالك الذى كسف كل جميلات الواحة ، البنات اللاتى كانت أمهاتهن يملأن لهن الأحجبة ويبخرنهن لإبعاد الحسد . ظلت خديجة فى طفولتك تطلع وجهك بالهياج وتلبسك أقدر الثياب لكثك ظلت مع ذلك أجمل البنات . يتوقف الكبار فى الطريق ليتطلعوا إلى ملامحك الفاتنة وهم يقولون ما شاء الله ! فتزيد أمك هلعاً عليك وتحاول أن تسجنك فى البيت لا تخرجين منه ، لكثك ما إن كبرت قليلاً حتى تعلمت الهرب من البيت .

تلبسين جلابيب الصبيان وتخفين شعرك الناعم تحت طاقيّة ثم تجولين في البلدة على راحتك . ولم يفهم أحد لماذا استهوتك خرائب الملوك التي ظل أهل البلد جيلاً بعد جيل يبحثون فيها عن الكنوز . هل كنت مثلهم تبحثين عن كنز؟ لكنك ترجعين من الخرائب وفي يدك جعران من حجر أو شقفة من فخار عليها رسوم ملوّنة ما إن تراها أمك وتراك حتى تبدأ في الصراخ والعويل ، تحطم هذه الأشياء بسرعة وتلقى بها في النار ثم تستدعي الشيوخات الساحرات ليخرجن الشيطان من جسدك ضريباً بالعصى وهلوسة بالتعاويذ . كأن هاتفاً يقول لي إن أمك فعلتها من جديد ، فأسرع أنا إلى البيت وأنهال عليهن ضريباً بعصاي صارخاً إنهن الشياطين ولا أحد غيرهن فيهرين موالوات وأمك تلطم خديها في ياس . أجد جسدك مزرقاً ومتورماً من الضرب لكنك تضحكين مع ذلك وأنت تتحسسين مواضع الضرب وتقولين وسط تلهفات أمك: هذا ذنبك يا خالي ! لم تجد الدواء الذي ينجيّني من العقاب .

نعم ، تتكلم كالكبار وتصنع ما لا يصنعه الكبار . تأتي إلى حديقتي فتفترف طيناً ليناً من الأرض تشكّله على هيئة جعارين وطيور تشبه الطيور المرسومة على جدران الخرائب ، ثم تعلمت أن تأتي بصلصال تصنع منه تماثيل صغيرة لا أكاد أفرق بينها وبين تلك التماثيل الحجرية الدقيقة المنتشرة في الخرائب . كنت أراقب في دهمشة أناملها الصغيرة وهي منهمكة في تكوير الروس وفرد الأذرع والسيقان من كرات الصلصال وأنا أسأل نفسي من أين لها العلم بهذه الصنعة ؟ لم يحاول أحد في البلد قبلها أو بعدها أن يفعل ما فعلت ، وتدرك حتى وهي طفلة من تجاربيها مع أمها أن أهل البلد لا يحبون أيضاً هذه الأشياء فتعطيلها لي وهي تقول كسرهما أنت يا خالي . سأصنع لك غيرها غداً . ثم تمسكني من يدي وتقول تعال ، علمتي الزرع .

لكن قلبي لا يطاوعني على أن أحطم تماثيلها الصغيرة الجميلة . أعرف أنني لا

أستطيع الاحتفاظ بها عندي حتى لا يراها كبار أو صغار، فيقولون يحيى أيضاً يلعب مع الشياطين . أبقيتها لحظة أتأملها وتدهشني دقة صنعها ثم أحفر الأرض متحسراً بعد أن تنصرف عني مليكة فأنفن هذه التماثيل وأسوى فوقها التراب والطين بدل أن أحطمها أمام عينيها .

ثم لازمتني في الحديقة . تآتت من تلقاء نفسها أو تآتت بها أمها لتبقى معي، بدلاً من أن تهرب منها ومنى متكررة إلى حدائق الأغراب أو إلى خرائب الملوك في جبل الموتى الذي يفضي حتى الكبار من التجول وسط كهوفه، وكانت فرحتي الوحيدة في هذا البلد المليء بالكآبة والأحزان . تحاورني وتتعلم مني زرع النباتات وتساعدني في غرسها وفي تقليمها . لا أحتاج أن أكرر عليها شيئاً علمته لها من قبل، تعلقت بها أكثر مما تعلقت هي بي ولم أعد أحتمل أن تغيب عني يوماً . لكن كل هذا الذكاء دفنته أمها مع معبد وانتظروا أن ترضى مليكة بهذا المصير ، ولم أستطع أنا إنقاذك من أمك ولا من معبد ولا من صابر ولا من الشرقيين ولا من الغربيين . أرى الآن ما سيدبرونه لك بعد كل الضجيج والتهديد والكذب . حتى لو نشبت الحرب وأياً كان المنتصر فسيرغموك بعدها على الرجوع إلى الرجل الذي تكرهين .

أعرف تشاورهم وأمقتهم . أعرف حروبهم كيف تبدأ وكيف تنتهي . وفي شبابي كاد ذلك يدفعني إلى الجنون . فلماذا عدت إليهم ؟ صرت عجوزاً وأرهقني التجوال والوحدة، ولكن ليس بقدر ما يرهقني الآن القرب منهم والعيش معهم . قمت من مكاني متثاقلاً . يجب أن أكمل طريقي . لكن قبل أن أتحرك من مكاني سمعت بوق المنادى آتياً من ناحية شالي يعلن نغمة النعي تترى من الذي فاضت روحه اليوم فرحمه ربي ؟



٦ - محمود

صحوت من النوم قبل الفجر كالعادة، يغمرنى العرق ويقايا حلم جميل تلاشت تفاصيله سوى وجه أيقظنى مبتسماً.
اغسلت بسرعة وتركت كاثرين تكمل نومها ثم فتحت باب البيت برفق وجلست على أول درجة سلم. فى العادة تكون هناك نسمة هواء شمالية لكنها غائبة اليوم.
مع ذلك فالجو أهدى من داخل البيت.

إلى يسارى (شالى) كتلة مظلمة، هادئة وثائمة، وأمامى مباشرة التل الداكن الذى يعطونه اسماً لطيفاً - جبل الموتى ألم يجدوا له اسماً أرحم؟ مفهوم أنهم يسمونه هكذا لأن كهوفه كلها مقابر قديمة للفراعنة وغيرهم . إذن فماذا كنت تريدكم أن يسموه؟ جبل البهجة والأفراح؟ هو اسم على مسمى فكفى تذكراً منذ مطلع النهار حاول أنت أن تبتهج وتفرح، صحيح أننى تلقيت فى المساء أول تهديد حقيقى منذ وصلت إلى الواحة، لكنه كان متوقعا ولا يضيف إلى علمى جديداً.

لم يحدث حتى الآن فى الواقع ما أشكوه منهم هنا، ولكن عندي كل الأسباب لأشكو من القاهرة. لا يبالون فى المحروسة بما أكتبه لهم، أبعت الرسائل فتصلنى مع القوافل نسخة جديدة من أول خطاب جاعى. نص التكليف نفسه الذى حدثنى عنه هارفى قبل السفر دون شرح أو تعليق، بل دون إشارة حتى إلى أنهم قد استلموا رسالتى. كل ما يصلنى هو استعجال جمع الضرائب المتأخرة وإرسالها للمحروسة. لا يسألون أنفسهم أو يدلوننى - كيف؟ فى كل مرة تأخرت الضرائب احتاج الأمر إلى جيش ومدافع، فما الذى أستطيعه أنا بحفنة الجنود الذين معى وينادقنا القديمة؟ آخر مرة من سنتين انتظروا حتى قتلوا المأمور الذى كان قبلى

ثم أرسلوا جيشاً قتل العدة وجمع الضرائب واعتقدوا أن الأمن قد استتب.
لم يستتب يا باشوات المحروسة!

فى المساء جاعى كبيرهم الشيخ صابر، هو الوحيد الذى يأتى من الأجواد. لا أقابل الباقين إلا فى صلاة الجمعة فى مسجد شالى. قال إن الأجواد مازالوا يعتبرون التخفيض الذى طلبته قليلاً ويريدون المزيد. نهته بحزم، بل انفجرت فى الواقع وأنا أفكر فى صمت القاهرة: أنا لم أعد بشئ. قلت لك ما طلبته لكن الحكومة فى مصر هى التى تقرر. قال أفهمك ياسعادة المأمور، لكن بعض الأجواد يسألون عما يبقى لنعيش منه لو دفعنا كل ما تطلبه الحكومة.

رددت بجفاء ليست مع ذلك أول مرة تدفعون فيها الضرائب. دبوا أنفسهم.
لم يغضب صابر، لم أره غاضباً أبداً بل قال وكأنه يؤيد كلامى: العقلاء يعرفون ذلك. لكن ما العمل وهناك فى بعض العائلات، بل وحتى بين الأجواد، من ليسوا عقلاء؟ لا أحد يعرف ما يمكن أن يفعلوه ونسال الله الاستر.

فهمت رسالته جيداً ورددت عليه بمثلاً: فى هذه الحالة يا شيخ صابر ينبغيهم العقلاء إلى ما كان يحدث عندما تطيش العقول.

قال أنا لست عمدة البلد، ولا أملك أن أفرض عليهم شيئاً.

فقلت عند الحكومة أنت كبير الأجواد، وهذا يكفى.

أردت أن أقول له أن يحمد الله لأنه ليس العدة! هو نفسه الذى حكى لى قصة آخر عمدة، صاحب البيت الذى أسكنه أنا الآن. بناء العدة حسونة خارج سور شالى فوق ربوة، واهتم بتحصينه ككل الأشياء الأخرى المحصنة فى هذا البلد، ثم بنى خلفه مجموعة من الملاحق امتدت حتى السور. واستطاع بفضل الموقع المرتفع واتصال قلعة الصغيرة بالبلد أن يقاوم حملة الجيش الانتقامية الأخيرة بعد قتل المأمور. لم يسلم رغم الحصار الذى طال أسابيع وحارب ببسالة حتى مصرعه كما سمعت فاحترمته لشجاعته.

كل ما بقى من قلعتة هو هذا البيت المرتفع الذى صادرتة الحكومة ومعبنى آخر جنوبى السور جعلتة مركزا للشرطة ثم هدمت ما بينهما. لكن صابر روى لى حكاية العمدة حسونة بون نرة من العطف عليه أو على مصيره. ترى هل لأنه كان من الغربيين وصابر من الشرقيين؟ أحتاج وقتاً لأفهم الناس هنا، إذا ما سمحت الأقدار بالوقت. لا يخدعنى الهدوء الذى يحيط بى وأفهم حتى دون تلميحات صابر المبطنة بالتهديدات أنهم يتربصون بى، لكنى أواصل العمل كلنى لا ألاحظ شيئاً. لا يجب أن يشعر صابر أو غيره بأى ضعف فى تصرفاتى هنا.

ثم إنى لا أحب هذا الشيخ صابر! يتملقنى بشكل مكشوف من أول لقاء معه، ووجهه الجامد يشبه قناعاً لا يكشف أى تعبير. فى عينيهِ بالذات شئٌ مقلق. يحدق فى وجهى بنظرة ثابتة لا تتغير فلا أصدق أى شئٍ يقوله. ما الذى يريد منى بالضبط؟ أن أُرشمه ليكون عمدة؟ القاهرة صرفت النظر عن تعيين عمد من الشرقيين أو الغربيين حتى لا تغضب أحداً. كان يجب أن يفهم هذا بنفسه. مع ذلك فهناك شئٌ حقيقى فى كلامه. كيف يعيش هؤلاء الناس بالفعل لو جمعت الحكومة كل ما تريده منهم؟

منذ اللحظة الأولى لدخولى الواحة أذهلنى الفقر، لا سيما فقر الزجالة، وأذهلتنى جسامة الضرائب التى تطالبنى الحكومة بجمعها منهم. كتبت إلى النظارة رأى: إن المبالغة فى الضرائب هى السبب فى تمردهم واغتيالهم للحكام الذين تعينهم القاهرة. اقترحت تخفيض الضرائب إلى النصف.

لكن ربما أكون ساذجاً. لماذا أحاول أن أساعدهم وأنا أعرف أنهم يتمنون الخلاص منى؟ شعرت بكرهيتهم المميتة لى وكأثرين منذ أول يوم. حاصرونا بالصمت والمقاطعة. لا علاقة بيننا من أى نوع غير نظرات الكراهية فى عيونهم. فكيف إذن أقول إنه ليس لدى ما أشكوه منهم؟ عندى ألف سبب للشكوى! هم بلوى والقاهرة بلوى وأنا فى الوسط. لكن إذا كانت القاهرة قد نسيتنى فسأنتساها

أنا أيضاً، هذا يؤجل لحظة الصدام هنا. سأتعامل معهم كما اعتدت منذ وصولي. أسير دائماً نون حرس من الجنود ولكن جراب مسدسى مفتوح باستمرار. أعرف أنه احتياط لا جدوى منه، لكن أى احتياط آخر يمكن أن يفيدنى وأنا وحيد وسطهم؟

فى الصحراء، فى العاصفة، بدا الأمر سهلاً. كلما كان أسرع كان أفضل كما قلت لكثيرين. ما زلت حتى الآن أتمنى النهاية سريعة ومباغتة حين تأتى. ومع ذلك فأتأفح فى الليل حين أنام فى فراشى. يتسلل خاطر يبهجنى. انتهى اليوم ولم تأت النهاية! أكاد أشعر بنشوة النصر على المجهول الذى غنى البدو فرحاً بالهروب منه وهم يستحمون فى نبع الصحراء. إذن فما الذى أريده؟ ليتنى أعرف ما أريداً ليتنى أعرف من أكون!

مثلاً لماذا أنا منشراح الصدر هذا الصباح، فى هذا الحر، وبعد التهديد الذى أعرف أنه حقيقى؟ هل كل ذلك ببركة حلم؟ نعم، لا يمكن أن يكون بفضل كأسى الويسكى اللتين شربتهما فى المساء. كنت أعول على ألويسكى لاحتمال الوحدة فى هذه الواحة وأحضرت معى من القاهرة ذخيرة كافية من الصناديق. لكنى الآن أشرب أقل فأقل. لماذا؟ ربما هو الحر الشديد الذى يصننى عن الشراب، وربما هو غياب النديم. لا شراب بلا نديم وأنا لا صاحب لى فى هذا البلد أنادمه وزوجتى لا تشرب.

لكن ككثيرين نفعتنى مع ذلك ونفعتها فى أيامنا وأساييعنا الأولى فى هذا البلد. لم يكن لكل منا سوى الآخر وسط جو العداء والعزلة الذى فاجأنا به البلدة. بعد ساعات العمل نبقى وحيدين معاً وأمامى كأسى. نثرثر فى أى موضوع لكن شيئاً يبدأ، كالعادة، فى ذهنى. أنظر إليها متأملاً جسدها الذى أعرف كل مواطن جماله، أسترجع تفاصيله وأتخيل ملمس بشرتها وعناق جسدينا فيتضرج وجهها وتبتسم وأنا أحقد فيها بتلك النظرة الطويلة التى تفهمها جيداً. واستفدنا بالفعل

خلال أسابيع كل طاقة العشق قبل أن يستبد بى السأم، لكن كاثرين استمرت تبحث فى قلق لا ينتهى عما يمكن أن يطيل ليالى عرسنا الصحراوى، فى ليالٍ تقترب منى وأنا أشرب كأسى فى هدوء وملل لا يخفى عليها، تندس فى حضنى وتفمرنى بالقبيلات فى وجهى وفى رقيتى بعصية وسرعة إلى أن تستثيرنى بالفعل وتخرجنى من همودى. وفى ليالٍ أخرى تتوسل إلى أن أكون ناعماً ورقيقاً، تتحسس صدرى ببطء شديد بأصابع عمياء وتريد أن تقود هى المعاشرة فأرفض وأمارس العشق على هوائى، كما تعودت، فأخضعها تماماً فى الفراش، وأظن رغم تدميرها أن ذلك يرضيها ويمتعها مثلاً أرضاها منذ بدء علاقتنا. لكن التعود والإسراف استنزفا كل محاولاتها ومحاولاتى لابتكار متع جديدة فاستقر الأمر على لقاءات غير مدبرة فى بعض الليالى، لا فى كل ليلة كما كان الحال.

هل هذا هو سأم الزواج الذى لم يكن أصحابى فى القاهرة يكفون عن الحديث عنه والذي كنت أهرب أنا منه إلى النساء الأخريات؟ وهل عجبت واحة الصمت بهذا السأم؟ ربما.

انتشر أول ضوء للفجر، فبدت معالم شالى.

فقدت البلدة جلالها بالاقتراب منها، لم يعد لها شكل بركان ولا هرم، بل مجرد بيوت طينية مصفرة اللون متراكبة فوق بعضها مثل كومة من تراب، تتقيها حفر من ثلاث نواقد فى كل طابق، لكن إلى يعينى تمتد حتى بلدة أغورمى وبعدها شرقاً غابة النخيل التى يمتع مرأها العين بعد النظر إلى هذا القمع الترابى المقلوب وإلى جبل الموتى الكئيب. إذن فلأنظر فقط إلى الشرق.

غير أن أول أشعة للشمس تكوي جبهتى بالفعل وأسمع صوت كاثرين تتحرك فى البيت فأنهض من مكانى.

قابلتنى بابتسامة، تكون دائماً أكثر جمالاً فى الصباح بعد نوم عميق وطويل. ليس من بين مشاكلها الأرق.

كانت تضع أطباق الإفطار على المائدة فى الصالة الواسعة.

وقالت ونحن نجلس إلى المائدة:

قد يقال إن أحدهم منتعش فى هذا الصباح.

- هو يوم العطلة. على الأقل لن أختنق فى هذا الحر فى زى الضباط.

- لكن زوجتك الشريرة تقسد يوم عطلتك باصطحابك إلى الآثار المرعبة.

قلت مبتسماً: بالضبط! لولا أنه لا يوجد شئ أفضل نفعله فى العطلة أو فى

غيرها.

فضحكت: بالضبط! اسنا مرهقين بالزيارات والواجبات الاجتماعية.

لكن بينما نفطر سألناها بشكل عابر: عن أى شئ تفتشين فى هذه الآثار يا

كاثرين؟ تصحبين معك كتباً فيها صور المعابد، وأراك تقرئين فيها فى البيت

باهتمام، فما الذى تبحثين عنه بالضبط؟

- أبحث عن أعظم رجل فى العالم. عن الإسكندر.

- عرفت هذا من زمن. تريدین رؤية المعابد التى زارها هنا، لكن يبدو أنك

تبحثين عن شئ آخر.

وضعت فنجان الشاي الذى كانت تشرب منه وقطبت جبينها قليلاً ثم قالت:

سأعترف لك بسر. أنا لا أعرف ما الذى أبحث عنه.

تابعتها بنظرة مستفهمة، فأكملت: جئت إلى الواحة مليئة بالأحلام باتى

سأكتشف شيئاً جديداً وسط هذه الآثار، شيئاً لم يسجله المؤرخون القدامى ولا

الرحالة الذين زاروا الواحة. عندى القدرة على ذلك لأنى أعرف لغات لم يكن لهم

علم بها، لكنى لا أجد الكثير. زرت بصحبة إبراهيم المقابر الموجودة فى جبل

الموتى، كلها مع الأسف منهوبة، المومياوات والتوابيت وكل آثار أخرى يمكن أن

تفيد فى أى بحث...

ثم تنهدت وقالت: وأنت تعرف ماحدث فى الجمعة الماضية عندما زرت، أو

حاولت أن أنور المعبد الكبير، معبد الوحي.

- أتمنى أن يكون الحظ اليوم أفضل، لكن هل تعرفين ماذا يظن أهل الواحة؟
ربت بلا مبالاة: أننى أفتش عن الكنز الذى نقبوا عنه وسط كل المعابد وحفروا
حولها وتحتها حتى خربوها؟

- نعم، حللنى إبراهيم ونصحنى بأن أحذرک .
- كل زيارتى تتم بالنهار وتحت أعينهم، فليتفضلوا ويأخذوا الكنز حين أجده.
ثم سكتت لحظة ونظرت فى عيني مباشرة وهى تقول: لكن أنت لا تصدق
بالطبع هذا الهراء؟

- بصراحة أنا أتمنى أن تجدى كنزاً وأن نلزم به إلى مكان مجهول!
ضحكت: إذن فسيطول انتظارك! ولكنى سعيدة لأن مزاجك رائع هذا الصباح.
ما السبب ياترى؟ لو كنا فى مكان آخر لقلت إنك وقعت فى غرام جديد. أما هنا
فمن سوء حظك لا توجد أى نساء لا يراهن أحد أبداً.
- كما لو كنا نرى الرجال!

ثم قلت وأنا أنهض: هيا يجب أن نخرج مبكراً قبل أن تشتد حرارة الشمس.
تعرفين أننا يجب أن نرجع قبل الظهر.



قلت لنفسى حين انصرفت لتغيير ثيابها لكنت لم تخطئى يا كاثرين، امرأة بالفعل هى السبب! امرأة لم تفارقنى عمرى كله. زارتنى نعمة هذا المساء أو هذا الصباح وغمرتنى بالفرح. لا أنكر من الحلم سوى وجهها الجميل الذى ربنى إلى زمن البراءة وأيام الأعياد.

«نعمة السمراء» التى اكتسبت اسمها من لون بشرتها الناعمة الخمرى الرائق كلون النيل أيام الفيضان. لم يعرفوا وصفاً أصبح لهذا اللون الفريد ولا أظن أن أحداً كان يعرف اسم أبيها أو أمها، ربما ولا حتى هى. اشتراها أبى من «سوق الجلابين» طفلة صغيرة لتساعد أمى فى عمل البيت ثم وهبها لى عندما كبرت. تربينا معاً ولعبنا معاً ونحن صغيران وكانت صاحبتى وأقرب إليّ من أختى سليمان. لعلى كنت ألسها أو أقبلها أثناء اللعب على الأطفال، لكن ما كان يفتتنى فيها فى هذه السن الحكايات التى كنت أسمعها منها. من أين تعلمتها؟ من أمها التى ماتت عنها طفلة؟ من الجوارى الأخريات فى البيت أو خارجه؟ لا أدرى. لكن حكاياتها كانت مليئة بالملوك الطيبين والملوك الأشرار، وتغيير فى الحكاية الواحدة كل مرة فأسمعها كما لو كانت جديدة دائماً وهى ترويها كاشياء حدثت للتو. يتهدج صوتها وهى تحكى كيف سحر الشرير ملكاً طيباً واغتصب عرشه بعد أن حوله قرداً وكيف يرى الملك المسحور ابنته السجينة فى القصر ويريدها أن تتعرف عليه بالصرخات والإشارات الخرساء فلا يفلح، وتغرورق عينا نعمة بالدموع وهم يسوقون الأميرة السجينة لتزويجها من الملك الشرير، ثم يتهلل وجهها بالفرح حين يأتى الأمير الجميل، دائماً ما يأتى ذلك الأمير الجميل، فيخلصها من الأسر ومن الزواج البقيض ثم يفك السحر عن الملك الطيب الذى يكافئه بالزواج من الأميرة. سمعت وأنا صغير حكايات من أمى ومن الجوارى والخاديمات الأخريات فى البيت. لكن حكايات نعمة وحدها هى التى عاشت معى ووجهها وهى تحكى وصحبة طفولتنا وأسرارنا المتبادلة.

كبرنا معاً، وبقيت نعمة في البيت حتى بعد إفلاس أبي.
سرّح هو معظم الخدم والجواري، وفرّ الياقون ولم يبق بعد موته سواها
والخادم العجوز التي لازمت أمي عمرها كله.
كنت أول رجالها ولم تكن هي أول نسائي، لكن ما يرجع إلى ذهني دائماً ليس
هو بدء علاقتنا وإنما ذكرى تلك السنة المحمومة التي سبقت ندبي إلى الإسكندرية.
ذكرى الضابط الشاب، الممتلئ حماساً في بلد يفمره طوفان من الحماس، كنت
أعمل طول النهار ومعظم الليل مع زميلي طلعت ورئيسنا سعيد، نحرس
الاجتماعات السياسية وحفلات الخطابة التي لا تنتهي ونصبح نون أن ندرى جزءاً
من الجمهور الذي يفترض أننا نراقبه - تجرّفنا النشوة مع خطب عبدالله النديم
وهو يهاجم الخديو والإنجليز والفرنسيين وترن في أذني حتى الآن مقاطع من
خطبه المسجوعة. كنت أرجع إلى البيت متعباً ومكثوفاً تماماً في آخر الليل لكتني
أجد نعمة في انتظاري. أعدت العشاء وكئوس الخمر والماء المثلج، تسقيني كأساً
وتصر على أن أكل مهما احتججت أنني شبعان وكل ما أريده هو أن أنام. تطعمني
بيدها وأنا أحكي لها ما حدث لي في يومي وليلتي وتشاركني الحماس أو الغضب
لكنها تقترب مني فأشم رائحة عطر ياسمين بلدي نفاذ كأنه ينبع من مسام جلدتها
نفسه. جلبابها القطنى الرخيص الذى تلبسه على اللحم تكشف فتحة صدره
بشرتها الخمرية اللساء التي لم أعرف مثل ملمسها، فيطير من عيني كل نعاس
وأتعجل الانتهاء من الوجبة ثم أقودها كائى أخطفها خطأً إلى غرفتي ويستمر
العرس إلى أن يقترب الفجر، إلى أن أضبع رأسى أخيراً فوق فخذي لتحكى كما
اعتادت منذ الصغر إلى أن يحل النوم، لا أكاد أنام ساعتين قبل أن أصحو لأعود
من جديد إلى العمل والاجتماعات والخطب. كنت شاباً أحتمل ذلك وأريده أيضاً.
لم أعرف في حياتي تلك المتعة مع أى من الجواري أو الحرائر. معظمهن كن
جشعات يريدن أن يأخذن فحصب أو يمثّلن ألواراً لإرضائى. أما نعمة فكانت

تستمتع بالفعل بالحب وتريدنى أن أستمتع معها ليكون العشق كاملاً.
كانت صاحبتى وكانت تردنى بحكاياتها طِفلاً وتستردنى بالعشق رجلاً.
أحببتها كما لم أحب سواها لكنى لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، إن كان الحب هو تلك الحمى وذلك الجنون الذى أصابنى بعد أن هربت نعمة من البيت، قضيت أياماً وأسابيع أبحث عنها فى المستشفيات وأقسام الشرطة والسجون وحتى فى بيوت البغاء، ثم شكوت همى لزميلى وصديقى طلعت فقال ببساطة اشترى جارية أخرى لا تصدق ما تكتبه الصحف عن منع الرقيق. سوق الجلابين قائمة ومنصوبة تحت سمع وبصر شرطتنا الخديوية السنية وجيوبها الواسعة. اشترى جارية تركية، ثم ضحك وهو يقول ولكن أنت نشأت غنياً وعرفت التركيات واللحم الأبيض، والآن تفقد عقلك من أجل جارية تقول إنها سمراء؟ هذا بطراً أترك هذا لأننا لم يفهم طلعت شيئاً، وكيف كان له أن يفهم وأنا نفسى لم أفهم. هل كنت سأجد الجراة مثلاً على أن أتزوجها لو عثرت عليها أو لو رجعت هى إليّ؟ الضابط المحترم يتزوج جارية مجهولة النسب؟ أى عاراً

سألتنى وهى تستلقى بجانبى على الفراش: سيدى محمود هل تحببى؟
زجرتها: ما هذا الكلام الفارغ يابنت؟ لو عدت إلى هذا الكلام سأرميك فى الشارع! فضحكت وهى تقول معك حق ياسيدى. كلام فارغ. وأخفت رأسها فى صدرى وهى تكرر وسط ضحكاتها: أما كلام فارغ!

لكنها بعد ذلك خرجت بنفسها إلى الشارع واختفت، وكان من حظى أو من سوء حظى أنى انشغلت بعد ذلك بما حدث فى الإسكندرية وخلال الحرب وخلال التحقيقات.

ما زالت نعمة تعيد لى حتى الآن الطفل والرجل، الفرحة والندم، أقول لنفسى
هى خيانة أخرى ولكنى أسأل - ومن الذى خان يا حضرة الصاغ شهريار؟



ظهرت كاثرين وقد ارتدت ثيابها وقالت وهى تمر أمامى فى الصلاة وتحرق فى وجهى: هل مازال مزاجنا رائقاً أم أننا تغيرنا قليلاً؟
لم أرد فقالت بابتسامة - نعم، قليلاً أرى أننا تغيرنا قليلاً
- ربما، سأنتظرك فى الخارج وأرجو أن تسرعى.
فتحت الباب فلكنتى الشمس وأغمضت عيني من الوهج. وضعت على الفور قبعة الفلين البيضاء الصلبة المكورة فوق رأسى. هدية الانجليز المشبوهة! تحمى من الشمس لكنها تحبس الهواء فى تجويفها الغائر فيغلى الدم فى الرأس. قد تكون العمامة ذات الشال الأبيض العريض التى يلبسونها هنا أفضل، لكنى لا أستطيع أن أفعل مثلهم - ضد التعليمات وضد الهيبة!
نظرت فى الساعة: هى السابعة إلا عشر دقائق. إن بدأت الشمس بهذه القسوة من الآن فكيف سيكون الحال فى الظهيرة؟ وهذا كله من أجل كاثرين وفراعتها! ما الذى يعينى من تاريخهم أو من تاريخ الإسكندر ونحن مدفونان فى هذه الصحراء النائية؟ كانت تشاركنى همى فيما حدث فى الماضى القريب قبل أن يتجدد هوسها بالأثار. كذا نتكلم عن بلدها التعيس وبلدى الأتعس. لا أعرف فى الواقع أينما الأتعس. حكى لى عن مأسى كنت أجهلها تماماً عما فعله الإنجليز ببلدها منذ أن غزوه، كيف انتزعوا أفضل الأراضى والمزارع وأعطوها للمستعمرين الإنجليز الذين استولوا على ثلاثة أرياع الجزيرة... منعوا السكان الكاثوليك من تملك الأراضى ومن تولى الوظائف وجعلوها حكراً على المستوطنين الانجليز البروتستانت.. فى بعض الفترات منعوا الأيرلنديين حتى من ممارسة العبادة، وكما ثاروا على الظلم قمعوا ثوراتهم بوحشية، ثم شتتوهم فى الأرض حتى أصبح المهاجرون منهم أكثر ممن بقى فى البلد. وذات مرة ساقوا منهم ستين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال وباعوهم عبيداً فى جزر الهند الغربية. قلت لنفسى على الأقل لم يبعنا الإنجليز عبيداً خارج مصر. اكتفوا باستعبادنا فى أرضنا!

نبهني نهيق مفاجئ وحين التفت وجدت صبياً يسحب حمارين من لجاميهما ويتقدم من الجانب الذي يغمره الظل ليقف أسفل السلم مولياً ظهره للبيت، وصل في الموعد لكنه لم ينطق كلمة ولم ينظر ناحيتي، يحافظ مثل غيره هنا على قانون الابتعاد والصمت.

هتقت وأنا أنزل السلم محاذراً في خطواتي: يا ولدا!
التفت نحوي برأسه دون أن يحرك جسمه، اقتربت أسأله: ما اسمك؟
- محمود.

يسخر مني أو هذا هو اسمه بالفعل؟
- أنت الذي كنت معنا في الجمعة الماضية؟
ابتسم ولم يتكلم، بالطبع هو لا يفهم العربية أو يتظاهر أنه يجهلها وأنا لا أفهم لغته فما معنى السؤال؟ لكن كل الأولاد هنا يتشابهون بوجههم القمحية وملامحهم النقية وطواقيمهم التي لا تبرز منها غير خصلة واحدة من الشعر يتعرفون من شكلها المختلف على الأسرة التي ينتمي إليها الطفل، وربما لون الطاقية أيضاً يختلف، لكن إن كانت الطاقية تحمي رأسه من الشمس فماذا عن قدميه الحافيتين فوق الرمل الملتهب؟ أي يؤس هذا! هل ينفعه واحد من أحذيتي القنينة؟ إن يكون مقاس القدم مناسباً، إذن ربما (شيشب)؟
- اسمع يا ولد، هل تريد....

أشرت إلى حذائي وإلى قدميه الحافيتين وإلى حركة لبس الحذاء وأنا أرفع قدمي فظل يبتسم ولكنه فهم لأنه هز رأسه لليمين واليسار.
لماذا يرفض؟.. هو حرا
أخيراً جاء الصوت عالياً من على رأس السلم: يوماً ماستكسر رقبة أحدهم وهو ينزل هذا السلم.

رددت عليها بصوت عالٍ أيضاً: لا يوجد فى هذا المنزل غيرى وغيرك، فأينا
ستكسر رقبته؟

أتعجب دائماً لاستخدامها صيغة المبني للمجهول مع أن كل شئ معلوم! هل
هى أيضاً نكبة نكب بها الإنجليز لغة قومها؟ هم يحبون جداً المبني للمجهول!
كانت تهبط السلم في حركات حلزونية لتتفادى المواضع المهشمة التى تنفتحت
تحت الأقدام. سمعت أن الطوب الأصفر الذى يبنون به البيوت هنا مختلط بملح
يذيبه الحر ولهذا يتفتت الطوب بمرور الزمن . وكانت كاثارين ترفع ذيل ثوبها
الرمادى الطويل بيد تعلق فى مرفقها حقيبة من الخوص وتمسك بيدها الأخرى
مظلة بيضاء مغلقة تتحسس بطرفها كل درجة قبل أن تطأها بقدمها، وحواف
تبعثها العريضة تخفى وجهها وحين تعتدل تلمع عيناها الزرقاوان فى النور.
فى الحقيقة ياكاثارين أنت الجمال الوحيد فى هذا المكان. لولا وجودك لنسيت
فى هذه الواحة معنى النساء.

تتهددت وهى تقف إلى جوارى وقد تضرع وجهها بحمرة مفاجئة فى الوجنتين
البارزتين المكورتين بمجرد أن ضربتها الشمس، وأملت أن تغير رأيها وتعديل عن
الزيارة. لكنها قالت: لا يوجد يامحمود ما يدعوا للمزاح فى هذه المسألة. لابد من
عمل شئ لإصلاح هذه الدرجات أو لتغييرها ، أنت الرئيس هنا .

فضحكت: رئيس فعلاً رئيس تأتيه التعليمات من القاهرة كل عدة أسابيع مع
قوافل الجمال، ولا يرد على رسائله أو طلباته أحدا سلاط قسم الشرطة حالتها
أسوأ. كاد بعض الجنود يكسرون رقابهم فعلاً وهم يسقطون منها .

تتهددت كاثارين قائلة: مع ذلك يجب عمل شئ ثم تقدمت من الصبى وأمسكت
برقبة حمار بإحدى يديها واستندت بالأخرى إلى برذعة المنحولة وقفزت على ظهره
مدلية ساقياها من ناحية واحدة وهى تقول للصبى بمرح (سيجا!) إلى الأمام!

تعرف بعض الكلمات بلهجة ليبية وتعتقد أنهم يفهمونها هنا ، لكن محمود الصغير لم يرد عليها وظل ينظر نحوى إلى أن ركبت ثم تنحى خلف الحمارين ونخس كلا منهما بعصاه الرقيقة وعندما تحركا بدأ يهرول خلفنا .
قالت كاشرين: ألا يمكن أن نعطى هذا الولد من الجرى فى الحر؟ الطريق معروف.

-- استأجرنا الحمارين وهو المستول عنهما ، لكن لو تعرفين كيف تقولين له أن ينتظر هنا فلا مانع عندي.

أشارت بيدها للصبي عدة مرات أن يرجع فلم يتوقف ولم يعد ينظر نحوها ..
فراحت هي تدير قبعتها فوق رأسها لتحمى وجهها من الشمس ثم استفرقت في النظر إلى الطريق.



ما زالت البلدة خالية من الحركة والصوت. لم يظهر الأجواد بعد فوق مصطبتهم الحجرية المسقوفة بجريد النخل أمام باب البلدة ولم يخرج الأطفال ليلعبوا في الساحة الرملية الكبيرة أمام بيتي. لكني كنت واثقاً أن عيوناً كثيرة تراقبنا من خلف النوافذ المعتمة التي انطلقت منها الرصاصات التي أودت بحياة سلفي واستدعت مجيء حملة الجيش.

لم تعين القاهرة مأموراً بعده. نجح كل من له واسطة أو ظهر في الإفلات من المهمة إلى أن وقعوا عليّ أنا .

لكن الحكومة فعلت شيئاً جديداً لتثبت هيبتها قبل أن تسحب جنود الحملة. تركت مدفعا كبيرا في مدخل مركز الشرطة الذي أقامته في ممتلكات العمدة القاتل. أشك أن المدفع يعمل أو أن أحدا من جنودى يعرف كيفية إطلاقه. لكن الهبة مهمة على كل حال، مع أن المدفع لن يوقف الرصاصات حين يأتى أوانها. غير أنى أفكر الآن في كاثرتين. ماذا لو أصابتها هى الرصاصات؟ ماذا لو سقطت بدلاً منى؟ ولكن من أنا لأحدد للقدّر من يصيبه ومن يعفيه؟

إذا كنت لا أفهم نفسى فكيف أفهم القدر؟ فليكن ما يكون!

يجب مع ذلك أن نعود قبل الظهر. أحرص دائماً على أن أصلى معهم الجمعة فى المسجد الكبير خلف باب شالى. أصطحب معى بعض الجنود لكنى لا أفهم سوى القليل من الخطبة التى تتخللها بعض عبارات عربية وآيات قرآنية.

اشتكى الجنود أيضاً من أنهم لا يفهمون شيئاً فاقمت لهم مصلى فى مركز الشرطة يؤمهم فيه الشاويش إبراهيم معظم الوقت وأصلى معهم أحياناً، لكنى أذهب دائماً يوم الجمعة ومعى جنديان أو ثلاثة ونصافح الأجواد والمصلين القريبين منا. يتمتعون بأدعية خافتة نرد عليهم بمثلها وتنتهى كل علاقة بيننا حتى الجمعة التالية.

لم يزرنى أحد منهم ولم يدعنى أحد لزيارة بيته أو بستانه، غير أنهم يرسلون

إلى المركز بين الحين والآخر بعض الفاكهة وبعض الأطعمة ويحرصون دائماً على ذكر اسم الأسرة التي أرسلت الهدية. أوزع هداياهم على الجنود وأرد بكلمة شكر.

حتى لو استمرت هذه الهدنة الباردة فلا بأس، ولكن ماذا عن الضرائب؟ ماذا حين يأتي موعد الجد؟

تركنا مشارف شالي التي يجمعنا فيها ظل البيوت واتجهنا شرقاً في طريق يخترق أسوار البساتين لكن الأشجار لم تلتطف من حرارة الشمس.

بدأ العرق يسيل علي عيني فلا أكاد أرى شيئاً. عابدين الآن حلم بعيد، جميل ومستحيل. بلاط الصالة المرشوش بالماء ونسيم الشباك البحري المفتوح، ونداءات الباعة التي توقظنا في الصباح وتستمر طول النهار، والتهافتات المنغمة لبانعي الصحف، «المؤيد» التي أحرص على قراءتها، و«المقطم» التي أحرص على أن ألعنها هي وكتابها المدافعين عن الاحتلال، وفي المساء النزهة على شاطئ النهر، عبور كوبري قصر النيل والسهرات في حدائق الجزيرة مع من بقى على العهد من أصدقاء الزمن القديم. كفى نفاقاً! من الذي بقى على العهد؟ هل بقيت أنا نفسي على العهد؟

يحسن ألا نفكر في ذلك الآن. دعني أكمل يوماً دون أن تطاردني الأسئلة التي أعرف إلى أين تقضى. فالتشبث بابتسامة الصباح التي أهديتها لى نعمة دون أن أستحقها.

لكن لماذا، مهما حاولت، يشحب تأثير البسمة شيئاً فشيئاً كما لاحظت كاشرين؟ لماذا ينقبض قلبي وتحديثي نفسي أن شيئاً سيحدث؟ الشئ الذي أستحقه بالفعل من نعمة ولعله ما أستحقه من الدنيا.



٧- كافرين

هى محاولة أخرى فى هذا اليوم الحار.

كل ماقرت به من الزيارة الأولى كلمة واحدة، اسم واحد - مليكة، لقاء مبتور لكنى لا أنساه.

لم أتوقع أبداً هذا الحصار بالصمت . قلت لنفسى هى فترة ثم تمر وأنجح فى الاقتراب منهم. حاولت ما استطعت. أردت بعد وصولنا أن أصعد إلى شالى وألتقى بالناس هناك .. رأيت فى وجه إبراهيم فزعاً حين طلبت منه أن يصحبنى لزيارة سوق البلد . قال يا هانم ما تريينه أشترية لك. لكن ما أريده يا إبراهيم هو أن أدخل البلد لأراه ! رد أنه هو نفسه لا يستطيع أن يدخل ليرى . ما أحناجه من هناك سيطلب من أحد الأولاد شراءه. ألا أنكر أنهم لا يحبون أن يدخل غريب إلى بلدهم ويتجول وسط بيوتهم؟

كان يجب أن أفهم ذلك دون مساعدة إبراهيم. منذ وصلت لم يكلمنى أحد. حين أخرج من البيت وأتجول حوله بمفردى أو بصحبة محمود يبتعد الأولاد والبنات الذين يلعبون فى الساحة الرملية . إذا اقتربت منهم وأنا ابتسم يفرون فى اتجاه البلد. لم أصادف هذا فى أى مكان آخر. حتى الناس فى القرى الصغيرة التى زرتها فى الصعيد والدلتا، حتى البلو فى الصحراء فى مناطق الآثار كانوا يقتربون ويحيطون بى فى فضول ، ومن قبل أن أتعلم العربية كانوا يحاولون التفاهم بالابتسامات وإشارات الأيدى. فلماذا هم هنا هكذا؟ لماذا أعجز عن كسب ودهم أو مجرد معرفتهم؟ أسوار حول البساتين وحصن حول البلدة وسور حول

الحصن - كيف جرحهم العالم حتى توقعوا داخل كل هذه الأصداف؟ هذا لغز آخر يجب أن أحله وأنا أبحث أَلغاز الإسكندر. يجب أن أصل إليهم قبل أن أصل إليه. أحتاج مساعدتهم أولاً لأصل إلى أى شيء.

ثم إنه يجب كسر هذه العزلة قبل أن يصيبني الاكتئاب . لو لم تكن لدى الكتب والقراءة وفكرة البحث لتبدلت تماماً خلال هذه الأسابيع . حتى محمود معى وليس معى. يذهب إلى مركز الشرطة فى الصباح ويعود إلى البيت بعد الظهر ليأكل وينام ساعة أو ساعتين وفى معظم الأمسيات يرجع أيضاً إلى المركز، وأحياناً يركب حصانه ويخرج مع خيالة من جنوده فى جولة فى الصحراء ويظل إلى ما بعد منتصف الليل . لا أستطيع أن ألومه على شيء. لكنى رجوت أن تزيدنا رحلة الصحراء والحياة هنا قريباً من بعضنا. وفى البدء تفاعلت . لم يكن سوانا وكان العشق تسليتنا الوحيدة ، ثم تسرب إليه الملل، ولم أعد أنا أيضاً أجد المتعة نفسها التى اعتدت عليها منذ بدء علاقتنا. لكن فلنؤجل التفكير فى ذلك. أشكره لأنه يعطينى يوم عطلة كله. نسير معاً أو نستأجر حمارين ونتجول بين البساتين المغلفة وحول البحيرات ونتوغل أحياناً فى الصحراء . فى الجمعة الماضية صبحنى عندما قررت أن أبداً بزيارة معبد آمون ، معبد الوحي الذى صنع قصة الإسكندر كلها.

ظل ينتظرنى فى أسفل الهضبة التى يعلوها مابقى من هيكل المعبد. قال إنه لايمكن أن يتجول وسط بيوت تسكنها أسر ونساء. يمكننى أن أفعل ذلك كامرأة ، أما هو فلا يستطيع بسبب عاداتهم وتقاليدهم. لم يكن يدرى أن ذلك مستحيل حتى بالنسبة لامرأة .

عرفت بالطبع من قبل أن أذهب أنى سأمُر أثناء صعودى إلى المعبد على بيوت مبنية فى التل يسكنها بعض أهالى أغورمى، وتمنيت أن تحدث معجزة تكسر الصمت حين ألتقى بالناس وجهاً لوجه. ولكن بينما كنت أصعد بصعوبة الدرجات

القلقة المهشمة رأيت النسوة يفلتن الأبواب كلما اقتربت من أحد البيوت . لم تنفع
ابتسامات التودد، ولا عبارة «إصباح الخير» التى تعلمت نطقها بلهجتهم من
الأطفال الذين يلعبون أمام البيت. كانت ربودهن دمعيات غاضبية وهن يصفقن
الأبواب بعنف.

ويعد كل تعب الصعود وخيبة الأمل لم أر من المعبد غير الأطلال التى كانت
معالمها أكثر وضوحاً من أسفل التل.

أذهلنى مارأيت. قاعات المعبد ذات المداخل الحجرية مسدودة أيضاً بالطوب
الأسفر وقد أصبحت بيوتاً لها أبواب خشبية . لم أجد سوى بهو واحد مفتوح
يفضى إليه ممر ورأيت بقايا نقوش على مدخله وعلى جدرانه لكنى لم أستطع أن
أثبتن أياً من النقوش أو أقرأ الكتابات المحفورة على الجدران ، كان يطمسها
سواد دخان كثيف ، وأدركت حين رأيت الموائد الحجرية البدائية المتناثرة فى
المكان أنهم يتخذن من القاعة مطبخاً جماعياً هجرته حين عرفن أنه هدفى. حاولت
بحرص أن أمسح بكف يدي السناج الذى يخفى بقايا رسم للإله آمون فتلوئت
راحتى وطمس السواد ما كان ظاهراً من الرسم، فتوقفت عن المحاولة.

أيمكن أن تكون هذه القاعة هى قدس الأقداس للمعبد الذى تلقى فيه الإسكندر
الوحي من آمون؟ كيف أعرف وأنا لم أر بقية المعبد؟ لو كنت من النساء اللاتى
يبكين لطفرت من عيني دموع وأنا أقارن بين ما قرأته عن موكب الإسكندر فى هذا
المكان وهو يمر وسط الزينات والغناء تحف به بهجة الصور الملونة على الجانبين
وبين ما آل إليه الحال هنا. مطبخ؟ قدس الأقداس مطبخ؟!

نزلت تملؤنى الصسرة والغضب. لم أبال هذه المرة بعودة النساء إلى إغلاق
الأبواب المفتوحة وأنا أتحسس طريقي على الدرجات. لكن فى إحدى حنيات السلم
المعتم ووسط كل الأبواب المغلقة فوجئت بباب واحد يفتح ببطء وحرص وهمس نداء
خافت. ظهرت فى مدخل الباب فتاة ، ظهر وجه بهرنى جماله كنور وسط العتمة

المحيطة بنا، ابتسمت لى وراحت تهمس كلاماً باللغة المجهولة، أشرت إليها بما يعنى أنى لا أفهم . فمدت يداً إلى صدرى وأشارت بالأخرى إلى صدرها وقالت هامسة أيضاً «مليلة» ، وظلت تتطلع إليّ مستفهمة ، لكن بينما أهمس بدورى «كاثرين» امتدت يد نسوية عجفاء جذبت مليلة وأغلقت الباب بهدوء. ظلت واقفة مكاني فترة . من أين يأتى جمال هذا الوجه؟ بشرة ناعمة بيضاء وملامح بقيقة متسقة - عينان رماديتان وشفتان ورديتان ممثلتان، شعر كستنائى تتدلى منه خصلة غزيرة يعرض الجبين ثم ينسدل على الجانبين فى مئات الضفائر الرفيعة المزينة بحلى من الفضة كإطار يبرز ذلك الوجه الصبور، ربما تكون ملامحها مألوفة فى الوجوه الجميلة، فلماذا تسمرت فى مكاني مأخوذة بهذا الوجه؟ هل هى مفاجأة الود وسط كل هذا العداء غير المفهوم؟ ربما.

فلأنس ذلك أيضاً ولأفكر فيما ينتظرنى اليوم، أرجو مع محمود أن يكون الحظ أفضل ونحن نزور المعبد الذى يسمونه هنا أم معبد أو أم عبيدة، هو أيضاً معبد لأمون وعمارته تدل على أنه بنى فى عصر الصحوة المصرية التى سبقت غزو الفرس، رأيت مرات من الخارج أثناء تجولنا فى الواحة وأرجو أن يكون قد سلم من العبث بالنقوش والكتابات التى سجل صورها الرحالة الألمانى «فون مينوتولى» فى بداية القرن التى أدركت من مجرد النظر إلى الصور أنه ارتكب أخطاء واضحة وهو ينقل الكتابات الهيروغليفية كما لو كانت مجرد رسوم. معى الكتاب، وإن تكن النقوش قد ظلت سليمة فسأحاول تصحيح هذه الأخطاء.

المر اليوم أقسى من المعتاد رغم أننا فى نهاية الخريف تقريباً، رائحة زهر الليمون تتسرب من الهدائق ، لكننا لا نرى من وراء الأسوار غير مراوح سعف النخل الذى تلمع أطرافه المذبذبة فى الشمس كالسهم.

كان محمود يركب حماره وهو يحنى رأسه ويقلق عينيه . مازال مزاجه أفضل من أيام كثيرة، أرجو أن يصمد ولا يتغير فجأة كعادته.

هتفت ، لماذا تسكت يا محمود؟

رفع رأسه نحوى وضحك بعصبية وهو يشير إلى ساقيه - وما الذى يمكن أن أقوله وأنا فى هذه الحال؟

معه حق. لا يجلس مرتاحاً فوق حماره . تكاد قدماء تلامسان الأرض فيثنى ساقيه الطويلتين . يخجل أن يمتطى الحمار مريحاً ساقيه على جانبي الحمار منذ قيل لنا إنهم لا يقبلون هذه الطريقة هنا سوى من النساء. لماذا؟ مع أن العكس هو المنطقي! كما لو كان هذا هو الشيء الوحيد الذى لا أفهمه هنا!

صحت ونحن نمر بالقرب من عين الجوبة:

وصلنا تقريباً . من هنا مر الإسكندر الكبير وحاشيته وقتتهم هذا النبع. عرفوه باسم عين الشمس. ربما لأن شمساً كثيرة تتوالد على سطحه كما ترى. فصاح محمود بدوره: مررت عليه ورأيت كثيراً من قبل . أما الآن فأنا لا أرى شيئاً. تعينى هذه الشمس.

لزمنا الصمت حتى وصلنا إلى المعبد ، وتقدم منا إبراهيم الذى سبقنا إلى هناك فصاح به محمود وهو يترجل عن حماره ويساعدنى على النزول: بسرعة يا إبراهيم . أحضر ماء لنشرب. فجرى إبراهيم فى اتجاه النبع. وتابعت بعيني الصبى الذى كان يجرى خلفنا فوجدته يمسك بلجامي الحمارين متقدماً من أقرب نظرة تواجه المعبد.

خلع محمود خوذته المكورة وراح يجفف العرق من وجهه ورأسه بمنديل كبير وجال ببصره فى المعبد الذى تتكس وسط أطلاله حجارة كبيرة سقطت فى زلزال فى بداية القرن كما قرأت فى الكتب وقال بابتسامة واهنة: ها هى الآثار كلها مكشوفة أمامك. حاولى أن تعوضى ما فاتك فى الجمعة الماضية.

لكنه لم يستطع الانتظار. قال عن إنك، وجرى هو أيضاً فى الاتجاه الذى سبقه إليه إبراهيم.

رفعت المظلة فوق رأسى ووقفت أتأمل المعبد الصغير، أو مازل بأقياً منه. هناك المدخل الحجري أو البوابة الخارجية التى شطرها الزلزال إلى نصفين ما زالت تربط بينهما حجارة السقف الذى انهار معظمه أيضاً . وفى الداخل بقايا جدران تقسم المعبد إلى قاعات لم يبق مايدل عليها سوى أطلال أعمدة والأرضية المرصوفة بالحجارة البيضاء التى نبتت وسطها الحشائش.

مهما يكن الدمار الذى أصاب المعبد فحاله أفضل بكثير من معبد الوحى الذى تحول إلى مساكن ومطابخ. مازالت الرسوم والكتابات الهيروغليفية واضحة على الجدران.

لم تغدنى المظلة بشيء فدخلت المعبد وجلست على أحد الأحجار فى ظل البوابة المرتفعة. لاداعى للمكابرة . الحر اليوم لايطاق، ولكن ما العمل ومحمود يصبر على ألا أتجول وسط الواحة وحدى وعلى أن تكون جولتى الصباحية معه فى يوم عطلته؟ يمكن أن أبداً اليوم بقراءة النقوش المكتوبة على الأحجار الساقطة فلا توجد وسيلة أصل بها إلى قراءة ما هو مكتوب فى أعلى البوابة. لكن كيف يفيدنى هذا الأثر القديم فى بحثى عن شيء حدث بعد بنائه بقرون؟ أعلق أُملى على عادة المصريين التى قلدهم فيها اليونان فى إضافة البناء إلى معابد الأسلاف وأهم من ذلك إضافة الكتابات والنقوش. وأعتمد أكثر من ذلك على أن يساعدنى الحظ.

لو يدلى أحد على شيء، أى شيء، من؟ مثلاً هذا الصبى الذى يجلس قبالى تحت ظل نخلة يحرس الحمارين، كان يمكن أن أعلمه وأصاحبه فيقبولنى إلى أماكن أجهلها. عيناها اللامعتان تنطقان بالذكاء أما هو فلا ينطق كلمة. وهذا الصبى الآخر الملثم الوجه الذى يحوم بحماره حول المعبد، يقترب قليلاً كأنه يتأملنى ثم يبتعد. حين حاذى بوابة المعبد لوحته له بيدي لكنه لوى رقبة حماره وأسرع كأنه يفر فى اتجاه أغورمى. لماذا اقترب ولماذا فر؟ ما الذى يخيفهم منى؟ لابد أن أحاول شيئاً!

أشرت للصبي الذي يجلس تحت النخلة ونابيت بصوت مرتفع: يا ولدا نهض من مكانه وراح ينظر حواليه ثم تقدم منى متردداً. عندما وقف أمامى لاحظت عرقاً غزيراً يتفصد من جبهته ورأيت في وجهه الشحوب والإعياء. بالطبع كيف احتمل الجرى طول الطريق في هذا الحر الذي لم نحتمله أنا ومحمود راكبين؟ لكنه هو الذي أصر.

قلت له: إصباح الخير. فرد بابتسامة مقتصبة: الخير. لا بأس، حتى لو كان يسخر منى فقد كسرننا حاجزاً. والآن كيف يمكن أن أواصل؟

لوحث بيدي بحركة دائرية مشيرة إلى بقايا المعبد وسألته بالعربية: دخلت هنا؟ ظل يتطلع في وجهى بدهشة وعدم فهم فبقيت من مكانى وقدته حتى جدار مازال محتفظاً بنقوش جميلة للكلية القدامى، أشرت إلى صورة بديعة التكوين للإلهة إيزيس ملونة بالأزرق والأحمر وسألته بأبسط عربية ممكنة: كويس؟ أكفهر وجهه وهو ينتزع يده من يدي بعنف ثم يصق على الصورة وهو يقول في غضب: كفار! واستدار مسرعاً وجرى كأنه يترنح مبتعداً عن المعبد ليجلس في مكانه السابق.

ظللت واقفة يفمرنى الإحباط والضجل من نفسى لكنى مع ذلك سجلت في ذهنى: إن كلمة «كفار» مشتركة أيضاً بين اللغتين! عدت أنا أيضاً لجلس مكانى في ظل البوابة.

لا فائدة. لن يمد لى أحد يده. معذرة يا عزيزتى إيزيس لهذه الإهانة. معذرة أيها الإسكندر. لا أعرف من أين أبدأ ولا كيف أبدأ.

فقدت كل حماسى للعمل والبحث والزياره نفسها. سيسعد محمود أن نرجع للبيت، بسرعة، فلم لا؟

— ألم تبتنى جوائتك بعد؟

فوجئت بمحمود أمامى ومعه إبراهيم يمد لى يده بإناء من الفخار مترع بالماء

فشربته كله . كان هو قد غسل وجهه ووضع فوق رأسه منديله الأبيض الكبير بعد أن غمره بالماء.

التفت يخاطب إبراهيم : ارجع أنت واجلس فى الظل.

فقال إبراهيم ناظراً نحوى والعرق يجرى فى تجاعيد وجهه الأسمر المتفضعن: ربما تحتاجنى فى شىء سعادتك أو الهانم.

قلت: شكراً يا إبراهيم ، لو احتجتك سأطلبك. ثم أشرت إلى الصبى المقرص قبالتى تحت النخلة يراقبنا - وقل لهذا الولد أيضاً أن يذهب معك ليرتاح هناك. لا أريده أمام عيني!

رأيت إبراهيم ينحنى على الولد يكلمه، لكن الصبى هز رأسه ولم يقم معه، بل تمدد على الأرض وورقده على جنبه واضعاً يده تحت رأسه، فرجع إبراهيم وحيداً فى اتجاه العين.

قال محمود : الجو ألطف بكثير هناك قرب الماء وتحت ظل الأشجار.

وراح يفتش بعينييه عن مكان فى الظل فوجده عند حجر أسفل جدار قائم بالقرب منى، جلس مسنداً ظهره وكرر سؤاله.

متى ستبدين عمك يا كاثرين لنرجع إلى البيت قبل ..

- قبل موعدك مع الصلاة. أعرف.

أخذت نفساً عميقاً وتمايلت نفسى ثم قلت: أنا أعمل الآن بالفعل . أفكر وأسترجع معلوماتى قبل أن أرى هذه الأطلال التى دمرها الزمن والزلازل والبحث عن الكتوز.

ثم أكملت وأنا أخرج الكتب من حقيبتي : لكن ألا تريد أن تسمع أولاً ما قاله هيرودوت عن عين الشمس التى يعجبك الجو عندها؟ هل تعرف هيرودوت؟

- بالطبع. علمونا أنه قال إن مصر هبة النيل.

- نعم، هو أول من كتب التاريخ فى العالم وزار مصر قبل أن يؤلف كتابه .

يصفونه بأنه أبو التاريخ.

- وهل نذكر في كتابه بالفعل هذه العين الصغيرة؟

قلت مبتسمة: وأى نكرا! يقول يا عزيزي! إن ماء هذه العين يكون دافئاً في الصباح ثم يبرد بالتدرج وتشتد برودته في الظهر في وقت رى البساتين ثم تتلاشى البرودة أثناء النهار ويسخن شيئاً فشيئاً كلما انتشر الظلام وعند منتصف الليل يلقى الماء في العين غلياناً رهيباً قبل أن تتعكس الآية ليبرد من جديد شيئاً فشيئاً حتى مطلع الفجر.

كان محمود ينظر نحوى ودهشة متزايدة تظل من عينيه ثم أطلق ضحكة عالية وهو يقول : هل كتب هذا حقاً؟

لوحث بالكتاب في يدي : تحب أن أقرأ لك؟

رد وهو مستمر في الضحك - لا . أنا أصدقك . هذا حقاً هو العلم والتاريخ! مررت بهذه العين في الليل والفجر والظهر والعصر وشريت من البئر واغتسلت فيها فلم أر أى ماء يلقى غلياناً رهيباً أو رقيقاً في أى وقت.
قلت لأشاكسه: ربما كان هذا هو الحال أيام هيروdot!

فواصل كأنه لم يسمعى : أبو التاريخ حقاً! ولم لا ما دامت حتى الأشياء التي رأيتها بعيني قبل سنين قليلة يروونها الآن في الكتب معكوسة تماماً! أبو التاريخ! يبدو أن التاريخ لقيط فعلاً!

نظرت إليه وهو يحنى رأسه وقطرات الماء تتساقط من منديلته الذي يلقى وجهه. لهجة حزينة . تعكر مزاجه كما كنت أخشى.

جلت بيمصرى في المعبد ونظرت إلى الولد الراقد على الأرض في مواجهتى والذي يصق على صورة إيزيس وقتل لمحمود بضحكة صغيرة:

مسكين التاريخ! ليس له أصداق اليوم.

وفكرت ربما تكون هناك أكاذيب. بالقطع هناك أكاذيب . ولكن ما هي الطريقة

لمعرفة الحقيقة غير البحث عنها؟

سمعنا فجأة لغطاً عالياً وصياحاً ناحية النبع ثم ظهر إبراهيم مسرعاً كعائته وانحنى على محمود وقال له شيئاً بصوت خافت فرد عليه بسؤال : بعد صلاة الجمعة؟ ستكون هناك.

ثم تأهب للانصراف بصحبة إبراهيم وهو يقول : أتركك لتسرعى قليلاً فى عملك وسأرجع أنا إلى الظل عند الماء الذى يغلى. يقول إبراهيم إننا يجب أن نعزى الأجواد لأن واحداً منهم مات.

فأكمل إبراهيم : الشيخ معبد، رحمة الله عليه وعلى موتانا . لكن موته أنقذ الواحة من حرب كانت على الأبواب بين الشرقيين والغربيين . ربنا سبحانه له حكمة.

انصرفا معاً ، فاخرجتا ما لديّ من صور قديمة وقارنتها بما أراه حولى، صور الجدار القريب وكتابات لا تعينى. معظمها طقوس للمتوفى لينطق بالحقيقة فى يوم الحساب يسميها البعض كتاب الموتى. توجد عادة فى المقابر لكنّها نادراً ما تظهر فى المعابد. على أى حال هى دليل على أن هذا معبد جنازى لتأبين وتخليد ملك أو شخص عظيم يعبد الإله آمون. لا علاقة لهذا بأى بحث عن الإسكندر الذى شيّدوا المعبد قبل زيارته. لكن مادامنا هنا فلنعمل. سأبدأ بنقل ما هو موجود على الجدران وأصوب الأخطاء الموجودة فى الكتب، وقد يصافنى الحظ فأجد نصاً أحدث . لم لا؟

حكم خلفاء الإسكندر، من البطالمة اليونان، مصر قروناً وسكن كثير من أشرافهم واحة آمون ودفنوا فيها ، فهل يعقل أنهم لم يتركوا أى أثر يفيدنى؟ معبد صغير، أو نصب، أو حتى لوحة تذكارية داخل معبد تتحدث عن معبودهم الإسكندر وتضيف إلى معلوماتنا عنه.

لو تساعدنى روح الإسكندر ! معى ذلك الكتاب عن تحضير الأرواح فهل

استخدمه؟ لكنى لا أؤمن بتحضير الأرواح، وعندى أسئلة حتى عن الأرواح نفسها.

كفى عبثاً، إلى العمل!

تقمت من الجدار، ثم توقفت فجأة.

انتظرى يا كاثارين! ما معنى كل هذه الإشارات الآن؟..

تحضير الأرواح ومعيد جنازى وكتاب الموتى على الجدار! ألا تقودك إلى شيء

ما؟ فكرى قليلاً. ربما ما يجب أن تبحثى عنه هو موت الإسكندر لا حياته.. شيء

له علاقة بموته. نعم!

الوحيد الذى كان يمكن أن يفهمنى فى هذه اللحظة هو أبى. كان يمكن أيضاً

أن يساعدنى.

لكنه يساعدنى بالفعل!

كل ما يحيط بى يعيد إلى ذهنى حواراً دار بيننا انتهى بجملة عابرة كأنها الآن

رسالة. كائن أحوم طول الوقت حول هذه الرسالة نون أن أدري. كان ليلتها

يحدثنى عن الإسكندر ويقرأ لى من كتاب (بلوتارك) عن أيامه الأخيرة، فقاطعت

أسأله بشيء من الحيرة: أليس غريباً أن كل حديث عن ضريح الإسكندر فى

الإسكندرية والذى كان أشهر معالمها ومقصد زوارها قد انقطع فجأة بعد القرن

الرابع؟ فرد أبى نعم، كثيراً ما حيرتني أنا أيضاً هذه المسألة. ما الذى يمكن أن

يكون قد حدث؟ هل غرق هذا الضريح فى البحر؟ هل تهدم فى زلزال؟ هل دمره

الرومان مثلما دمروا آثاراً وثنية كثيرة بعد أن اعتنقوا المسيحية؟ ثم سكوت لحظة

وقال متفكراً لو هل نقل بعضهم الضريح إلى مكان آخر؟ هل ظلت عبادة الإسكندر

موجودة وبقى له عباد أوفياء يفكرون فى إنقاذ رفات محبوبهم؟

لم لا؟ لو كان أبى حياً لأقنعتة أنه إذا صح ظنه فلا يوجد مكان أنسب من

واحة آمون لنقل الجثمان المحنط والضريح إليه. ألم تكن وصية الإسكندر الأخيرة

هى أن يدفن هنا، فى هذه الواحة، إلى جوار أبيه آمون؟

«لو» صح الظن و«لو» صح تفسيرى، مجرد تخمينات. فلا توجد فى التاريخ أى إشارة إلى نقل الضريح، لا دليل ولا مجرد إشارة.

هى فكرة مجنونة ، حدس «مجنون» . لكن كل كشف فى الدنيا بدأ بمثل هذا الجنون ، أليس كذلك ؟ فلا صمت إذن ، وليكن هدفى أن أثبت هذا الحدس، أن أعثر على دليل . مجرد دليل يقود غيري إلى البحث والتنقيب ثم إلى أعظم كشف فى تاريخ العالم يكون لى أنا الفضل فيه.

لو نجحت فسيعوض هذا كل ما أحتمله فى هذه الواحة. سيعطى لحياتى المعنى الذى أبحث عنه . لكن المهم هو الصبر.

أمامى الآن أقل من ثلاث ساعات فى المعبد، فلأحاول أن أعمل شيئاً مفيداً.



مر الوقت بسرعة، وأنسانى العمل حتى هذا الحر.

قلت لنفسى وأنا أجمع أوراقى وكتبى : حصيلة لا بأس بها . صححت بعض أخطاء الكتب، ونقلت بنفسى صلاة لأمون باللغة المصرية المتأخرة، لكن لم تتحقق معجزة العثور على نص مكتوب باليونانية يقودنى إلى الإسكندر حياً أو ميتاً ، لا بأس، تحدثنا عن الصبر.

انتهيت فى الوقت المناسب . سمعت صوت محمود مقبلاً ومعه إبراهيم ورأيتهما يقتربان.

ثم ، فجأة ، هزة خفيفة تحت قدمى سمعت معها فى الوقت نفسه صوت أحجار تتكسر. رفعت رأسى بشكل غريزى فرأيت حجارة السقف الذى يربط جانبي البوابة المشطورة يتفكك فى بطل، ثم رأيته يطير فصرخت وجريت أبتعد.

كان حجر كبير يطير من سقف المعبد متجهاً كالقذيفة نحو الواد النائم تحت النخلة.

جريت نحوه وأنا أصرخ فانتفض فى مكانه وجلس ينظر الحجر المنقض.
لن أدركه. هى ثوان!
رأيت محمود وإبراهيم وهما يصيحان ويتدافعان نحو الصبى الجالس مشلولاً
يحملق إلى أعلى.
ثم رأيتهم الثلاثة ينبطحون أرضاً، لكنى لم أعرف من منهم أصابه الحجر الذى
بدأ يتدحرج بالقرب منهم.
ظللت أجرى نحوه وكانت الأرض تتشقق عن أطفال وكبار ، كلهم يصرخون
وكلهم يندفعون نحو الثلاثة المكمين على الأرض.



٨- الإسكندر الأكبر

لدغ الثعبان أُمى لدغة الحب فجنت أنا، أناها الإله الكيش ثعباناً
فكنت ثمرة الحمل المقدس. كان أبى الأرضى (فيليب) ملك مقدونيا
يهم بالدخول على أُمى (أولمبياس) حين شهد من الباب الموارب
مضاجعتها مع الإله الزاحف. رأى الثعبان الأسود الضخم يزحف
فوق بطنها الأبيض المرمى وهى تعانقه فى عشق ورآه يتخللها،
فتراجع مغلقاً وراءه الباب فى ورع ورهبة ثم أرسل قرباناً إلى معبد
آمون - زيوس ، الإله الثعبان - الكيش - الصقر الخفى الأسماء .

هذا أنا وهذا نسبى فمن أنت أيها الشخص الغريب عن بلدى وعن بلد آمون؟
هل أنت رجل أو امرأة ؟ لا علم لى لكنى أظنك امرأة. ساع تبرك امرأة ، ذلك
الإلحاح الذى لا ينقطع عرفته منذ صباى من أُمى ثم من كل امرأة بعدها . فلماذا
تقلقين روحى التى اختارت هذه الأرض الموحشة لتهيم فيها ؟ تلحين بالنداء علي
من دنياكم وتطلبين شيئاً لا أعرف ما هو.

تحسين أنى أعلم أكثر مما تعلمين . لا .. أرواحنا بعد الموت تجوس فى
الظلمة ، وأنا الآن مثل سمكة عمياء لاتترك من المحيط الواسع سوى أنها تسبح
وسط ماء أسود يليه ماء مثله. هكذا أتخبط فى ظلمة من بعدها ظلمة. فهل هذا هو
جحيم (هاديس) الذى جعله اليونان مستقراً للأشرار، بينما تسبح الأرواح الطيبة
فى النور مع الأرياب ؟ أم هو فناء العدم للخاطئين كما وصفه كهنة المصريين؟ لا
أعلم . لا أدرى . منذ غادرت الحياة كنت أستطيع أن أراكم أربعين يوماً لا غير، ثم
أطبقت الظلمة من بعدها زمناً لا أستطيع حسابه - أهو يوم أو دهر؟

لا أرى أحدا من عالمكم. لا أسمع صوتاً ولا أتكلم ، لا ألتقي أرواحاً أخرى طيبة أو شريرة ولا أظن أنى أصل إليك أو أوحى لك شيئاً . لكن بين الحين والحين يأتى مثلك من ينادينى فيوقظ روى دون أن أفهم ماذا يريد. لا أعرف شيئاً هنا غير ما عرفته على الأرض. أجتريه مرة بعد مرة فأرى صورة حياتى فى كل مرة تنتقض ما رأيته منها من قبل.

هل هو برزخ سينجلى أخيراً عن رحمة ونعمة أو عن عذاب جديد؟ لا أعلم . لا أدري .

لا أعرف حتى كينونة أمون الذى ألوذ به . هل كان رياً أو وهماً ؟

وهل كان الكاهن الذى نقل لى الوحي مرشداً يخترق حجب الغيب أو سجالاً يلقى الأكاذيب ؟ غير أن روى تابعت جثمانى لأسابيع وسارعت لكى أصل هنا قبل الأربعين وأرى معبد أمون لآخر مرة ، أريد أن يكون هو أول ما أرى حين يشرق النور من جديد، إن كان سيشرق لكى أعرف الحقيقة .

زرعت أسمى فى نفسى اليقين بأنى ابن الإله منذ وعيت على الدنيا . وكيف كان لى أن أكذب أوليمبياس وهى التى نشأت كاهنة فى معابد الآلهة ؟ دلفت إلى عوالم الأسرار الخفية ورأيتها فى طفولتى تنفذ إلى تلك العوالم التى يجهلها البشر . يشتعل فى عينيها الخضراوين يريق أسر ثم تغيم النظرة فى العيين شيئاً فشيئاً وهى تنظر إلى ما لا نراه قبل أن يتخشب جسدها وتتطرح أرضاً وتتكلم لغة غير ما نعرفه من لغات الأرض ثم تعود إلينا بعد حين بنظرة صافية فى العيين الساحرتين ووجه رائق جميل . تتلقى وحي الأسرار من وسوسة أوراق الشجر ومن همس النسيم وغناء الطير ووميض النجوم ومن غيب لانعرفه ثم تبوح لنا بعدها بما خلا وبما هو أت.

وفى العاشرة من عمرى ، فى قصر أخيها الملكى أفاقت من إحدى رحلاتها للمجهول وقالت فى بَشَرٍ وبقين: رأيته نسرأ أبيض تحلق فى السماء بأجنحة فضية تمتد وتكبر حتى تنتشر ظلها على العالم كله، تصبح أنت الظل وأنت النور

وأنت الشمس وأنت كل ماهو كائن وما سوف يكون . ستسود الأرض وإن يقهرك إنسان وستنعم بخلود الآلهة .

كنت أيامها طفلاً حزيناً وغاضباً لأن أبى تزوج من امرأة أخرى وطلق أمى فصحبته إلى قصر أخوها الملك بعيداً عن فيليب ومقدونيا . قالت لى لا تحزن . فيليب ليس أباك . أنت ابن آمون - زيوس . لكننا سنوحد مع ذلك إلى مقدونيا قبل أن تمر شهور . ستقضى مع أهلك الأرضى عشر سنين قبل أن ترث منه العرش ثم تحكم من بعدها الدنيا ومن عليها . لم تكذب أى من نبوءاتها الأرضية فكيف كان لى أن أكذب أنى ابن للإله ؟ وكيف يكون لى أبوان ، فيليب على الأرض وآمون فى السماء ؟ من أكون وما المطلوب منى فى هذه الدنيا ؟

ما كان بوسع أحد أن يساعدنى على حل الالتغاز أكثر من أرسطو ، أعظم فلاسفة اليونان، استدعاه فيليب ليعلمنى منذ كنت صبياً وولياً لعهد لى لى لم يرشدنى بسهولة إلى الأجوبة. اعتاد أن يدلى بحكمته فى عبارات قصيرة غامضة . كان يبجل آلهة اليونان أو يتظاهر بتبجيلها ولم يقل شيئاً أبداً عن آلهة المصريين . خاف بالتأكيد من مصير سلفه سقراط الذى أقرط فى الحديث عن الآلهة فعاقبته أثينا، اعتبرته مجدفاً وكافراً وأرغمته على تجرع السم . أما أنا فكنت متعطشاً للحقيقة ولهم الغرائب التى غلفت حياتى منذ مولدى ، أرانى أرسطو للفلسفة والسياسة ولكنى كنت مهتماً لدروس أخرى.

فى بعض الأحيان، فى أحيان نادرة ، نجحت فى تطبيق أهم دروس معلمى ، أى أن أكتب جماع النفس وأحكم العقل، ولكن أعظم عطاياء لى هى الشعر والموسيقى . قرأت عليه (الإلياذة) ملحمة (هو ميريوس) ولانتمت لى نسختها التى نطقها بنفسه طول حياتى . ظلت دائماً تحت وسادتى فى السلم والحرب . وبقيت فى ذهنى إحدى عباراته المحيرة عن أن شعر المأسى يحقق لنا التطهير بما يشيره من مشاعر الشفقة والخوف.

علمتني معنى العبارة تجربة الحياة ذاتها، وأنا أقرأ الشعر أو أسمع الموسيقى، كم مرة في حياتي أخذتني نشوة الشعر إلى عوالم تتجاوز كل ما هو محسوس ومرئي حتى شعرت بأن الحجب بيني وبين المجهول توشك أن تسقط، وأن روحي ستحلّق خارج جسدي لتخترق سلود العالم البارد والأصم إلى دنيا الأسرار الأزلية المتلائة بأتوار الحقائق الخالدة، كم مرة كنت أصحو في الليل، حتى وسط معارك الحروب التي لاتنقطع لكي أقرأ في الإلياذة واستنطق شاعرها أن يفجر في نفسي ذلك النبع الذي ارتوى منه هو ١ في مرات كثيرة كان النداء يستمر أياماً وإيالٍ بأكملها لا يتقطع فيها إنشاد الشعر وألحان الموسيقى في البلاط حتى يظن جنودي أن قائدهم قد جُنّ، لعلى كنت أشتاق بالفعل أن يحل بي الجنون، فوسط هذه النشوة كنت أنسى أرسطو وأذكر أمي التي علمتني أن أأخذاً لا يدخل مملكة الأسرار القدسية إلا في غمار نشوة تهتك المألوف لتلج إلى المجهول.

قلت لنفسى ولكن حتى ولو لم أبلغ ذلك فما أقل الأفراح في الدنيا ! حاولت أن أطيل هذا الفرح . أنتزعه من الدنيا لكي يدوم ، ولكن كان هناك دائماً إسكندر آخر هو الذي ينتزعني من الفرح . إسكندر الدم الذي يطرد إسكندر النغم . ظل هناك دائماً طوال عمري القصير إسكندر ضد إسكندر . لكن الانغماس تقتدر في ذهني أيضاً بلفائى بأمون في واحته . دخلت مصر فاتحاً واستقبلني المصريون كمحرر ومنقذ لأنى خلصتهم من احتلال الفرس الذين أدلهم وخربوا معابد آلهتهم .

غمرت كهناتهم بالهدايا وقدمت للآلهة القرابين فلحبتوني . لم أكن أعبد هذه الآلهة أو أعرفها ونفوت في البدء من صورها المخيفة . أى شبه بين صور أرباب اليونان بوجوههم البشرية الجميلة النبيلة وبين الوجوه الحيوانية المتجهمّة لهذه الآلهة المصرية التي تبتعث على الرعب ؟ لا مقارنة . أرباب اليونان تصحب العابد إلى نُرَى الأولمب مئوى الأرباب ليشارك الإنسان الآلهة السمو والفرح . أما آلهة

المصريين فأخافتنى وأوجت لى بأن الإنسان غريب عنها وأنه ضئيل فى دنيا تحكمها هذه الآلهة الخوفة. لكنها أيضا قذفت فى نفسى حيرة جديدة . خلقت إسكندر ثالثاً يتساءل أيهما الأصلح لحياة الإنسان على الأرض- البهجة أو الخوف؟ أيهما أدعى للاستقامة والخير؟ ولم أصل فى أعماقى إلى جواب لكنى حاولت قرء الجواب .

مع ذلك أبديت لهذه الآلهة كل الاحترام ، ولم يكن هذا كله نفاقا . كان أيضاً تقريباً من كبيرهم أمون الذى أملت أن ييوج لى بسر مولدى ومصيرى . سمعت منذ شبابى أن على من يطلب العلم أن يقصد مصر وأن «أفلاطون» معلم أستاذى أرسطو قال إن اليونانيين على كل ما يزهون به من علم وفلسفة هم مجرد أطفال إذا ما قورنوا بالمصريين، فهل يحقق وحي أمون أملى ؟ ذاع صيته فى اليونان منذ عهد بعيد حتى وجدوا بينه وبين زيوس كبير آلهتهم . وقيل إن كل نبوءات وحي أمون فى واحته تتحقق، فأتاه كثير من اليونانيين لاستشارته، ولكن هل كنت أنا أصدق ذلك؟ نعم .. إسكندر صدق وإسكندر أنكر وأملت فى معجزة على يد أمون تجعل الاثنين واحداً . وقتها كانا اثنين فقط .

وضعت أساس مدينتى الإسكندرية على شاطئ البحر ثم قررت أن أتخذ طريقى إلى الواحة. اضطربت الحاشية . خوفونى من الصحراء التى أملك جيش قمبيز الفارسى، وكنا وقتها فى عز الشتاء موسم العواصف . وسمعت تهامس الحاشية بأنى ذاهب إلى هناك لأحصل من الكهنة على لقب ابن الإله مع أن اليونانيين والمقدونيين يكرهون هذه العقائد الشرقية. غاية ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى عقيدتنا أن يصبح بطلاً مثل هرقل، أى «خالداً» ولكن دون مرتبة الآلهة، ما من إنسان تتبناه الآلهة ويصبح واحداً منها إلا فى مصر التى تؤله ملوكها. وقال رجال فى الحاشية هى نزوة أخرى من نزوات الإسكندر يريد أن

يتحدى بها من فشلوا قبله فى قطع هذه الصحراء المتناهية.
سمعت ذلك كله فلم أقل شيئاً ، وقدت حصانى على شاطئ البحر غرباً ، وخطر
لى أننى مثلما روضت هذا الحصان الأسود الجامح عندما كتبت صبيها ، بعد أن
عجز كل فرسان مقدونيا عن إخضاعه، فسوف أروض بالفعل هذه الصحراء .

يمعت جنوباً نحو الواحة ومعى قلة من الجند والأصدقاء . وفى الطريق
صادفتنا بالفعل كل المهالك . نفذ الماء المخزون فى أوعية جلدية بعد يومين من
رحلتنا ، تسرب فى الرمل أو تبخر فى الهواء . واستبد بالقافلة الهلع . لكن فجأة
نزلت أمطار من السماء فاعادوا ملء الأوعية وقال واحد من الجنود فى حماس هذه
عناية الآلهة تكلأ الإسكندر ، وهمس آخر بل هو موسم الأمطار ولا معجزة هناك.
فابتسمت لنفسى : أيهما على حق؟ ثم إن العاصفة العاتية هبت بعد ذلك وطوحت
الرياح والرمال ركبتنا شرقاً وغرباً ، وحين سكنت الريح وانجلت زوابع الرمال كنا
قد فقدنا الطريق وأنهكنا الإعياء ، فلم نعد نعرف أى اتجاه نسلك .

وقرأت بعد ذلك فى حياتى لمن كتب إن سرياً من الغريان هو الذى أنقذ القافلة
وأعادها إلى وجهتها . قالوا إن هذا السرب ظلّ يحلق أمامنا بالنهار ويدلنا نعيمه
بالليل حتى نهاية الرحلة . وكتب غيرهم يقولون بل ظهر أمام القافلة شعبان الكوبرا
المصرى المقدس وقادنا حتى واحة آمون .

وماذا لو كانت النجوم هى التى هدّت الركب؟ لكن الأحياء تفقّتهم أساطير
الغريان والشعبان ، ولم يختلف اليونان عن ذلك ، ولا اختلفت أنا رغم كل تماثيل
أرسطو، لكم تمنيت أن اختلف !

وصلت واحة آمون فى صباح مبكر بعد أسبوع وكانت شمس ذهبية كبيرة
تغمر معبد وحى الإله . رأيت موكب الحجاج السائرين على أقدامهم يصعد التل ،
لكنى وجهت حصانى فى وثبات سريعة إلى أعلى الهضبة فوصلت قبل الجميع .
خفق قلبى وأنا أنظر حولى . كل شيء جديد وغير مألوفاً لى . رأيت تحتى وسط

الصحراء بحراً أخضر من النخيل وشمساً كبيرة أخرى كشمس السماء بالضبط،
تيزغ من نبع أسفل المعبد وشموساً كثيرة أخرى تترجرج وسط البحيرات الزرقاء
التي تتخلل الرمال. وأمام مدخل المعبد المزين برسوم زاهية الألوان رأيت كاهنات
أمون، يحرك الهواء ثيابهن الشفافة فتتموج أجنحة بيضاء حول أجسادهن
الممشوقة الراقصة كئنهن على وشك أن يطلقن بعيداً وعالياً نحو تلك الشمس التي
يلوحن لها بالذراع ضارعة . كن يغنين غناء خافتاً لم أفهم كلماته ولكن أصواتهن
المتهدجة في ذلك الإنشاد لم ترن في أنفى كضراعة صلاة بل كمناجاة عشق .
عشق لمن ؟ للآلهة ؟ لأمون وحده ؟ لى أنا ؟

ترجلت عن حصانى وقلبي مازال يضرب في صدري لما أراه وأسمعه وكل ما
ينتظرني في هذا المكان ، لكنى تحركت مع ذلك بوقار ملك متوجهاً نحو الكاهن
الأكبر الذى برز من وسط الكاهنات المنشدات ثم تقدم يستقبلنى . كان حليق
الرأس تماماً ، يلبس هو أيضاً ثوباً سابغاً أبيض . انحنى أمامى طويلاً ثم مد
نحوى يده ورحب بى متكلماً باليونانية : إنه كان فى انتظار ابن الإله وسيد
العالمين.

أشرت للحاشية التي تبعتنى، فقدمت له الهدايا والقرايين ، تقبلها ثم قادنى
صوب مدخل المعبد وهمّ صحبى أن يدخلوا معى فوقفهم بإشارة من يده . لم يكن
مسموحاً لغيرى بالولوج إلى الحرم . تقدمنا معاً من باب قدس الأقداس فتوقف
الغناء والرقص فى الفناء الخارجى . حلّ فجأة صمت كثيف وهبت من داخل المعبد
سحابة بيضاء من بخور لم أتسم فى حياتى مثل شذاه . واجتاحتنى رهبة لم
أعرفها فى معارك الحروب التي واجهت فيها الموت.

دخلت حيث يجلس تمثال الإله على عرشه الذهبى ليعلم لكاهنه الوحي فلا
ينطق الكاهن عن هوى . وفى قدس الأقداس المعتم ووسط غيمة البخور جاء
الصوت عميقاً ، هادئاً ووطيئاً ، نافذاً عبر الجدران من لا مكان ومن كل مكان.

باح آمون أخيراً بما أراد هو أن أسمعه وترك لى أن أفهمه .

خرجت من المعبد بصحبة الكاهن من جديد فرفع يديه ليصمت الجميع ، خشيت أن يعلن شيئاً من وحى الإله أمام الجموع ، لكنه اكتفى بأن قال إن الآلهة اختارتنى فرعون مصر وإن إلههم (حورس) قد حل فى بنى منذ اللحظة طولاً ، وما إن أعلنها حتى راحت جموع الكهنة والكاهنات والحجيج من المصريين تهلل وتلوح فى حماس وتشنج وهى تهتف باسم الفرعون الجديد . تهذجت أصوات نساء ورجال ببيكاء الفرح .

التف حولى صحبى وجندى يستفهمون بعيونهم عما دار فى لقائى بالإله فاكتفيت بالابتسام . لكن «فيلوتاس» المحارب الشجاع وصديقى الحميم سألنى بما يشبه التأنيب إنن فأنت إله؟ وحين لم يسمع منى رداً غمغم وهو يتطلع حوله فى أسف «كنا سعداء بأن بطلاً فحسب هو الذى يقودنا إلى النصر!

فهمت مغزى كلامه وإن غطى عليه متاف الجموع الهادر الذى لاينقطع لحظة باسم الفرعون المحبوب ، باسمى أنا ، الإسكندر فرعون مصر الإله ، وسألت نفسى لحظتها عما فعله اليونان بحريتهم التى يفخرون بها ، لم يتوقفوا عن الانقسام والاختتال حتى كانت منهم تبيد بعضها بعضاً ، لولا أن وحدهم أبى فيليب أخيراً بقوة السيف تحت إمرة مقلونيا ، لكن ها هم المصريون - دامت دولتهم آلاف السنين مستقرة بسطوة الأرياب والفراعنة والكهنة ، بفضل الطغيان الذى يكره هؤلاء اليونان ، فلماذا لا أتعلم من مصر دروسى؟ ولم لا أحاول الجمع بينها وبين دروس أرسطو؟

كنت أفكر وأنا أنظر نحو «هيفايستون» أعز الأصدقاء . لم أر فى عينيه الصافيتين تأنيباً ولا تكنيباً . كان يصدق . ثم رجعت ببصرى إلى «فيلوتاس» الغاضب ، لايهم ، سأقتله بعد حين .

فيما بعد قلت للجميع إنى لن أبوح بشيء مما دار فى قدس الأقداس بين آمون

وبينى إلا لأمى «أوليمبياس» حين ألقاها . غير أن العمر انقضى قبل أن نلتقى
فمات معى سر اللقاء .

تريدين أن أبوح بالسرك أنت الآن أيتها المرأة التى تنادينى وتقلق روحى ؟
لكنك لست «أوليمبياس» !



منحتنى زيارة أمون فترة من سلام النفس الذى قضيت عمري كله أبحث عنه ،
،مزقاً بين صرامة أبى فيليب ، وشطحات أمى ، وحكمة أرسطو، ووجدت هذا
السلام فى الحرب. كنت قد طردت الفرس من الأناضول وسوريا وفلسطين ومصر.
هزمت ملكهم «داريوس» فى كل المعارك التى خاضها ضدى . لكنى بعد لقاء أمون
لم أواصل الحرب مع الفرس باعتبارهم أعداء أنافسهم على احتلال البلدان . لا ،
بل هى الآن حربى باعتبارى إلهاً للعدل أبسطه فى الكون. لم تعد معركة أخرى
مثلما ظن ملكهم المسكين، بل هى الحرب حتى النهاية . حرب لإنهاء كل الحروب ،
حرب الأخيار ضد الأشرار ليستتب على الأرض السلام إلى الأبد .

أعد داريوس نفسه جيداً خلال إقامتى فى مصر . جمع مما بقى من
إمبراطوريته جيشاً يفوق فى العدد جنودى عشر مرات . لم يفهم أبداً أن العدد
لايعنى شيئاً وهذا درس تعلمته من فيليب أبى : يمكن أن تحكم الناس بالقمع
والخوف لكن الخائفين لايمكن أن ينتصروا فى حرب . فى ساحة القتال يجب أن
يكونوا أحراراً، يجب أن يقهروا خوفهم بإرادتهم لا بأوامر قادتهم . تعلمت أن
الشجاعة ليست غريزة بل هى بالضبط قهر الخوف القابع فى كل نفس ، فضريت
لجنودى المثل . لا أصدر الأوامر بل أقف فى المقدمة فى كل المعارك مشهوراً سيفى،
أطعن وأتلقى الطعنات ويسيل الدم من كل مكان من جسدى لكنى واثق من
النصر. يعدي الإقدام والطعن والدم جنودى فيندفعون وراى النصر أو للموت
لايهم . عرفت كيف ألهم الجنود أن يسكروا بنشوة الحرب، فينسوا أنفسهم وهكذا
صنعت منهم جيشاً . ولم يفلح «داريوس» فى ذلك أبداً . مع أنى فى السلم كنت
أحكمهم بقبضة من حديد تفوق قبضته، قبضة فرعون إله .

مرة أخرى هزمت فى معركتين كبيرتين، ففر جنوده وهو من ورائهم ، بحث
رسلاً يعرض أن نقسم العالم معاً وأن يعطينى من كنوزه وثروات إمبراطوريته
المكسبة كل ما أطلب . ولكن لماذا أقبل نصف العالم وأنا أثق أنه كاملاً فى قبضة

يميني ؟ وكيف تغريني ثرواته التي ستكون في كل الأحوال غنيمة لي أوزعها على جنودي ؟ أضحكني أيضاً عرضه أن يزجني ابنته التي كانت أسيرة في معسكرى مع أمه ونساء أسرته منذ أول معاركى معه . رددت على عرضه بأن أطلقت سراح السبايا بمن فيهن أمه وأنزلتهن مكرمات في واحد من قصوره التي استوليت عليها في زحفى . غير أنه لم يفهم رسالتى وانتظرنى من جديد بجيش ضخم في عاصمة ملكه المنهار - «برسيبوليس» مجد الإمبراطورية وموطئ عرش ملك الملوك وصولجانه . للمرة الثالثة والأخيرة كانت هزيمته وفراره ليجمع جيشاً جديداً . لكنى أدركت كما أدرك جندى أن تلك هى نهاية الحرب مع الفرس ونهاية دولتهم . وكان عدلاً بعد ذلك أن أدمر تلك العاصمة وأن أحرقها . ألم يحرق الفرس أثينا الجميلة ذرة اليونان قبل قرنين من الزمان؟ لم أصغ لنصائح قواد جندى ورجال بلاطى الذين اعترضوا على تدمير «برسيبوليس» . سألونى لماذا صفحت عن المدن الفارسية الأخرى التي استوليت عليها ورممت مهابداً وكسبت قلوب سكانها ؟ لماذا أدمر العاصمة وقد أصبحت بكل قصورها وثرواتها ملكى ؟ تركتهم يتكلمون ثم رفعت شعلة قذفت بها قصر ملك الملوك وأشرت للجنود أن يفعلوا مثلى فتأججت النيران فى القصر حتى صار كرة من الدخان واللهب . أضخم من أى نار أخرى أشعلها الفرس لمعبودهم . ثم ماذا عن قربان أكبر ؟ ماذا عن العاصمة بأكملها قرباناً مشتعلأ؟

لم يكن ذلك عدل إله وإنما انتقام إنسان تسكنه الكراهية ، كان أزيز الحرائق وفحيحها يغمرنى بنشوة كنشوة الخمر ، فارتعت من نفسى . وتسألت من جديد: من أكون حقاً ؟ من أنا ؟ وسأسال هذا السؤال كثيراً فيما بعد: لماذا أفعل الشيء ونقيضه ؟

غير أنى لم أدمر مدناً أخرى بعد «برسيبوليس» ، بل شيدت مدناً جديدة . إسكندريات أخرى . عفوت عن القادة المهزومين فى الأرض التي حررتها وجعلتهم

حكاماً على الولايات التي كانت تحت سلطانهم بشرط أن يدينوا لى بالولاء
ويصبحوا حكام مقاطعات من إمبراطوريتى المقدونية . ألقت بين قلوبهم ورمعت
معابد آلهتهم ، غير أنى أقمت معابد لإله جديد يجب أن يعرفوه جيداً ويقدموا له
القرابين أيضاً، اسمه الإله الإسكندر بن أمون .

لم أهتم بتحمل جندى من اليونان والمقدونيين، عليهم أيضاً أن يعبدوا الإله
الذى قادهم إلى نصر لم يحرزه من قبل بشر وإن يحلم به من بعده إنسان . كيف
كان ذلك الفتح ممكناً إلا لإله ؟

دانت لى الأرض . ضمنت إمبراطورية فارس كلها إلى مقدونيا ثم انطلقت
بجيشى فغزت كل الأرض شرقاً . اجتحت الوديان والصحارى واخترقت الجبال
الوعرة التى هلك كل من حاول عبورها حتى بلغت قارة الهند نفسها فأخضعتها .
غزت آسيا حتى أقصى برها وبحرها وتحققت نبوءة أوليمبياس وأمون لى بائى
المنتصر أينما حلت ، فأصبح على الآن أن أعود لأفتح الغرب بعد أن فتحت
الشرق .

لكن ليس قبل أن أنجح فيما لم ينجح فيه قبلى إنسان ولا إله ! سأصنع عالماً
جديداً على غير مثال . عالم تتحد فيه أجناس البشر ، وتتكلم لغة واحدة هى
اليونانية أرقى اللغات ، لغة الإلياذة، وتتزاوج الشعوب فيما بينها فلا يبقى إلا
جنس واحد يعمر الأرض .

ألحقت الفرس الذين هزمتهم بجيشى وحاولت المؤاخاة بينهم وبين جندى . غير
أن المقدونيين واليونانيين اشعلوا من اعتبار أعداء الأمس، البرابرة، أنداداً لهم
فى رفقة السلاح، فلم يثنى ذلك عن خطتى . تزوجت من ابنة داريوس التى كانت
أسيرتى منذ بدأت الحرب . وفى ليلة عرسى عليها زوجت ثمانين من قادة جيشى
من نبيلات فارسيات ، وشجعت جندى من المقدونيين على أن يفعلوا مثلى، فكانت
آلاف من هذه الزوجات .

حلمت أن أملاً الأرض بنسل جديد من سلالة الأوروبيين والآسيويين فلا تكون بينهم بعد ذلك ضغينة ولا حروب . أراد الإسكندر أن يحقق ما عجز عنه غيره من الآلهة - أن يخلق عالماً لا يكون فيه أشقر وأسمر ولا فرق فيه بين من يعبد زيوس أو نار الفرس أو آلهة الهند .

وتساءل إسكندر: هل كان لابد من أجل هذا الحلم أن أخوض بحراً من النماء،
دماء المهزومين ودماء جنودى ؟

ورد إسكندر آخر. نعم، مادام ذلك فى النهاية من أجل خيرهم. لا يفهم أحد
حكمة الآلهة ، فلماذا يتعين أن يفهموا حكمتى أنا ؟

وتهايمست الحاشية أن الإسكندر أصبح طاغية مثل طغاة الشرق . ليس ثياب
الفرس الأعاجم ويجلس على عرش «داريوس» ممسكاً بصولجانه . لعله نسى حرية
اليونانيين فلم يعد يقبل أن يناقشه أحد ويريد أن يجعل العالم كله رعية له .

وأراد بعض جنودى العودة إلى الديار بعد أن انتهت مهمتنا فى آسيا ،
فسرحت من الجيش من أراد العودة إلى اليونان، وبقي معى الخلاء من القادة
وعلى رأسهم «هيفايستون» صديق عمرى وجنود قومي المقدونيين الذين توحلوا
بجيش لم يهزم أبداً.

لم يعد بوسعهم بعد أن أذعنوا خمر النصر أن يتراجعوا حتى لو حدثتهم
أنفسهم بالاستجابة لنداء العقل أو الأسرة أو الأبناء .

ومع ذلك لم تتوقف المؤامرات على حياتى ممن بقى من جندى ، وأثار ذلك
غضبى وحزنى فازدنت إقبلاً على الشراب. أقمت ولائم وسهرات تراق فيها دنان
التبذير بون حساب . لم يكن أحد يجاربنى فى الشراب ، ولعلى كنت أشرب أكثر
من غيرى لأنى أكثر حاجة من الجميع إلى الضمر التى تجمع فى غيبوبتها شظايا
الإسكندر المبعثرة لتجعل منه واحداً. أو لعلها على العكس تماماً كنت تنتثر تلك
الشظايا فأرى أشلائى وأنطق بما لا أبوح به فى صحوى .

عندها لم أتردد فى قتل من يريد إفاقتى لأصبح الإسكندر الذى يريده هو.
وأى من أتامى يفوق ما فعلته فى إحدى تلك الولائم بالجندى الشجاع الذى
أنقذ حياتى؟ «كليتوس» الذى ألقى بنفسه فوقى عندما سقطت من فوق حصانى
جريحاً فى بدء معاركى مع الفرس وتلقى فى جسده السهام بدلاً منى . لكن
الإسكندر فى تلك الولاية كان يصفى حساباً مع فيليب أبيه الأرضى .

كنت أفخر أمام جنودى بأن كل حروب فيليب وانتصاراته فى أرض اليونان
لاتساوى شيئاً بحانب ما حققته أنا فى آسيا . بل إن فيليب ما كان له أن يحرز
انتصاراته اليونانية لو لم أكن أنا القائد الحقيقى لجيوشه فى الحروب التى
خاضها . لماذا تدخل «كليتوس» فى هذا الشأن بينى وبين فيليب ؟ جرت على القول
إنه لولا انتصارات أبى فى أرض اليونان لما فعلت أنا أى شئ ، وأن فيليب كان
يحارب هناك رجالاً بحق بينما حاربت أنا نساء فى آسيا . أنسيت ساعتها كل
شئ . لم أر أمامى كليتوس الذى أدين له بحياتى ، بل عدواً ينتصر لفيليب كى
يهزم الإسكندر . ثم إنه ارتكب الخطيئة العظمى - أنكر بنوتى للإله الأعظم ! قال
متهمكاً إن مصارحته هذه لى أصدق من نبوءات أبى. فى جنون اختلطت رمحاً
من أحد حراسى ثم طعنته فى جنبه وأنا أصرخ فى وجهه فليرجل عنى إذن ليلقى
فيليب الذى يحبه!

غير أن نافورة الدم التى انبثقت من جرحه أمام عيني ولطختنى أرجعت
الإسكندر الذى بعثرت الخمر كثيراً من الناس والآلهة ليصبح إسكندر واحداً ..
إسكندر ضائعاً ومرعوباً . ظلت لحظة أحرق فى جثة كليتوس تنزف دمه والرمح
مرشوق فيها . أفكر هذا صديقى .. نديم لهوى وفى القتال أشجع رجالى .. لولاه
لما كنت الآن حياً .. هو الذى يرقد الآن قتيلًا .. صرعته يدي .. وبصرخة باكية
انتزعت الرمح من جسده ووجهته نحو صدرى .

لو أن يدي المخمورة بلغت قلبى لحظتها بالطعنة التى أردتها لوغرت على نفسى

أياماً وسنين لم تصف سوى المزيد من الحيرة . غير أن الحراس كانوا أسرع منى فانتزعوا من يدي الرمح وسقطت على الأرض برغمى . قضيت الليل كله ممدداً إلى جوار الجثة أبكى كليتوس وأبكى مرتاعاً من الوحش الذى يسكن تحت جلدى الإلهى .

لم يهينى أمون الحق فى قرابين من البشر ، وإنما كان ذلك من وحى أمى أوليمبياس التى لم تتورع أبداً عن القتل ولم تعرف الندم . أما أنا فعندما جاء الحراس ليأخذوا الجثمان من خيمتى، فقد أمرت ألا يدخل على بعد ذلك أحد. تمددت مكان الجثمان ثلاثة أيام لم أذق فيها الطعام ولم أبرح مكانى . ظلت مثبّتا نظرى فى السماء أضرع إلى أمون والآلهة أن يجمعوا أشلائى مرة واحدة .. وأو فى جثّة .

أدرك حراسى وحاشيتى أنى أسلمت نفسى للموت، فاقتحموا خيمتى وراحوا يتوسلون إلى أن أنهض وأعيش وطاقعتهم لأنى كنت أريد أن أطاوعهم . لأن لحظة الاشتواء الحقيقى للموت لم تكن قد حانت بعد .

وكان من بينهم فى ذلك اليوم كاليستيس زميل دراستى على يد أرسطو وابن أخت معلمى الفيلسوف . كان مؤرخ حملاتى الذى خلد أمجادى الحربية . تضرع إلى أن أعيش ، لا لنفسى وإنما لمجد مقدونيا كى لا يضيع .

لم يدر ساعتها أنه يطلب الحياة لجلاده . توسل إلى أن أعيش فعشت وإنما لكى أقتله بعد شهر . قبضوا عليه متهماً فى مؤامرة لاغتيالى ودافع عن نفسه دفاعاً بليفاً، كعادته وكما تعلم من خاله، لكى ينقى عن نفسه التهمة. لكن بلاغته هى التى أكدت شكوكى . فالحقيقة بسيطة لا تحتاج إلى زخرفة الكلام . وعليه فقد أمرت بقتله مع بقية المتهمين بعد تعذيبهم . ثم إنى ندمت من جديد بعد موته وسجنت نفسى مرة أخرى أبكىه وأبكى نفسى. وخطر لى فى وحدتى أنى حين قتلته كنت أقتل أيضاً، إلى الأبد، أرسطو فى داخلى وصدى دروسه عن السعادة

التي تأتي من الحكمة والتعقل .

فكرت أن كل تجربتي في الحياة مضت على عكس ما علمني إياه . هو يريد دولة وسطاً لا هي بالكبيرة ولا بالصغيرة ليسهل حكمها ، أما أنا فبنيت إمبراطورية بامتداد العالم . وكان يريد حكومة وسطاً لا هي من الأثرياء ولا من العامة وإنما من أوساط الناس الحكماء فكيف كان سيرى حكم البطل الإله الذي يوحد العالم كله تحت سلطانه ؟ ويريد السعادة الوسط بين الإفراط والتفريط والتي يتحكم العقل في معرفة حدودها . وكنت أتسائل في أى مكان من الدنيا يا معلمى القديم يمكن أن توجد هذه الحياة المحكمة إلا في حديقة أكليبيدتك تستمتع بالحديث عنها مع تلاميذك وأنتم تمشون في ظلال الأشجار جيئة وذهاباً؟ كل تلك الدروس اكتسحتها زيارتي لأمون وإقائى بكهنة المصريين المتحشّين باسم الأرياب.

هناك تعلمت أن الخوف لا الحكمة هو أساس الملك. تعلمت أنه لا بد من إخافة العامة دائماً بالعقاب والعذاب على الأرض وفي السماء لكي يعرفوا الطاعة والاستقامة ، تعلمت أنه يجب على الحاكم ألا يسمح للعامة بالحرية أو بالمتعة بل عليه أن يعلمهم أن يجدوا المتعة في الخوف . يجب أن يعبدوني في الخوف وبالخوف . هذا هو أثمن درس تعلمته من أمون والمصريين . طبّقته فنجح ، لا في مصر وحدها بل في كل مكان. كنت أسمع صدى هتاف المصريين الجنونى المتهدج بالبكاء لفرعونهم الإسكندر في هتافات أخرى في أرجاء آسيا للإله الفاتح الجديد. ووجدت بالطبع دائماً أولئك القلائل من المتمردين الذين يطمون بالحرية ، هؤلاء غالباً ما كان يتكفل بهم العامة أنفسهم قبل أن أتكفل بهم أنا. يكشفون مؤامراتهم ويفرحون إسقوطهم لأن أولئك الحاليين يريدون أن يسلبوا من العامة نعمة الطمأنينة في الخوف .

لم أنس أبداً واحداً من هؤلاء المتمردين، غلاماً في السادسة عشرة من عمره،

واحداً من أبناء النبلاء المقدونيين الذين يحرسون خيمتى . ثم أخرج من توقعت
خياتتهم لكنهم فعلوها . وشى بهم واحد منهم بأنهم يتآمرون على حياتى فأمرت
بالقبض على الجميع .

وجرى زعيمهم الصبى أن يقف فى وجهى ويتحدانى وأنا أحقق معه .
قال: «تسأل كائك لاتعرف ! نعم ، تأمرنا عليك لأنك لم تعد تتصرف كملك مع
رعاياه الذين ولدوا أحراراً ، بل كطاغية مع عبيده . تريد من المقدونيين أن يركعوا
أمامك ويعبدوك كإله وتتكر لأبيك فيليب نفسه فهل يدعشك أننا لانهتمل غرورك؟»
كان ذلك الطفل سيعلمنى كيف لصبى مثله أن يدرك خطئى الإلهية لمجد
مقدونيا ولسلام العالم؟ ربما اعتقد أنه سيؤثر فى نفسى حين قال: خذنا الآن إلى
ساحة الإعدام لنكسب بموتنا ما كنا نسعى إلى كسبه بموتك .
حكمت بالطبع بقتله هو وبقية زملائه المتآمرين بتعذيبهم على عجلة عصر
العظام وتكسيروها .

ثم جاء كالعادة بعد الإعدام العزلة والندم . اختفى الإسكندر الإمبراطور الإله
وظهر إسكندر مسكين .

لم تفارقنى فى عزلتى صورة ذلك الغلام الشجاع . أدركت أنه إنما بالحق
نطق . نعم بالطبع أنا طاغية مهما سقت لطيفائى الأسباب . حكمت الرعية بالخوف
فأفرغ الخوف الطاعة كما أردت لكنه أفرغ معها الخيانة . خائنى أقرب الناس إلى
وتآمروا على مرة بعد مرة . لم يجد أى منهم شجاعة ذلك الصبى ليواجهنى بما
قاله . ربما لأنهم لم يخفونوا مثله من أجل مبدأ وإنما طمعاً فى أن يرثوا سلطانى ،
ولكن لماذا خان هذا الصبى زميله وشى به وبقية زملائه وهو يعرف أنه يدفع بهم
إلى التعذيب والموت ، هل هو أيضاً الخوف أو الطمع ؟

فكرت طويلاً فلم أعرف أين نقطة البدء فى سلسلة الطغيان والخوف والخيانة .
أيها يلد الآخر؟ وهل كنت أنا بالفعل صانعها أو واحداً من ضحاياها؟

فى العزلة التى رافقتنى فيها صورة الغلام القليل اختفت صور الإسكندر
الكثيرة ولم يبق غير إسكندر واحد يدرك أنه بلغ نهاية طريق . جريت كل شىء -
النصر والمجد اللذين لم يواتيا أحداً قبلى ، ولذة الحكم والسلطان، أعفو كإله وأقتل
كإله، وجريت نشوة الشعر والموسيقى ، ومتعة النساء والخمر، فلماذا لم أصبح
سعيداً؟

حاولت فيمابقى من عمر أن أعيش سعادة الإنسان لا سعادة الآلهة . عرفت
فى حياتى نساء وأحبيتهن ، وكانت روكسانا زوجتى الفارسية أقربهن إلى قلبى .
لم أمش معها الحب الخارق الذى يضحى الإنسان من أجله بالعالم كلها مثل حب
باريس وهيلينا فى الإلياذة الذى أشعل حرب طروادة، لكن حبى لروكسانا كان
هادئاً وعميقاً . وعشت أيضاً الصداقة الحقة مع هيفايستون وكانت عزائى فيما
قدر لى من العمر. صداقة كانت تعنى أن كلينا واحد . ذات مرة أخطأت أم
داريوس بعد أن أسرناها وخرت راکمة أمامه، تتضرع إليه أن يبقى على حياتها
لظنها أنه هو الملك ، وعندما أشاروا لها نحوى لتوجه كلامها قلت لها ألا تجزع
فهو أيضاً الإسكندر.

ولم أكن أكنب، كنت أشعر بالفعل أن هيفايستون هو الإسكندر الأفضل وسط
الأشخاص الكثيرة التى تعيش داخلى. كان يمكن أن يعجب أرسطو ، عاش هادئاً
معتدلاً ولم يكن يشور أو يعرف الجنون الذى ظل يطاردنى العمر كله . غير أنه
استطاع أن يفهم هذا الجنون وأن يصفح . كنت أعرف عندما أنظر إلى عينيه أنه
يفهم كل أفعالى المتناقضة ويفهم الحيرة التى تدفعنى إليها والتى لم أفهمها أنا
أبداً.

لكنه رحل قبل الأوان . انتابه المرض عندما بدأت مسيرة العودة من آسيا غرباً
وتوقف ركبنا فى مدينة بابل، وهناك قضى نحبه.

تيفقت مع موته أن الإسكندر الإنسان قد رحل ، وأن الشظايا الأخرى التى
ترزح فى داخلى ويرعبنى وجودها تنتظر دورها . وقررت ألا أعيش مع هذه
الكائنات المشوهة بعد أن أخذ هيفا يستون مع السلام الذى كان يعدينى به
فتتوحد تلك الأشلاء بشراً سوياً. حاولت أن يكون الأمر بيدي فأردت إغراق نفسى

فى النهر ، لكن روكسانا الوفية أنقذتنى .

وجدت نفسى وحيداً تماماً ، لكن كان عليّ وأنا فى بابل أن أشرف على آخر حملاتى قبل الرجعة إلى أوروبا . اعترفت أن أستكشف آخر أرض مجهولة فى آسيا ، تلك الصحراء الشاسعة التى يسكنها العرب . جهزت الأسطول الذى سيكتشف جزيرتهم ، لكن هاجساً فى نفسى حدثنى بأننى لن أنهى حتى هذه المهمة الأخيرة فى آسيا . كنت أتأمل بعد موت هيفايستون معنى الأشياء التى رسمت حياتى .

ضمنى آمون إلى زمرة الآلهة الخالدة وأمنت بذلك فتصرفت كإله وأردت إعادة خلق الأرض والبشر ، أنكر أحياناً دروس أرسطو فيجتاهنى الشك فى نفسى وفيما أفعل . فالآلهة الخالدة لاتنزع جروحها الدم ولا تعرف الألم ولا تقدم على الانتحار ندماً أو يأساً . وقد حاولت أنا أن أنهى حياتى مرتين على الأقل .

ولعل تلك كانت المرة الثالثة ، عندما أسرفت فى الشراب فى وائمة أقامها صاحب مهذار فى بابل . ظلّ يحثنى على أن أواصل الشرب حتى بعد أن استبد بى الإعياء والمرض ، لماذا طاويعته لو لم أكن أريد فى أعماقى أن أنتهى ؟ فمن بعد الائمة أصابتنى الحمى التى قضت على حياتى فى أيام .

استغرقت كل مغامرتى فى آسيا سبع سنين وكل حياتى على الأرض ثلاثاً وثلاثين سنة ، لم أعرف فيها أبداً طمأنينة النفس .

فما الذى فهمته أنت يا من تتأديننى لتوقظى روحى ؟ هل تسمعيننى ؟ وهل ازددت علماً ؟

هنا ، فى عالم الموت أعرف عن يقين أنى لست إلهاً . خلود الآلهة لا يكون فى عماء الظلمة والعجز . أثق الآن أنى لم أفهم حى آمون إن كان وحيه صدقاً وإن كان آمون إلهاً . فلماذا أبليت بهذه النعمة ؟

الشيء الوحيد الذى صدقت فيه نبوءات كهنة المصريين هى نبوتهم عما بعد الموت . عرفت منهم أن الروح تحوم حول الجسد وتعيش بعد رحيله أربعين يوماً . ترى كل ما كانت تراه قبل أن تفارق صاحبها . وبالفعل كان هناك إسكندر آخر ، إسكندر أخير ، يزفر زفرة كتنهيدة ارتياح من زوال تعب لا يطاق وهو يرتفع بخفة ،

مثل ريشة فى الفضاء ليرقب نفسه ، يرقب جسده المسجى ميتاً .
وما رآته روحى بعدها جعلنى لا أسف كثيراً على فراق الدنيا .
نسوا جثمانى على سرير الموت فى القصر سبعة أيام كاملة ظل فيها خلصائى
وقادة جندى يتجادلون حول من يرث ملكى . استبعدهوا الجين الذى كانت تحمله
روكسانا وولداً آخر لى قالوا إنه ابن غير شرعى فلا يحق له أن يرث عرشاً . ولم
تكن كل الحجج إلا وسيلة للوصول إلى ما يسعى إليه الجميع نون أن ييوحوا به .
أخيراً عينوا أخى غير الشقيق نصف الأبله ملكاً لى يقتسم قادة جيشى
الإمبراطورية فيما بينهم .

بعدها فقط تذكروا الإسكندر فحنطونى وطيبونى . وقرروا أن يبنوا عربة
تنقلنى إلى واحة آمون التى أوصيت بها مكاناً لدفنى . وما كان لى أن أرى تلك
العربة الأعجوبة التى سمعتهم يسهبون فى وصفها وأنها معبد ضخم على جانبيه
التمائيل والصور ويضم رفاتى فى نعش من ذهب .
ورأيت أيضاً من بكائى .

بكتنى روكسانا وغيرها من نساءى . لكن الوحيدة التى هدها الحزن هى أم
«داريوس» ألد خصومى ، أسيرتى منذ سنين والتى كثيراً ما أمنتها فى لحظات
غضبى . لم تذكر بعد الموت إسماعلى لها وإنما تذكرت فقط أنى عفوت عنها حين
كنت قادراً على قتلها وأنى أحببتها بالفعل وقلت لها ذات مرة إنها أمى الثانية .
هى وحدها التى بكتنى حتى الموت ، وحدها التى قالت إنها لاتستطيع الحياة
بعدي ، فامتنعت عن الطعام والشراب حتى ماتت بعدي بخمسة أيام حين كان
أقرب صحبى يتصارعون على ملكى .

كيف فاتتلى طول حياتى أن أدرك عمق ذلك الحب؟ وما الذى فاتتلى فى الدنيا
غيره؟

كانت روحى تراها وترافقها وتصرخ لتحديثها ولكن نون صوت .
كانت تصرخ لها ألا تموت من أجلى ، لأنى فى الواقع لا أستحق .



القسم الثاني

٩ - محمود

أزمتى ؟ تسألنى كاثرين عن أزمتى ؟ أسأل أنا نفسى ؟
ها هى أزمتى . فى لحظة واحدة بانت أزمة محمود عبدالظاهر الحقيقية .
فى ثوان معدودة سقطت صورة ماض كاذب رسمته لنفسى وسقطت معها كل
أفكارى المخافة عن الحياة والموت .
أتباهى أمام نفسى بماض بطولى وأتعمد نسيان لحظة الخزي . أعتبر نفسى
فى الشرطة مظلوماً وشهيداً ولعلى أسوأ الجميع . الضابط المتعبد ! المغضوب
عليه بسبب ماضيه الوطنى أيام الثورة ! أعجبنى الدور فصدقت نفسى . لعل
تصدت أيضاً أن أنقل هذه الأسطورة لكاثرين من أول أيام علاقتنا وأحاديثنا
العاطفية المتنزجة بالشجن عما فعله الإنجليز بأيرلندا ومصر وعما أصابنى أنا
بالذات من الإنجليز .

لكن تعال الآن ! انتهى وقت الخداع . ما الذى فعلته أنا بالضبط فى الثورة ؟
كنت أجزى من شاطئ البحر إلى المستشفى لأنقل الجرحى والقتلى ؟ رجال من
أبناء البلد يلبسون الجلابيب ، لا الزى العسكرى ، ضعدوا إلى الحصون وأطلقوا
المدافع مع الطوبجية ، حملوا على أكتافهم الجرحى والقتلى من الجنود ومن
إخوانهم الذين سقطوا فى القتال لينقلوهم إلى العربات التى كان دورك أن تجرى
أمامها . نساء من الإسكندرية أيضاً فعلمن ذلك وصعدن إلى الطوابى وجرحن وام
يعتبرن أنفسهن بطلات ولا شهيدات . عشن فى صمت ومتن فى صمت . فما الذى
فعلته أنت بالضبط ؟

أطلقت النار على البدو بعد أن أطلقوا هم عليك النار ؟ ما الذى كان يمكن لى

إنسان آخر أن يفعله غير ذلك ليدافع عن نفسه ؟ أصابتك الحرب التي مات فيها الآلاف برصاصة في كتفك لم تقصر على حياتك ولا هددتك بالموت ؟ لم تأتك الرصاصة حتى وأنت تحارب العدو الذي يغزو بلدك . بل هي رصاصة مثل جرح حادثة عابرة في الطريق ، ولكنك عشت عمرك تعتبر جرحها وساماً تحت الجلد وشارة مجد .. الآن انتهى ذلك كله فما الذي بقي من صورتك ؟

بقيت خيانة طلعت زميلك وصديقك القديم، التي ظلت أيضاً تحملها في داخلك شارة على أن العالم خذلك وخائنك . يومها استدعيت أمام قومسيون التحقيق في النظارة ، وهم يحقون مع الضباط المتهمين بأنهم خدموا الثورة أو تعاطفوا مع الثوار . وجدوا ضدك تلك الشكوى القديمة من المأمور الإيطالي ففتحوا التحقيق من جديد .

فرحت حين رأيت طلعت في القومسيون . أردت أن أسأله عن صحته وعن حالة جروحه لكني اكتفيت بالابتسام وهز رأسي محبباً فhez رأسه أيضاً لكنه حول نظره عني . ثم بدأ رئيس القومسيون الشركسي تحقيقه معي فوجه إلى أسئلة لم أفهمها ووجدتها مضحكة:

هل حصل أمامك كسر اللوحة المصور فيها الحضرة الخديوية أمام قرة قول اللبان ؟ لا . لم يحدث .

وهل رأيت أثناء حريق الاسكندرية أفراداً من الجهادية يوزعون نبايات على الأمالى ويحرضونهم على كسر المحلات ونهبها ؟ لا . بل حدث العكس كما ذكرت في التحقيق الأول . رأيت جنود الجهادية يقبضون على من ينهبون المحلات ويعدمونهم .

هل يفهم من هذه الإفادة أنني أدافع عن أفعال العصاة في الإسكندرية ؟ - لا . تركنى رئيس القومسيون والتفت إلى طلعت ، يقرأ عليه تقرير المأمور الإيطالي في الإسكندرية ويسأله عن شهادته ، فأخبرنى ما قاله .

أيد أمامى بدون أى تردد كل كلمة كتبها المأمور : أنا الذى بدأت بإطلاق النار على العريان دون سبب وحاول هو أن يعننى . أصيب بالرصاص بسبب تهورى فى استفزاز البلى ولكنه لا يذكر أننى زرته بعد إصابته فى المستشفى . وكان هذا كافياً ليؤيد اتهام المأمور لى بالتغيب عن العمل دون عذر أثناء الحريق . وعندما سأله المحقق إن كان قد سمع ما يدل على تأييدى للعصاة العرابيين أراد أن يبدو صادقاً : لا- لم يسمع منى ما يدل على موافقتى على أفعال العصاة ولكنه أيضاً لم يسمع منى ما يدل على تأييدى للحضرة الخديوية ! لم أصدق لحظتها أنه يقول ذلك كله فى مواجهتى . قلت لنفسى مهما يكن فإن للكذب حدوداً . ليس وهو ينظر فى عينى ! لكنه فعلها وصدقوا كلامه وكذبوا كل ما قلته فى التحقيق الأول ، أدركت أنه عقد صفقة مع المأمور الإيطالى ومع رؤسائه فى الإسكندرية .

لا أستطيع أن أغفر له ولم أفهم سر انقلابه عليّ إلا بعد أن شرحه لى اليوزباشى سعيد فيما بعد همساً وسراً . ولكنى أفكر الآن حتى ولو لم أغفر له فلماذا ألومه ؟ كل إنسان أيامها كان يبحث عما ينقذ به نفسه من السجن أو الطرد من العمل ، خائن لكنه واضح مع نفسه . كذب عني ولكنه لم يكذب على نفسه ، كأن كل حماسه للثورة أيام الاسكندرية كان مجرد نزوة . وحماسى أنا أيضاً وحماس البلد كله - مركنزة طيش عابرة أفقنا من رعوتها بالهزيمة . فى أى شئ أفضل أنا طلعت ؟ لماذا أتعمد نسيان لحظة الخزي والخيانة ؟ هما إجابتان قصيرتان فى تحقيق القومسيون أنفيهما من ذاكرتى باستمرار ولكنهما تقبعان داخلى كالجرم :

سؤال : هل كنت تؤيد أحمد عرابى وزمرته؟

جواب : بل كنت من الساخطين على أفعال البغاة .

سؤال : ما الذى علمته عما قام به سعادة محافظ الثغر عمر باشا لطفى أثناء

فتنة ١١ يونيو ؟

جواب : علمت أن سعادته أمر بتحريك بلوكات الشرطة لقمع الفتنة ولكن أعوان العصاة لم يتفقدوا أمره ، غير أنني أسأت فهم كلام البوعن أوامر سعادته لأنني أجهل لهجتهم .

اليوزياشي سعيد هو الذي أوحى إلى بهذه الإجابات . هو نفسه لم يدخل أي لجنة تحقيق . حماه حرصه الذي جعله يلزم الصمت دائماً ويتحرك في حذر حتى وهو يخدم الثوار . كان ينصحنى دائماً أيامها ألا أتكلم . يقول لي : انتبه إلى أن المخبرين في المحروسة أكثر من سكانها .

لكنه كان يعرف أنني أعرف ماضيه أيام الثورة ، وكان يريد أيضاً أن يحميني فأتلح إلى نقطة الخطر في أقوالى في التحقيق الأول الذي أجراه بنفسه ، وهى اتهام عمر باشا بتجنيد العريان لتنفيذ المذبحة . نصحنى بأن أسحب هذا الاتهام . قال لي عمر باشا كما ترى هو الآن ناظر الجهادية نفسها وثوار الأمس أصبح اسمهم العصاة زدت أنا من عندي في التحقيق فوصفتهم بالبقاة !

قال سعيد : نحن حفظنا التحقيق الأول ، والمصادفة يمكن أن تخدمك فتحفظ النظارة هذا التحقيق أيضاً ، وبعد قليل يعدمون كل أوراقه . ربما يهمهم ألا يبقى لاتهام عمر باشا أي أثر في أوراق رسمية .

خدمتني المصادفة بالفعل وأبقوا علي في العمل بعد أن خصموا مبلغاً من راتبى ووجهوا إلى اللوم . وكان الثمن بسيطاً - أن أنكر الحقيقة ، أن أخون لى أحافظ على جلدى . وقبلت أنا أيضاً الصفقة .

لكن كان علي بعدما أن أقبل وضعى الجديد في الشرطة كمذنب تم العفو عنه ويبقى تحت المراقبة . جمدوا ترقيةأتى وعهدوا إلي بمهمات حراسة منشآت ومراقبة وفود في رحلات وأعمال كتابية لا أهمية لها ، وسبقنى في الترقيات بكثير ، طلعت الذى اختار البقاء فى الاسكتسرية أو أختيرت له . لكن هذا الاضطهاد خدمنى .

بالتدريج كَوْنَتْ لنفسى صورة الضحية المنسى صاحب القضية .
قضيت بعد التحقيق شهوراً من التقزز من نفسى . كنت أشرب خلالها الخمر
كمَن يسعى إلى الموت ، ثم جاءت نعمة التسيان فأزحت من ذاكرتى خزي الجبن
والخيانة . عمر بأكمله ومعى هو أن أطرد الذكرى كلما أطلت وأن أنفيها .
لكنها فى هذه المرة ليست ذكرى بل حقيقة .

نعم ، رأيت الحجر ينقض على الصبى فاندفعت مع إبراهيم لأنقذ محمود
الصغير ، لكن فى اللحظة الأخيرة ، فى الثوانى الأخيرة حين رأيت أن الحجر
الكبير سيصيبنا معاً توقفت . تجمدت خائفاً فى مكانى . كنت أنا الأقرب إليه لكن
إبراهيم تجاوزنى بقفزة واحدة واندفع يحتضن الصبى ويدفعه بعيداً ويرتمى فوقه .
أفقت أنا فارتيمت بدورى فوق إبراهيم لكن بعد فوات الأوان . بعد أن ضمنت
حياتى واطمأنتت عليها وبعد أن هشم الحجر ساق إبراهيم .

نجا محمود الصغير لم يصبه خدش ، لكن فى تلك اللحظة كان إبراهيم يصرخ
وكاثرين من بعيد تصرخ وزحام شديد وصياح حولنا من الأولاد والكبار . رأيت
الدم يغمر سروال إبراهيم الممزق فحملته بحرص ومددته على الأرض ولم غزير
يتفجر من ساقه التى شقتها شظية حجر كسكين . كان عقلى مشلولاً تماماً لكنى
أتحرك كما لو كان هناك من يملى على ما أفعله . ناوالتنى كاثرين منبئلاً كبيراً
ربطت به الجرح وإبراهيم يتلوه بألم ويشكرنى وسط تلثماته . لكن حين حاولت أن
أوقفه على قنميه، تحولت تلثماته إلى صرخات ألم مكتومة ودموع تظفر من عينيه
بالرغم منه .

قضيت أياماً بأكملها تقريباً وأنا أقف إلى جوار فراش إبراهيم . عالجتنا
الجرح بالمطهرات والضمادات الموجودة لدى الجندى المكلف بالتمريض فى القسم .
لكن ساق إبراهيم ظلت تتورم باستمرار وأصبحت آلامه لا تحتمل مع الحمى التى
أصابته قديماً يهدى . ينهض بجذعه ويقول إنه يرى الكواكب لكنه سيخنقها بيديه

قبل أن تهجم على زهران وعلى درويش وسيشكو حضرة الضابط عبدالرحمن
لربنا لأنه يرفض أن يعطيه إجازة .. وحاسب .. حاسب يا سعادة الأمور من
التعابين على الحائط ثم يقع بصره عليّ، فيصرخ أنه لا يريد أن يموت غريباً وأن
علينا أن نعيده لينام إلى جوار قبر أبيه وأمه وأولاده .

كنت أراقبه في عجز مدرّكاً أن كل تلك الآلام كان يجب أن تصيبني أنا لو أني
تقدمت بدلاً من أن أترجع . لكني لا أملك الآن شيئاً له غير أن ألزمه لا أفارقه .
أحياناً كان يفيق ويتعرف على فيعتذر لسعادتي عن التعب الذي يسببه لي لكنه
يرجوني أيضاً أن أدفنه في بلده . أحاول أن أهوّن عليه فأقول إن عمره طويل بإذن
الله وإنه سيشفى بسرعة من هذا الجرح البسيط ويعود كالحصان كعادته . فما
هذا الجرح إلى جانب ما حدث له في الحروب؟

أثرثر بهذا الكلام ومثله لكن رعب موته الوشيك لا يفارقني . ليس هناك طبيب
في الواحة وحالته لا تسمح بنقله في قافلة إلى مرسى مطروح أو إلى غيرها .
وبعد يومين من الحمى طلب جندي التمريض أن يحدثني على انفراد . قال إن
إبراهيم يموت بالفعل وإن دمه تسمم . كان يضع على ساقه قرب الجرح المضمد
نوداً طبياً ، لكن النود لم يعد يمس دمه لأن الدم تسمم . وهو يعرف هذه الحالة
عندما يتسمم الدم تكون النهاية قد اقتربت . قال إن عظم الساق مكسور والحل
الوحيد لكي يعيش هو أن نبتز ساقه ونترك الباقي على الله . سألت ومن يبتزها ؟
أنت ؟

فسكت .

وفي اليوم نفسه زارني الشيخ صابر زيارته الثانية بعد إصابة إبراهيم . في
المرّة الأولى جاء ليشكّره ويشكرني لأننا أنقذنا محمود الصغير ، وفي هذه المرّة
جاء بصحبة بعض الشيوخ وأقارب الصبي من الشرقيين لعيادة إبراهيم . لم
أستطع التركيز لأسمع ما يقول ولم أفهم فيم يتداولون بلغتهم وهم يحيطون بفراش

إبراهيم الغائب عن الوعي والذي يفرق وجهه الشاحب في العرق . وكنت أنا مثله تقريباً ، لا أكاد أعي شيئاً .

لكن صابر لاحظ حالتي فجذبني من يدي وبدأ يقول كلاماً كثيراً وأنا بالكاد أراه ، رددت على كلامه بيأس : يا شيخ صابر إبراهيم يموت ، فانتبهت إلى قوله بل سيعيش بمشيئة الله . فحاولت أن أركز على ما يقول : هذه ليست أول مرة تكسر فيها ساق أحد في الواحة أو تصيبه الحمى ولديهم من يعالجون هذه الحالة . سألته من هم ؟ فقال من يعالجون مرضانا وجرحانا ، ألا تصيبنا نحن أيضاً الأمراض ؟ وهذا الدود العلق الذي تضعونه على رجله لا يفيد به بائى شئ وإعله يضره . هو يفصد الدم للصداع لكنه لا يعالج الجروح أخطأ من نصحك بوصفه . دع الرجل الذي حديثك عنه يداويه .

إذن فقد تحدث أيضاً عن رجل ؟ قلت وإن مات يا شيخ صابر؟ فرد تلك أيضاً تكون مشيئة الله .

ولم يكن عندي حل آخر .

قال الجندي الممرض إنه بعد إذن سعادتى يخلى مسئوليته مما يحدث . فهم يسقون إبراهيم أشياء لا يعرفها وقد نزعوا الضماد عن ساقه ويضعون على الجرح زيوتاً ودهوناً ربما تزيد من تعفن الجرح . سألته مرة أخرى هل تستطيع أن تبتر ساقه ؟ فرد لا أستطيع تحمل المسؤولية يا أفنديم .

كانت كاثارين تتابع حالة إبراهيم وتسألني عنه في اللحظات الخاطفة التي أذهب فيها إلى البيت لأغير ثيابى ، وعندما سمعت بآئى تركت أمر علاجه للرجل السيوى ، احتجّت . قالت : أنا أوافق الممرض على رأيه . ما الذى يمكن أن يفعله الطب البدائى فى هذه الحالة ؟ بالفعل هذا تسمم فى الساق والجسم ولا علاج سوى الجراحة والبتر .

قلت ناقد الصبر لكى أسكتها : تجرين أنت الجراحة يا كاثارين ؟ فأدهشتنى

بأن ردت لا مانع عندي من أن أحاول . يمكن أن أساعد المريض ، أنا أيضاً عندي فكرة عن التمريض. قلت وأنا أهم بالخروج . المريض أخلى مسئوليته ، فقالت عليك أنت أيضاً ألا تورط نفسك في قتل إبراهيم المسكين .

لم أقل لها إنني متورط بالفعل في قتله . لا يوجد شاهد على تلك الثواني سواي ولعل إبراهيم نفسه لم يلاحظها ولعله لو عاش لن يذكرها ، لكن أنا الذي أحاسب نفسي طول الوقت . ودهشني أن كاثارين لا تشعر بأي ندم أو تائب ضمير . لا يخطر ببالها أن كل ما جرى كان بسبب زيارتها للمعبد المنكوب في ذلك اليوم الحار المشؤم . لو أنها فهمت رسالة الحر وعدلت عن الزيارة ! لو أني أنا نفسي قد فهمتها وصممت على البقاء في البيت ! لكننا ذهبنا وتركنا محمود الصغير يجري وراحا في الحر المهلك . لا غرابة في أن يكون التعب قد هده فنام ذلك النوم العميق ولم ينتبه للخطر لحظة وقوعه . أيقظته أصواتنا بعد أن فات أوان أن يجري مبتعداً لإنقاذ نفسه وشله الربيع في مكانه إلى أن أنقذه إبراهيم وضيعني .

لكن كاثارين تواصل قراءة كتبها ومراجعة رسومها كأن شيئاً لم يحدث أبداً . وتبدى تعجباً لأصراري على ملازمة إبراهيم طول الوقت . ومن أين لها أن تعرف ما يدور في ذهني ؟ تلك المحاكمة التي لا تنقطع الماضي والحاضر ؟ أقول لنفسي ها أنذا قد واجهت الموت الذي تفلسفت في الصحراء عن إغوائه وعن الهاتف الذي يناديني، لكنني عندما رأيته ينقض حجراً من السماء ارتعيت . حتى عندما كان واجباً يتحتم عليّ أن ألبيه، جبنت وتركت غيري يقوم به. هل هذه إذن هي حقيقتي؟ لكنني لم أولد جبناً . مهما قلت عن نفسي في الإسكندرية فقد كنت أواجه الموت في كل لحظة دون تفكير في الهرب . تحركت دون تردد وسط شظايا القنابل والحرائق ورصاص البنادق وعصابات السلب والنهب كائني أبحث بالفعل عن الموت . فمنذ متى تغيرت ؟ منذ اللحظة التي أطعت فيها نصيحة سميد وتكررت في التحقيق لكل شئ ؟ لكنني لم أطع سميد إلا لأني كنت راغباً في قرارة نفسي في

أن أفعل ما نصح به وأولم يقله.

كان يمكن أن أختار الحقيقة ، غيرى فعلوها . لم يكونوا الأغلبية نعم ، لكنهم آلاف مع ذلك . احتملوا السجن والطرد من العمل والنفى . كأن يمكن أن أفعل مثلهم . أن أجد عملاً آخر ، أو حتى أن أسافر إلى الشام والتحق بأخى سليمان . لم يكن سيرفرض مساعدتى ، وربما أشركنى معه فى التجارة . أنا الذى اخترت بإرادتى أن أخون وأن أتخلى ، مثلما تخليت عن إبراهيم وتركته للقتل .
والآن أعلق كل أملى على أن ينقذه السيويون وينقلونى .

سمحت لهم أن يبدأوا العلاج الذى احتج عليه المرضى وكاثرين والذى وافقت أنا عليه ياسأ ، ولم يقل الجنود شيئاً ولكنى كنت أرى فى عيونهم أيضاً نظرات الرفض والتائب لسماحى بهذه الشعوذة.

لكن بعد أيام من تعاطى إبراهيم لأنواع الشراب التى لم نعرف ما هى ودهن ساقه بتلك الزيوت ، اختلفت الزرقة التى كانت تضرب ساقه الجريحة وإن ظلت متورمة ثم بدأت الحمى تتحسر بالتدريج . ظل راشد المعالج السيوى يتردد على إبراهيم عدة مرات فى اليوم ، يدخل صامتاً ويخرج دون كلمة ، ويأتى معه الشيخ صابر أحياناً ، يحيطان بفراش المريض ويتداولان بوجهين متجهمين فيزداد قلقى وأسأل الشيخ صابر عن الحالة وعما سيفعلان بعد ذلك فلا أسمع منه ما يطمئننى . يقول بوجهه العابس: كل شئ بيد الله يا سعادة المأمور .

وبعد أن انحسرت الحمى واتفق إبراهيم من غيبوبته الطويلة كان بادئ الهزال والضعف ، فأعطاه زملائه حساء وأرزاً مسلوقةً ، لفظهما على الفور وساعت حالته من جديد . وعندما سمع صابر بما حدث قال إننا ارتكبنا خطأ كبيراً وأنه يجب ألا يدخل جوفه شئ غير الماء المسكر إلى أن يقضى الله ما يشاء .

وفاجأتى راشد ذات مرة حين استوقفتنى وأنا فى طريقى إلى حجرة إبراهيم وخاطبنى بالعربية التى ظننته يجهلها . قال إنه يفعل ما يستطيع لكن علاج

إبراهيم لن يكتمل إلا بعد أن يزول الورم من ساقه . سألته وما العمل ؟ فقال إن الأمل الأخير هو الكي الذي لا يعرف سره إلا القليل ، وأفضل من يعالج به هو بدوى يعيش خارج شالى وليس له سكن معروف . يجب أن أطلب من الشيخ صابر البحث عنه واستدعاه لأن هذا البدوى يتقاضى أجراً كبيراً . قلت إنى سادفع للبدوى ما يشاء وسأدفع له هو أيضاً مقابل علاجه لإبراهيم . فرد راشد : أنا أجرى أن يشفى الله هذا الرجل . هو وأنت أنجيتما ابنى من الموت .

سألته بدهشة : محمود ابنك أنت ؟ لماذا إذن لم تتكلم قبل اليوم ؟

- لم أشأ أن أقول شيئاً قبل أن أطمئن إلى أنى فعلت للشاويش كل ما بيدي .

وسأدع له الله أن يكتمل شفاؤه .

مرت أيام إلى أن عثر الشيخ صابر على البدوى وجاء بصحته . كان عملاقاً يلبس عباءة واسعة ملونة بخطوط حمراء ويتكلم بلهجة أمرة فظة . نفرت منه بمجرد أن رأيته وأردت أن أصرفه لكن صابر وراشد كانا يعاملانه باحترام شديد وهما يتحدثان عن قدراته فتراجعت وأمرت كارهاً بتنفيذ ما يريد .

طلب البدوى ناراً وضع فيها مسماراً حديدياً كبيراً له مقبض خشبى إلى أن توهج بالحمرة وأمرنا أن نوثق إبراهيم جيداً وأن نفرد ساقه المتورمة تماماً حتى لا تتحرك . ورجانا إبراهيم المذعور أن نعفيه من هذا العلاج قائلاً إنه شفى بحمد الله ولا يحتاج إلى شئ آخر ، وعينه لا تفارق المسمار المحمى فى النار .

ورأيت أيضاً نظرات استهجان فى أعين الجنود الملتفين حول إبراهيم وقال أحدهم ، لعله المرض ، بصوت عال : رينا يستر . وكنت أنا أهمس بها لنفسى . سمعت عن الكي من قبل غير أنى لم أره أبداً ولم أعرف ما هو نفعه لحالة إبراهيم . لكننا فعلنا ما طلبه البدوى . أجلسنا إبراهيم على مقعد وأمسكه اثنان من الجنود من ساعديه وإبطيه واثنان آخران من ساقيه مفروبتين .

استغرق البدوى وقتاً فى تحسس الساق المصابة أسفل الركبة لكن بعيداً عن

موضع الجرح . وكانت تؤلم إبراهيم تزيد والرجل يتحسس بأصابعه الغليظة
ببطء تلك الأماكن وفي لحظة توقف وضغط بسبابته بشدة على نقطة معينة فعلت
صرخة ألم مفاجئة من إبراهيم . وصاح البنوى بالجنود ألا يسمحو لإبراهيم بأى
حركة قبل أن يلتقط المسمار من النار بسرعة ويكوى به الموضع الذى اختاره لثوان
ثم موضعاً مجاوراً له لثوان أخرى وسط صراخ إبراهيم وعويله وقال البنوى بشئ
من الاستغراب:

كل الرجال سيكون ويصرخون ! ماذا تساوى هذه النار جنب نار جهنم ؟
لكن هل أحلم أنا ؟ هل جنت ؟ هناك نار تكوى جلد ساقى فى موضع كي
إبراهيم نفسه ، ارتجفت وأدبرت وجهى واضعاً يدي على فمى لكى لا أصرخ مثله .
كانت رائحة اللحم المحترق تملأ المكان قبل أن يخرج البنوى من ثيابه قارورة
فى جراب جلدى صب منها سائلاً على مكان الكي سمعت له هسهسة متكررة ثم
رأيت أنه يكون زبداً أبيض فوق موضع الحرق . وسرت لحظتها فى ساقى وفى
جسدى كله قشعريرة برد وأنا أبذل جهداً لكى أتماسك أمام جنودى .
انتظر البنوى لحظة ممسكاً بساق إبراهيم الذى تحولت صرخاته إلى أنين ألم
متصل وعندما جفّ السائل الذى وضعه بدأ يربط مكان الكي بضمادة ، وكان يرد
على سؤال للشيوخ صابراً قائلاً:

لا ، لن أحضر مرة أخرى ، راشد يعرف ما يجب عمله بعد ذلك لتطهير
الجرح ، والشاويش سيمشى على رجله بعد يومين
ثم أكمل بضحكة عالية : ولكنه سيعرج طول عمره !
غمغمت : لو لم تقلها !

لكنى ظلت واقفاً فى مكانى ، واثقا أنى سأعرج لو تحركت .
ظلت يومين أمشى فى المركز والمنزل بخطوات بطيئة لكى لا يلاحظ أحد شيئاً ،
ثم تحسن الألم فى ساقى ، وبعد هذين اليومين قام إبراهيم بالفعل من الفراش

وبدأ يمشى وهو يعرج على ساقه التى لم ير لها المرض وكاثرين حلاً سوى البتر.
وعندما جاء الشيخ صابر ليطمئن على إبراهيم بعد أن وقف على قدميه شكرته
هو وراشد والبدوى الذى لم أعرف اسمه .
أما كل المكافأة التى كانت عندى للشيخ صابر فهى أن النظارة رفضت طلبى
لتخفيض الضريبة وأرسلت إنذاراً بأنه ما لم تصل حصيلة الضرائب فى أقرب
قافلة فسوف تضاعف الغرامة المالية وتقرر إجراءات أخرى.
كانت نظرة أهالى البلدة لى قد تحسنت بعد دورى الوهمى فى إنقاذ محمود
الصغير، ولكنى قرأت فى عيني صابر وراشد بعد أن سمعنا ما قلت الكراهية
القديمة تطل من جديد .
انتهت مهلة الغفران .



١٠- كاترين

أعرف أنى أرتكب غلطة، سيقضب محمود كثيراً لكن لابد أن أفعل ذلك.
لا أرى أى حل آخر . مرت أسابيع كثيرة هنا فلم ألتقدم خطوة فى أى شيء .
تعلمت بنفسى كثيراً من اللغات الميثة لكنى لا أعرف جملة واحدة من لغة هؤلاء
الأحياء الذين أعيش معهم وأحتاج إلى مساعدتهم. لم أعد أعمل وتوقف بحثى عن
أى دليل يقودنى إلى الإسكندر، لكن يكفى هذا . سأذهب اليوم إليهم بنفسى
ويعفدى . سأعتمر لمحمود فيما بعد، لا على ما أفعله الآن فحسب، بل على أنى
شجعت من الأصل لكى نلتى إلى هذا المكان .

ساعت حالته كثيراً منذ حادثة إبراهيم . لازمه منذ إصابته وحتى وقف على
قدميه، يتصرف كما لو كان مسئولاً عما جرى للجندى المسكين . الأغرب أنه
يتحدث بنوع من التأنيب عن زيارتى للمعبد كما لو كانت هى السبب فى كسر
ساق إبراهيم ! يجب أن يفهم أنها مجرد حادثة ولا أحد مسئول عن القدر، ثم إنها
لم تكن حادثة خطيرة جداً مادام قد أمكن علاجها بطب بدائى . لكن محمود
يثلف على الأسباب التى تجعله تغيساً.

لا تنقصنى الآن همومه. هذا الصباح لست على ما يرام .
منذ الأسى والأمور مضطربة . خطاب فيونا الذى وصل مع القافلة الأخيرة
أقلقنى بالفعل، ليست رسالة طويلة مليئة بالأخبار كعادتها . قالت فقط إنها
ستصل إلى الإسكندرية قريباً على إحدى البواخر وستأتى من هناك لتزودنى فى
سيوة. هكذا فجأة نون مقدمات ولا تفسير . لعلها تتصور الرحلة من الإسكندرية
إلى سيوة كالانتقال من مقاطعتنا كونوت إلى ببلن بالقطار ! طليت من محمود أن

يكتب إلى أحد من أصدقائه الضباط فى الإسكندرية لينتظرها ويدير إقامتها هناك حتى نرى ما يمكن عمله . هل أذهب أنا إليها وأخذها إلى القاهرة أو نرتب بالفعل طريقة لكى تأتى إلى سيوة ؟ ولكن لماذا ؟ حتى خطها كان مرتبكاً ومشوشاً على غير عادتها . ما المشكلة التى تخفيها عنى يا فيونا ؟

تزدرنى كثيراً فى الأحلام . فى هذه الليلة رأيت وجهها الجميل يختفى خلف قناع شفاف من الحرير تحاول أن تنزعه عنها بيديها معاً ، لكنها كلما حاولت كانت تنزع وجهها نفسه ، يصبح كالمطاط كلما شدت القناع .

صحت فى فزع ، غير أنها زارتنى مرة أخرى ولم تكن وحيدة .. جاءت ومعها الإسكندر . يأتينى هو أيضاً كثيراً فى المنام هذه الأيام - ولكن السبب هو غلطتى . فى هذه الليلة جأنى بوجه غاضب ، ثم رأيت فيونا تحمله وتحضنه كأنه طفل يبكى ، اقتربت منهما فوجدته طفلاً من رخام وفى عينيهِ الصجرتين دموع غزيرة . أيقظنى محمود من النوم وهو يسألنى لم تصرخين؟ قلت وأنا ألثت هناك شيء مخيف فى هذه الصحراء . فقال وهو يريت علىّ هو مجرد كابوس . نامى يا كاثرين - سكت وأنا أتشبث به فى الفراش لكننى ظلت مفتحة العينين أخاف أن يأتينى النعاس من جديد وظلت قلقة حتى الصباح .

هذه ليست أنا . أنا لا أخاف من الصحراء ولا الأحلام ولا أصدق أى خرافات ، ولكنى خضت تجربة سخيصة لأخاطب روح الإسكندر . لم أصدق بالطبع أن روحه ستظهر لى أو تزدرنى لكنى قلت لنفسى إنى أمارس لعبة لتضييع الوقت وأنا سجين فى البيت بعد حادثة إبراهيم . نفذت ما قرأته فى الكتاب . أغلقت النوافذ والأبواب حتى أظلمت الصالة تماماً وأضأت شمعة وضعتها على المائدة وإلى جوارها كوب زجاجى مقلوب . لكنى غيرت فى نصيحة الكتاب - لم أضع حول الكوب أوراقاً بكل حروف الأبجدية . ما حاجتى إليها ؟ وضعت فقط فى جانب من الكوب ثلاثة أحرف (ن) (ع) (م) وفى الجانب الآخر حرفين (ل) (ا) . هذا هو كل

ما أريد أن أعرف . أغلقت عيني وركزت كل تفكيري في الإسكندر وتمتمت باسمه مرات كثيرة وأنا أمد أطراف أصابعي نحو الكوب ثم وجهت سؤالى: هل ساجدك هنا؟ خرج صوتى مرتعشاً وأنفاسى تتلاحق بالرغم منى . بالطبع كنت خائفة. بالطبع أنا بشر . بالطبع لأبْد أن يدى المرتجفة هى التى لمست الكوب فتحرك محدثاً رنيناً خافتاً، فارتعبت وقمت على الفور أفتح الباب والنوافذ .

لن أكرر هذه التجربة . مازلت أؤمن أن حكاية الأرواح هذه مجرد خرافة . لكن خوفى أثبت أنى مثل كل الناس أخاف من المجهول الذى لا سبيل لفهمه . رعب موروث فلا يجب أن أخجل من نفسى .

لا يجب أيضاً أن أخجل من الأحلام التى تطاردنى فهى جزء من خوفى وأنا التى استدميتها . أتانى الإسكندر مرتين بعد ندائى الفبى .. فى الليلة الأولى جاضى بصورته المنشورة التى أعرفها، جاء يمتطى حصاناً أسود يخلق فى الفضاء بسرعة جناحين أبيضين ثم اندفع يهبط فجأة نحوى وهو ينقض على مشهراً سيفاً لم أر مثل طولهِ، فصرخت .

وفى الليلة الثانية أُرعبنى أيضاً حين جاضى وله ملامح مليكة وشعره الأشقر مضافون مثل صفائرها الكثيرة. سألته لم فعلت هذا ؟ فضحك بينما أخذت تلك الصفائز تتحرك وتتلاوى وتتحول إلى شعابين بدأت تزحف نحوى وتلتف حول جسدى، فصحوت أيضاً وأنا أصرخ .

لا- أنا لست على طبيعتى ويجب أن أسترد نفسى . الخطوة الأولى أن أنسى ذلك كله وأن أبداً العمل ، العمل الحقيقى الذى يطرد المخاوف والأوهام. سلاوچه رؤساعهم أنفسهم وليكن ما يكون .



توجهت من بيتنا الواقع أسفل التل وتقدمت صاعدة نحو مدخل المدينة المحصنة . رأيت الأجواد يجلسون كالعادة على مصطبتهم المعرشة بجريد النخيل أمام الباب الكبير .

أعددت في ذهني ما أقول لهم . سأكرر ما شرحتة لمحمود - أنى لا أبحث عن كنزهم الملعون الذى دمروا المعابد للتقريب عنه . لا أريد المومياوات أو الآثار الحجرية الصغيرة التى يتلف عليها الأوروبيون . ربما يطمئنهم هذا الكلام فيساعوننى . اصطحبت معى كراسة الرسم الكبيرة ليفهموا طلبى وصعدت بخطى مصممة الطريق الضيق الواصل إلى مجلسهم .

ما إن أدركوا أنى أتوجه نحوهم حتى هبوا جميعاً واقفين وراحوا يلوحون لى بأيديهم أن أرجع . لم أهتم بل أسرعت خطوتى . تقدم كبيرهم الشيخ صابر الذى قابلناه مع محمود عند وصولنا إلى الواحة وعرفنا على نفسه . يتحدث عريية راقية تدل على أنه متعلم تعليماً جيداً ويتكلم بتهذيب شديد، لكنى نفرت منه . رأيت فى عينيه الضيقتين مكرراً . قد أكون مخطئة مع ذلك . أخبرنى محمود أن هذا الشيخ اهتم كثيراً بمتابعة علاج الشاويش إبراهيم، إذن فهو ليس شريراً . ثم منذ متى كان الحكم على الناس من ملاحظهم يكفى ؟ يجب أن أتعلم من درس مايكل ووجهه الملائكى .

نزل خطوات على المنحدر بينما كان بقية الأجواد مستمرين فى الصياح والتلويح لى بأيديهم أن أرجع . لكنى واصلت صعودى وواصل الشيخ صابر نزوله وعندما التقينا قال لى بهندء بعرييته الفصيحة وهو يشير نحو زملائه : عفواً يا هانم، ألا تعرفين أن هذا الباب هو باب الأجواد ؟

أشار خلفه إلى الباب السميكة المصنوع من جذوع نخيل متالصة فرددت بعصبية بالرغم منى : أعرف ولكن هل تعرف أنت ..

قاطعنى موجهاً سياجته جهة اليسار : هناك باب آخر للنساء . عندنا لا يمكن

للنساء الدخول من باب الأجواد .

حاولت أن أتمالك نفسي : أعرف ذلك أيضاً . أعرف باب «قدومه» المخصص للنساء ، ولكن أنت لم تصبر لتعرف ماذا أريد . أنا لم أت هنا لأدخل البلدة من بابكم ولا من باب النساء ، ما الفائدة من دخولها وأنتم ؟ لا يهم . أنا جئت الآن لكي أقابل الأجواد أنفسهم . أريد أن أقول لكم .

مرة أخرى قاطعني بتهنيئه المشبوهة : يمكن للأجواد أن يأتوا بأنفسهم إلى حضرتكم إذا أمر سعادة المأمور . نحن في خدمته وخدمتك ، ولكن كما ترين بنفسك فإن الأجواد لم يتعوبوا أبداً أن تقترب النساء من مجلسهم . هذا يفضيهم وسعادة المأمور يعرف ذلك .

ضايقتني إشاراته المتكررة المقصودة إلى محمود غير أنني فتحت الكراس قائلة
أنا كنت أريد فقط أن أسأل ..

لكن لما رأيته يقف أمامي متسماً وكأنه مستعد لمنمى بالقوة من الصعود ، ورأيت عينيه الباردتين ووجهه الخالي من التعبير ، باخت حماستي فجأة فأغلقت الكراس في عنف ؛ أدت له ظهرى واستدردت راجعة دون كلمة . وبينما أنزل المنحدر سمعت من خلفي صوتاً متهدجاً يقول بالعربية : يا هانم ، انتظري .. انتظري ..

التفت ورائي فرأيت شيخاً من الأجواد عجوزاً جداً ، يتوكأ على عصا ويحاول أن يضبط خطواته وهو ينزل بحرص على المنحدر . انتظرت في ترقب وهو يتقدم نحوى واستفريت لأنه يلبس نظارة مثبتة بدوارة إلى إحدى أنفيه . هو أول شخص أراه يلبس نظارة في هذه الواحة .

اقترب مني وخاطبني بلهجة مصرية :

- لا تفصبي . لا يريد الأجواد بك شراً . المسألة أن هذا الباب ..

- لا تقترب منه النساء ! قلت للشيخ صابر إنى لا أريد دخول البلد أصلاً .

- إذن فماذا تريدان ؟

سمعت نداءات الشيخ صابر والأجواد الآخرين : يا شيخ يحيى .. يا يحيى ..
ظلوا يستدمنونه بإشارات أيديهم وهم يصيحون بنبرة غاضبة لكن الشيخ
العجوز لم ينظر نحوهم وسألني مرة أخرى : ماذا تريدان ؟ هل يمكن أن
نساعدك؟

فتحت الكراس وقلت متلعثمة : أردت أن يفهم الأجواد أنني لا أبحث عن ..
ولكن يهمنى أكثر .. أقصد هل يمكن أن يدلني أحد ان كانت هناك في المعبد
الكبير في أغورمي أو في أى مكان آخر كتابات من هذا النوع ؟...
ثم أكملت في اندفاع : أقسم إن ما أبحث عنه لا علاقة له بكنزكم ولا بأى
ذهب. بالعكس، ما أبحث عنه يمكن أن يجلب إلى واحتكم ذهباً كثيراً وكنوزاً ،
أقصد ..

قال مبتسماً فزادت تجاعيد وجهه الأسمر :

لماذا تقسمين ؟ أنا أصدقك .

وضحك فجأة ضحكة خافتة وهو يكمل: أنا أصدق أنك عاقلة وتعرفين أنه
لا يوجد في الحقيقة أى كنز لا تحت المعابد ولا فوقها !
ثم وضع سبابته على فمه لأكتم السر، فابتسمت له وأنا أقرب الكراس من
وجهه: وإن ؟

كان صياح الأجواد مستمراً وهب بعضهم واقفين كما لو كانوا سيهبطون
أيضاً نحونا . وعندها فاجأني الشيخ يحيى حين احتقن وجهه وصاح بصوت عال
قوى لا يناسب سنه ولا جسده الضامر وهو يهذر بكلام كثير بلهجة غاضبة ،
ملتفتاً برأسه وحده في اتجاه الأجواد، فواصل بعضهم الصياح والغفمة لكنهم
عادوا إلى الجلوس في أماكنهم .

أمسك الشيخ بالكراس الذى مددته له وكان يحمله بصعوبة وهو يزرعيني ثم قال فى حيرة :

أنا أقرأ العربية ولكنى لا أعرف لغة الفراعنة .

قلت مدركة أن ذلك لايعنى له أى شىء: هذه ليست لغة الفراعنة، هذه لغة يونانية قديمة .

ازدادت حيرة الرجل وهو يتطلع فى وجهى قائلاً : لا يوجد فى بلدنا من يعرف لغات القدماء . انتظرى ربما يأتى بعض الخواجات من بلادكم .

ثم دفع الكراس بين يدى وقال وهو يضحك من جديد مشيراً إلى نظارته : أما أنا فأراك أنت نفسك الآن بصعوبة وتريدى منى أن أفرق بين كتابات لا أعرفها؟ غير أنى قلت مرة أخرى بعصبية لم أقصدها: ولكن ربما يمكن أن تدلنى أنت على شىء. كل ما أريد معرفته هو إن كانت هناك نقوش لكتابات كهذه فى المعبد الكبير أو فى غيره. أنا ذهبت إلى معبد أغورمى لكنى لم أستطع أن أتجول أو أن أرى شيئاً . البيوت مغلقة على الآثار.

قال الشيخ يحيى ببطء وقد تغيرت طريقته فى الكلام : إذن فدعى البيوت مغلقة. قلت إنك عاقلة ، والعامل لايدخل بيتاً لايفتح له بابه .

ظل ينظر فى عيني مباشرة وفهمت أنه يحذرنى فسألته : ولكن ما العمل ؟
- هناك آثار بعيدة عن البيوت وهناك نقوش وكتابات فى كل مكان فى الخلاء ، وفى الواحة قرى أخرى غير شالى وأغورمى ومعابد كثيرة فأبحثى هناك إن شئت..

- وهل انتهيت من البحث هنا لأحاول فى أماكن أخرى ؟ هل بدأت من الأصل؟

- اسمعى . أنا لا أفهم ما الذى تبحثين عنه . ولكن لو كنت مكانك لفكرت مرتين بعد الحجر الذى سقط ..

ثم توقف لحظة قبل أن يقول بالهتوف نفسه : ان يصدق أحد غيرى أنك لا تبحثين عن الكنز والذهب ، وهم يعتبرون سقوط الحجر عقاباً أو إنذاراً من صاحب الكنز الذى نبر سحراً ليبعد الناس عن كنزه حتى ميقات كشفه المعلوم ، لم أفهم كل كلامه فقلت :

ولكن أنت نفسك لاتصدق هذه الأوهام؟

تجدد غضبه فجأة وقال هو يشير بيده نحو الأجواد المستمرين فى اللفظ : وما أهمية ما أصدقه أنا أو أكذبه ؟ المهم أنهم يصدقون ، هم ليسوا أشراراً ، بالعكس، هم طيبون ولكنهم خائفون .. ثم زاد وجهه احتقاناً وهو يقول : كل الناس طيبون ولكنهم أغبياء ! .. وأنت أيضاً، لماذا لاتفهمين بعد كل ما قلته لك؟ .. مع السلامة ! .. انتبهى لنفسك وانتبهى لزوجك ..

استدار ليعود متكئاً على عصاه وهو يكرر منفعلأ : مع السلامة ! أوشكت أن أبتسم رغم أنه أهاننى ، كان يحثنى على الرجوع مثل الشيخ صابر من قبله لكنى صدقت بالفعل أنه أراد أن يساعنى وأن يبلغنى رسالة .



فكرت وأنا فى طريقى إلى البيت أن العجوز قد يكون على حق فى تحذيره . لماذا لا أترك كل شيء بالفعل؟ يمكن أن أعتبر كل قصتي مع الصحراء والإسكندر وهذه الواحة مغامرة فشلت لكنها ليست نهاية العالم . إن يكون أول فشل وأنا أستطيع دائما أن أبدأ من جديد مهما حدث لى . هم يكرهون تجوالى وسط المعابد ويشكّون أنى أريد أن أسرقهم ، وربما يزيد إصرارى على البحث من الخطر الذى يهدد محمود .

عرفت منه أن لديه ما يكفى من المشاكل معهم هذه الأيام . منذ بدأ يجمع الضرائب أو يحاول جمعها وهناك شجار كل يوم مع إحدى الأسر . قال لى إنه كلف مهابر بجمع الحصص لكنهم يمتنعون عن السداد ويضطر محمود أن يذهب بنفسه أو يرسل جنودا من الشرطة لكن نون فائدة . يقول إن الحصيلة قليلة جدا وإن الواحة كلها توشك أن تشتعل من جديد . ألا يحسن إذن أن أنكمش أنا وأهدأ حتى تمر هذه الأزمة ؟ ولكن فى هذه الحالة ما مبرر بقائى هنا ؟ ربما أفضل شيء الآن هو أن نرحل معا . لكن محمود لن يوافق على أن يترك الخدمة ويهرب فيعرض نفسه للعار وربما للسجن . ما العمل ؟

وصلت إلى البيت فجلست على إحدى درجات السلم . الشمس اليوم محتملة رحت أراقب أطفالا يلعبون فى الساحة يتلمصون بنظراتهم نحوى بتوجس مستعدين للفرار لو اقتربت منهم . كففت من مدة عن التودد والابتسام لهم أو محاولة الكلام معهم . لا فائدة . واحة ناكرة الجميل . ألم يعرض محمود نفسه للخطر لانقاذ واحد من هؤلاء الأطفال؟ كان يجب أن يظهروا له الامتنان لا أن يعرضوه لكل هذه المتاعب . ثم إن كل ما يحدث الآن يفسد ما بينى وبين محمود أو يزيده سوءاً .

عاد يشرب كثيرا منذ حادثة العيد ، وأنا لا أحتمله حين يصبح مخمورا . أتبله حين يشرب كأسين . لا بأس ، لكنى أتجنبه حين يغلبه السكر . الواقع أننا

أصبحنا نتجنب بعضنا وننام في الفراش غريبين معظم الوقت. لم يعد هذا يهمنى كثيراً. بالعكس هو يريحنى، لاسيما بعد تلك الليلة التى حاول أن يضاجعنى فيها وهو مخمور ففشل . جن جنونه . ظل يحاول بعصبية وغضب، يدمدم ويسب نفسه وينهض من الفراش ليدير حول نفسه ويخبط جبينه ثم يعود مترنحاً من جديد ليرتمى فوقى ويحاول مرة أخرى فيشتد غضبه . كانت أول مرة يفشل فيها منذ عرفته وحاولت رغم تقززى منه ومن نفسى أن أهون عليه : ربما هى كأس أكثر مما يجب .. ربما هو مرهق أكثر من المعتاد . لافائدة .. ظل يحاول إلى أن هذه التعب وهدئى وأعاد إلى الذكريات الكريهة مع مايكل ..

وما حدث فى الأيام التالية زاننى نفور . برد عودته فى ظهيرة اليوم التالى وقبل تناوله للغداء جرنى إلى الفراش فنجح . ثم جرب مرة أخرى فى المساء ونجح وكان عنيفاً أكثر من المعتاد رغم علمه بأنى إكره العنف . كأنه كان ينتقم من نفسه ومنى . وظل على هذا الحال أياماً وليال متعاقبة .

لعله أعتقد أن أيام عشقنا واندماجنا الحقيقى مازالت كما هى وأن احتجاجى هو نوع من التدلل أو المزاح . لا . لم نعد كما كنا. وهو أيضاً، لم أشعر فيما يفعل أن هناك ذرة من الرغبة الحقيقية أو الاستمتاع بالعشق . كل ما كان يريد هو أن يطمئن على ذكوريته . وحين اطمأن عاد يتجنبنى فغمرتنى الراحة . شكرته فى أعماقى .

ما كنت أحسب فى لحظة أنى سأسعد بابتعاده عنى، لكن هذا ما فعلته بنا الواحة.

ربما أظلم الواحة . محمود هو محمود، لم يتغير . أو هو كماداته يتغير طول الوقت من حال إلى حال. يشرب الخمر التى يحرمها عليه دينه، ويواظب على صلاة الجمعة فى المسجد كواجب اجتماعى حتى لايفقد احترام الناس له ، لكنى أراه أيضاً فى بعض الليالى يقفز من الفراش فى الظلام ويغتسل ثم يستغرق فى

الصلاة طويلا وهو ييكي . يحدث ذلك نادرا ويدهشنى كثيرا - لا أدرى هل أشفق عليه أو أضحك منه . لكنى أتساءل . بماذا يؤمن محمود حقا ؟ وبماذا يؤمن أنا أيضا ؟ كففت عن التفكير فى ذلك منذ وقت طويل . لم أعد أذهب إلى الكنيسة ولم أعد أصلى وحدى . ربما أؤمن أن الإله سيكشف لى نفسه ذات يوم ، لكن الموضوع لم يعد يشغلنى .

حانت منى نظرة إلى الأطفال الذين يلعبون . كم هى مريحة الطفولة ! كم هو مريح الجهل ! كان الأولاد يحفرون فى الأرض قنوات يصبون فيها ماءً ويضعون على حوافها غصونا صغيرة خضراء ليرووا بساتين تشبه بساتين آبائهم . ولكن أهم شىء أنهم لا ينسون أيضا بناء أسوار رملية عالية حول بساتينهم . يتعلمون الأسوار منذ الصغر . أما البنات فيلعبن على حدة بعيدا من الصبيان . أسوار أخرى !

لكنى أحب منظر البنات الصغيرات وهن يلعبن . لا أرى الألوان البهيجة إلا فى ملابسهن المزركشة الطويلة الأكمام . وددت أيضا لو أعرف كيف يجذلن للبنات هذه الضفائر الرقيقة الطويلة التى تحيط بروسهن مثل تيجان مزخرفة . لكن من سيدلنى ؟ أمهاتهن؟ لايسرن فى الطريق إلا جماعات ذاهبات إلى ماتم أو أفراح ولا يظهر منهن غير عبااء زرقاء واسعة . كتل مصممة تتحرك فى بطء وصمت مثل نذير قادم ، فلود أن أصرخ حين أراها : أين البشر ؟

وقفت أخيرا فشعرت بدوار من أثر الشمس التى بقيت تحتها أطول من اللازم ، وكان على أن أصعد بقية الدرجات ببطء وحذر .

البيت الحار المعتم أفضل بكثير . أغلقت الباب وأنا أحلم أن أستحم بماء بارد وأتمد فى الفراش فأطرد كل الأفكار - محمود والإسكندر والشيوخ والنساء والأطفال . وهذه الراحة كلها ، ثم أنام فلا تأتيني أى أحلام . لكن قبل أن أدخل الحمام سمعت طرقات سريعة متتابة على الباب .

من يمكن أن يكون ؟ لا أحد يطرق بابنا وليس هذه طرقات محمود المعتادة
قبل أن يضع المفتاح في الباب .

من يمكن أن يكون ؟

سألت بتوجس : من ؟ .. من ؟

فردّ صوت متوتر كأن الفم ملتصق بالباب : مليكة !



كأنما تنقصنى المشاكل !

ما حكاية فيونا هذه وسط الجو الملبّد الذى نعيشه الآن؟ أمل أن يصل خطابى إلى الإسكندرية قبل أن تصل باخرتها وقبل أن تفكر بالفعل فى المجئ إلى سيوة. إن كانت هى مجنونة فلن تجد دليل قافلة مجنونا يقبل أن يصحبها بمفردها. المشكلة الحقيقية هى أن تجد بالفعل من يقبلها ثم ينتهى الأمر بمصيبة . وسأكون أنا المسئول بطبيعة الحال . يجب أن أحميها فى وقت لا أعرف فيه كيف أحمى كاثرين ولا نفسى .

أطل من مكتبى على باحة القسم حيث يريض المدفع الكبير الذى تركه الجيش قبل أن ينسحب بحملته . يعجبني كثيرا مدفع قصير مركب على عجلتين خشبيتين كعجلات عربات الكارو . ما نفعه هنا فى غياب أى جنود من الجيش مدربين على إطلاق المدافع ؟ لعلمهم تركوه كما خمنت للتذكير بهيبة الدولة . كم نحتاج الآن بالفعل إلى هذه الهيبة !

الواحة تغلى . شجارات واحتجاجات من الأسر فى كل يوم . عدت . أجلس إلى مكتبى وأمامى الخطابات الأخيرة من النظارة . تأنيب وتأنيب وتأنيب ثم نصيحة فى صيغة الأمر. يجب أن أستعمل الحزم والشدة مع الأهالى لأن اللين لا يفيد وهذا شئ مجرب. عظيم يا نظارة ولكن أين مدد الجنود والسلاح ؟

الشاويش إبراهيم الذى عرف الواحة قبلى يتصحنى هو أيضا: يجب أن أفعل مثل أسلافى. أختار بعض المتنوعين عن الدفع وأجلدهم فى ساحة القسم أو

أسجنهم هم وعائلاتهم فيكون هذا درساً للباقيين . قلت: يا إبراهيم هؤلاء الناس أنقذوا حياتك هل يرضيك أن تفعل بهم هذا ؟ .. لا يا سعادة الأمور لا يرضيني ولكن ما باليد حيلة .. نحن وهم تبع الحكومة وهى لا ترحم أحداً إلى أن تأخذ ما تريده . إن عفوت أنت عنهم فسترسل حملة جديدة من الجيش لا تكتفى بالجلد والسجن ، شر أهون من شر .

لا أستطيع أن أجادل إبراهيم فى منطقته، عرضت عليه عندما وقف على قدميه أن أعيده إلى المحروسة وأطلب من سعيد بك تسريحه، اعتقدت أنى أخدمه لكن نظرة حزينه أطلت من عينيه وبدا على وشك البكاء وهو يقول أستطيع أن أخدم سعادتك حتى وأنا أعرج . سألته بدهشة ومتى كلفتك بشئ فوق طاقتك يا إبراهيم؟

قال: الآن يا سعادة الأمور، فوق طاقتى أن تعيننى إلى مصر، أنا أحتاج إلى القرشين المدخرين هنا ، ورأى كوم لحم فى البلد، سعيد بك، الله يستره، يعرف الحالة، قال لى سافر مع سعادة الأمور فهناك ستأخذ علاوة ويمكن أن تسخر شيئاً، يعرف ظروفى لأنه من بلدنا وهو نقيب طريقتنا الصوفية ومن الصالحين، يجب أن يخدم الناس ، رأى حالى بعد أن سرحونى من الجيش الذى حلوه بعد حرب الإنجليز، لم أكن أجد ما أكله أنا والأولاد ولولا سعيد بك الذى توسط لأعمل فى البوليس لضعت وضاعوا معى .

- ولكنى أفكر الآن فى مصلحتك وفى صحتك بعد الحادثة .

- الحادثة من أمر الله . كان يمكن أن تصيبك أنت لا قدر الله وكان يمكن أن أموت ولكن سبحانه كتب لى عمراً جديداً . فلا تحرمنى سعادتك من الانتفاع بهذا العمر .

قلت : لك ما تشاء يا إبراهيم .

وقلت لنفسى لعلى أكون قد تمنيت رحيله لأنسى مرة أخرى لحظة الخزي التى

لم ينتبه هو لها . لكن الأفضل أن يبقى ليذكرنى بها . لم يبق عمر جديد للهرب .
غير أنى لم آخذ بنصيحته فى جلد الأهالى وسجنهم . كنت أذهب مع الشيخ
صابر لمقابلة أجداد الأسر التى ترفض الدفع . أحاول الاستفادة من حالة الرضا
التي أعقبت بطواتى لإنقاذ ابنهم ، أحاول إقناعهم بأن من مصلحتهم أن يدفعوا
حتى لا تعاقبهم الحكومة مثل كل مرة ، فيرد البعض بعبارات غضب واحتجاج
لمبالغة الحكومة ويرد آخرون بكلام جميل لكن الدفع ظل مؤجلا باستمرار .
وكان مستشارى إبراهيم أيضا هو الذى لغت نظرى إلى أن معظم الأسر التى
يشككها الشيخ صابر لأنها لا تدفع هى من أسر الغربيين . قلت ربما هو أقدر
على اقناع عشيرته من الشرقيين ، فرد إبراهيم الله أعلم لكنى لا أرى كثيرا من
الشرقيين يدفعون .

فى الطريق إلى البيت من مركز الشرطة كنت أفكر ما الذى يسعى إليه الشيخ
صابر؟ لو كان ما يلمح إليه إبراهيم حقيقيا فهو يريد الإيقاع بالغربيين ، لكن
الحكومة لا يعنىها إلا جمع الضريبة ، وإن قررت إرسال حملة عسكرية كالمعتاد فلن
تفرق بين شرقيين وغربيين . هو أنكى من أن يجهل ذلك ، فما الذى يريد؟ لا يهم .
المهم كيف أخرج أنا من المازق الذى وضعتنى فيه النظارة ؟ جئت هذه الواحة
كارها لها ولأهلها وازدت كرها لهم بسبب عدائهم لى ولكاثرين وحتى للجنود .
لكن كلما فكرت فيما فعلناه بهم منذ جئنا حاكمين وجدت أن تصرفهم طيبى جدا .
لم نأتهم إخوانا بل غزاة ، لم نعاملهم كأهل البلد بل كمستعمرين عليهم أن
يدفعوا أموالهم غصبا للفاحين . فلماذا إذن أغضب مما يفعله الإنجليز بنا أو
تغضب كاثرين مما يفعلونه بإيرلندا ؟ ذلك قانون الأقوى ، نمارسه نحن هنا كما
يمارسه الإنجليز هناك . عندما رأوا باصرة تصرف طيب من إبراهيم وما ظنوه
طيبة منى غيروا معاملتهم . ولكن ألا يرون بالفعل أنى أختلف عن غيرى ؟ لماذا
إذن هذا العناد والغباء ؟ لماذا يريدون تدمير أنفسهم وتدميرى معهم ؟ لا قائدة من
التفكير . العجلة دارت وإن يوقفها شئ .

اقتربت من المنزل فوجدت الأطفال الذين يلعبون فى الأرض الخلاء يقفون صامتين وهم يحدقون فى اتجاه البيت وهناك حمار يقف أسفل السلم .
عندما رأى الأولاد اقترب فروا كالعادة مبتعدين، لكنهم ظلوا يديرون أنظارهم فى اتجاه البيت فى فضول وترقب .

شعرت أنا أيضا بالتوجس فى اللحظة التى ارتفعت فيها صرخة من البيت .
تجمد الأولاد فى أماكنهم وتعرفت فى اللحظة التى تكررت فيها الصرخة على صوت كاثرين فأخرجت مسدسى واندفعت أثب درجات السلم وأنا أصبح كاثرين !
ما الذى يحدث ؟ أنا هنا ! أنا قائم !

اقتحمت البيت وأنا أشهر المسدس ثم توقفت عاجزا عن فهم ما أراه فى الصالة شبه المعتمة.

رأيت كاثرين واقفة تمسك جريدة نخل وتضم بيدها الأخرى أضرار قميصها الممزق . ثم انتهت أنها تضرب بهذه الجريدة برفق فتاة راكعة على الأرض تحتضن ساقى كاثرين وهى تموء .
كررت ما الذى يحدث ؟

وصويت المسدس دون وعى نحو الفتاة الراكعة ولكن بينما أضغط على الزناد كانت الجريدة التى تمسكها كاثرين تصيب يدى فعاثت الرصاصات فى الصالة وصرخت أنا من الألم . طار المسدس من يدى وأزاحته كاثرين بقدمها التى حررتها إلى ركن بعيد . كنت أطلق سبابا متصلا وأنا أمسك بيدي المصابة والأفكار تتدافع فى ذهنى أحاول أن أستجمع ما أراه أمامى . هل أرسلوا أحدا لقتل كاثرين ؟ قرروا البدء بها بدلا منى ؟ وما معنى تجمع الأطفال أمام البيت ونظراتهم الخائفة ؟ هذه البنت اعتدت على كاثرين ومزقت ثوبها لعلها حاولت بالفعل أن تقتلها . لكن لماذا تتشبث بساقيها وتقبلهما ؟ لا أفهم أى شئ غير أن كاثرين تدافع عن نفسها بجريدة النخل .

هجمت على البنت أنتزع يديها المسكتين بساقى زوجتى ثم ركلتها وهى تصرخ نحو الباب أريد أن أخرجها على السلم . لكن كاثرين أسرع نحوى وهى تدفع الجريدة هذه المرة فى صدرى وتصيح بصوت لاهت - لم تقتلها بمسدسك وتريد الآن أن يقتلوا فى الطريق حين يرونها نصف عارية ؟ رمت كاثرين جلبابا مكوما على الأرض فوق الفتاة المطروحة على الأرض تتلوه وأشارت لها فى غضب أن تلبسه .

نهضت البنت التى كانت ترتدى ثوبا أبيض قدرا واندست بسرعة فى الجلباب الرجالى واتمت وجهها . بدت ضئيلة كصبي صغير وبدأت تهزول نحو الباب وأنا أسأل كاثرين مشئت الذهن من تكون؟ لماذا تتركينها تذهب ؟ كيف دخلت ؟ فعلت ؟

لكن البنت استدارت فجأة قبل أن تخرج من الباب ثم نزعت اللثام عن وجهها . انتبهت رغم كل شئ إلى وجه باهر الجمال وهى تندفع نحو كاثرين وهى عينيها الرماديتين بريق خاطف وراحت تشير إلى صدرها وإلى زوجتى وإلى المسدس الملقى على الأرض وهى تهدر بلغتها التى لا نفهمها والدموع تنهمر من عينيها بلا انقطاع ثم اندفعت من جديد وركعت على الأرض عند قدمى كاثرين وهى تحتضن ساقها وتقبلهما وتنشج نشيجا خافتا كالأتين بينما تواصل الكلام وسط بكائها . شلتنى الدهشة ووقفت كاثرين أيضا متجمدة فى مكانها وقد تركت ثوبها الممزق مفتوحا فكشفت كرتى صدرها المتناسق ، نصفهما الأعلى عار متماسك شديد البياض ونصفهما الأسفل يشف من حمالة صدرها الحبرية السوداء . سألت كاثرين فى ذهول وبكاء الفتاة وأنيها يتحول إلى ما يشبه الحشرة: هل تفهمين أى شئ ؟

فردت كالمسحورة : ولا كلمة واحدة ، ولكن أظن أنها غاضبة لأنها تريدنا أن نفهم شيئا لا نستطيع فهمه ولهذا تريدك أن تضربها بالمسدس !

- وأنا أيضا أريد ذلك !

أزاح غضب كاسح لحظة الذهول ووثبت أريد الوصول إلى مكان المسدس ،
فمدت كاثرين ذراعها الخالية ووضعت يدها على صدرى محاولة أن تتكلم بهدوء
وسط لهاثها :

أنت ترى ، هى مجنونة بالفعل ، فلا تكن أنت مجنونا مثلها . لكن الفتاة هبت
فجأة ومدت يديها كأنها تريد أن تلمس صدر كاثرين أو أن تحتضنها أو أن
تخنقها لا أدري ، فهجمت عليها من الخلف ممسكا برقبتها وبدأت تصرخ وأنا
أكاد أخنقها بالفعل وقد تملكنتى غيرة مجنونة وشعور بانها ستدنس زوجتى لو
لمست جسدها بيديها مرة أخرى ، وپرقت عينا كاثرين الزرقاوان وراحت هى أيضا
تطلق عبارات سريعة بلهجة أيرلندية لم أفهمها ثم رفعت الجريدة فجأة وهوت بها
على رأس الفتاة التى تحاول التلمص من قبضتى فصرخت صرخة عالية وشريط
من الدم ينساب على جبينها ثم التقطت كاثرين اللثام ورمته فوق رأس الفتاة
وهى تحاول أن تخلصها من يدى دفعتها خارج الباب ثم أغلقته خلفها فى عنف .

عندما خرجت البنت انتبهت إلى السكن المطلق الذى أصبح يخيم على المكان.
كنت أسمع رغم كل ما يحدث فى البيت أصوات لفظ شديد فى الخارج - صراخ
كبار وصياح أطفال ونداءات ملهوفة متصلة ، أما الآن فصمت مطبق . فتحت الباب
 فلم أر غير البنت تمتطى الحمار وهى لا تكف عن العويل وتتجه شرقا مولية
ظهرها للبلدة التى حل بها سكون الموت . ومن كل الأطفال الذين كانوا يزحمون
الساحة وجدت طفلا واحدا فى حوالى الرابعة جالسا على الأرض يبكي ثم جاء
رجل يهرول التقط الطفل دون أن ينظر نحو البيت ودون أن يرفع رأسه المنكس
ورجع مسرعا وهو يحمل الصغير فى اتجاه البلد . حيرنى ما أراه فتضاعف
غضبى وأنا أطلع للساحة الخالية . اندفعت إلى داخل البيت وأنا أصبح منفعلا :

خلت الساحة من الصغار ومن الكبار . لا يوجد مخلوق .

كانت كاثرين تجلس على مقعد محتقة الوجه ، فقالت بعد لحظة :

لابد إذن أنهم عرفوا من هى .

- إذن فانت تعرفينها ؟

- نعم ، هى مليكة . الوحيدة التى كلمتى يوم ذهبت إلى معبد الوحي . يومها قالت لى اسمها لا أكثر وجاءت الآن متكررة فى لباس صبي كما رأيت . لكنهم اكتشفوا بالتأكيد بعد ذلك أنها الغولة وقد هربت من بيتها .

- الغولة ؟ تقصدين أنها ساحرة من ساحرات هذه الواحة اللاتى نسمع عنهن؟

- لا . أقصد أنها الغولة . جرئت أن تخرج من بيتها قبل أن تنتهى أشهر الحبس.

لم أفهم أى شئ من كلام كاثرين التى راحت تحاول إغلاق أزرار ثوبها ثم قالت فجأة وهى تنتفض تقريبا :

- الغولة قبلت صدرى !

صحت مهتاجا: لا تعبثى بى يا كاثرين! لماذا تركتها تفعل ذلك ؟ هل دخلت بيتنا من قبل ؟ وما معنى أنها غولة ؟

ردت كاثرين بغضب أشد وهى تنتصب بجذعها فى مقعدها :

- وأنت .. وفى هذه الواحة .. قل لى لماذا يراء من النساء أن يكن أعقل من رجالهن ؟ ثم كيف تكون أنت حاكم هذه الواحة ولا تعرف من هى الغولة ؟

- هل هذا أيضا من واجبات وظيفتى؟

- بالطبع ! مادمت أنا قد بحثت وقرأت كل كتاب وكل كلام كتبه أى عالم أو زائر مر بهذه الواحة كان واجبك أنت أيضا أن تبحث وتعرف . كيف تحكم ناسا لا تعرفهم؟..

عندما تهدأ ستندم على أنك فكرت أن تقتلها . وسأندم أنا أيضا لأنى أوشكت أن أقتلها ، لماذا فعلت ذلك ؟

ثم سكنت لحظة قبل أن تقول : لكن هى فتاة ميتة على أى حال . سيقتلها أهلها بالتأكيد ..



جلست على مقعد فى مواجهة كاثرين وقلت مغلوبا على أمرى : أرجوك إذن أن تساعدنى على أن أهدأ . سالتك من فضلك من هى مليكة هذو ؟ وما معنى أنها الغولة ؟ وما الذى حدث فى هذا البيت ؟

ضحكت ضحكة عصبية وقالت : انتظر قليلا إلى أن أهدأ أنا !
عادت تسترخى فى مقعدها ، وأخذت نفسا عميقا قبل أن تقول بصوت مجهد :
مليكة لا أعرفها ، رأيته دقيقة واحدة فى أغورمى ..
ثم توقفت مرة أخرى واستدركت : وأظن أنى رأيته مرة ثانية . كان هناك صبي يراقبنى حين ذهبت إلى معبد أم عبيدة أظن أنها هى أيضا جاءت منتكرة مثلما فعلت اليوم .

- إذن فهى تراقبك منذ مدة . سترجع إلى هذه المسألة ، ولكنى سالتك من فضلك ما معنى أنها غولة ؟

تكلمت كاثرين وحاولت أن أركز ذهنى لكنى عجزت عن استيعاب كل ما قالت .
سألتنى أولاً: هل لاحظت أن ثوب مليكة الأصلى أبيض ؟ هل لاحظت أن شعرها غير مضفور ولا مصفف؟ هل لاحظت أنها لا تلبس أى حلى وأن وجهها يخلو من أى زينة حتى من الكحل فى العينين الذى تكتحل به كل البنات ؟

.. هل تمزحين يا كاثرين ؟ بالطبع لم ألاحظ أى شئ من ذلك وحتى لو لاحظته لما اهتممت . أنا لم أر هنا من البنات غير الصغيرات وهن يلعبن فى الطريق ولا أعرف ماذا يلبسن أو كيف يتزين عندما يكبرن ، فما أهمية هذا ؟

ردت أنها هى أيضا لم تر النساء لكن كل شئ مدون فى الكتب التى قرأتها عن الواحة . الثوب الأبيض هو زى الحداد للأرامل هنا ، وحين نضت مليكة ثوبها الرجالى ونزعت لثامها فرأت ثوبها الأبيض المتسخ ووجهها العاطل من كل زينة أدركت على الفور أنها أرملة وعرفت أنها تعيش العقوبة التى يفرضونها على الأرامل فى هذه الواحة . قد لا تكون عقوبة بل مجرد رعب متوارث من الموت.

لا، ليس من الموت، بل من المرأة بالذات لأنهم لا يفرضون هذه العقوبة على الرجل الأرملة، هو حر فى أن يتزوج حتى قبل أن يمر شهر على وفاة زوجته . أما الأرملة فيجب أن تنتظر طويلاً حتى تتطهر من الروح التى تلبستها وجلبت على زوجها الراحل الموت . تظل سجيئة أربعة أشهر وعشرة أيام . لا تغير ثوب الحداد مهما بلغت قذارته . لا تستحم ولا تتزين . لا تلبس أيا من حليها ولا تمشط شعرها . ولكن قبل كل شئ وأهم من أى شئ أنها يجب ألا تخرج من بيتها حتى لا يقع عليها بصر أحد . فمن يرى الغولة خلال هذه الفترة كما يسمون الأرملة لابد وأن يصيبه الهلاك لأن ملاك الموت يتقمصها . عليها فى فترة، التطهر ألا تكلم أحداً وألا يكلمها أحد، إلا من تواتبهم الجراء من أقرب أقرائها ولا يكون ذلك إلا من وراء جدار . يستمر ذلك كله طوال أشهر التخلص من الشر الذى تجسده الأرملة بمجرد موت زوجها، وفى نهايتها فقط يحق لها أن تستحم فى أحد عيون الواحة وأن تسترد حليها وزينتها . لكن الخطر يكون ساحقاً فى ذلك اليوم . يدور المنادى فى طرقات البلد محذراً: الغولة أتية إليكم فاحذروا سوء المصير! يلزم الجميع بيوتهم لأن شؤم الغولة يكون قوياً جداً فى اللحظات التى تسبق تطهرها من روح الموت . ومن يراها فنصيبه الهلاك .

كنت أستمع وأنا لا أصدق أذننى، فأستوقف كاثرين وأجعلها تكرر ما قالت مرة ومرتين لكى أفهم ، ومع ذلك فانتتنى تفاصيل كثيرة . وعندما انتهت قلت دون تركيز:

أسمع المنادى كثيراً يتحرك ما بين شالى وأغورمى لكنى بالطبع لا أنهم شيئاً من كلامه ..

ولم يكن هذا ما أريد قوله فساالتها حين استجمعت نفسى :

وما هو إذن عقاب الأرملة التى تنمرّد على هذا السجن ؟

- تقصد ماذا سيكون عقاب ملكية ؟ لا أعرف . لم أقرأ فى الكتب شيئاً عن ذلك .

لم أقرأ أن أرملة تمررت على هذه الطقوس .

- لكنك قلت إنهم سيقتلونها .

- كنت أضمن فقط ..

وتوقفت لحظة ثم قالت بحرارة : أتمنى أن أكون مخطئة . أتمنى ألا يفعلوها وأن تنجو مليكة ! لكنى أخشى عليها لأنها ارتكبت محرمات كثيرة ضد تقاليدهم . خرجت وهي غولة قبل أن تتطهر ، وجرؤت أن تأتي من أغورمى إلى شالى فنشرت اللعنة المهلكة في البلدة كلها حسب تصورهم .

صحت وأنا أنهض من مكاني: وجرؤت أيضا على أن تعتدي عليك . لا تنسى هذا .

لوحث كاثرين بيديها متظاهرة بعدم المبالاة وقالت : هي طفلة . وربما تكون مجنونة بالفعل وقد عاقبناها بما فيه الكفاية . ربما أكثر من الكفاية . لن أسمع نفسي أبدا على ما فعلت .

غير أنى لم أستطع أن أشارك كاثرين هذا الصفع المفاجئ . اختلطت أفكار كثيرة في ذهني . يجب أن أنتقم ! لا بد أن أثار ممن اقتحمت بيتي واعتدت على امرأتى . طفلة أو كبيرة . مجنونة أو عاقلة. غولة أو ملاك. أنا لا أستطيع أن أغفر هذا !

قلت في غضب : ولماذا اختارت هذه الغولة بيتنا دون كل البيوت ؟

فطلعت كاثرين نحوى في دهشة وقالت: هل من المعقول أنك لم تفهم بعد ؟

ثم صاحت إلى أين أنت ذاهب الآن ؟

فخرجت دون أن أرد .



١٢ - الشيخ صابر

رعب أكبر من كل نبوءاتى حلّ بكم يا أهل بلدى! كنتم تسخرون من النبوءات
فها قد جاءكم ما يزرى بها. الرعب الذى لا كاشف له والذى دخل بيوتكم منذ
خرجت عليكم الغولة. تستدعون الشيوخ والساحرات لمعرفة ما يمكن أن يخلصكم
من اللعنة التى تسرح فى الواحة.

لم تخرج الغولة إلّا بعد ظهر الأمس لكن فى الليل كان العويل يملأ البلد من
شالى إلى أغورمى. نسوة أجهضن فى المساء وأطفالهن أصابتهم الحمى نون
سابق مرضى! نخلات كانت عفية فى الطريق إلى أغورمى سقطت ميتة بعد أن
مرت بها الغولة! وحرائق شبت فى بيوت لم تكن بها جمرة واحدة تشتعل! فى كل
لحظة يأتى نبا من بيت أو بستان عن مصيبة جديدة، ويرتفع بكاء وصراخ من كل
البيوت التى مرت عليها الغولة أو وقع عليها بصر واحد من رجالها وأطفالها.
يتوقعون كارثة فى كل لحظة ولا يعرفون سبيلا لمنعها.

أتاكم يا أهل بلدى ما تستحقون. أنا أيضا لست بمنجى من أن ينقض على
ذلك الطائر المخلوق فوق رموس الجميع، غير أنى لا أبكى عليكم ولا على نفسى.
فلتكتسح النقمة الجميع ولو هلكت معكم، لكنى سأحاول قبل النهاية أن أنقذ طعم
الثار الذى اشتقت له عمرى كله.

وها أنذا أنتظركم أيها الأجواد على أحر من الجمر. أجلس فى سقيفتكم من
قبل أن تطلع الشمس.

لن أغفر لأحد، لا للغربيين ولا للمصريين ولا حتى للشرقيين، لن أنسى ما
أصابنى منهم جميعاً. قد جاءت اللحظة التى انتظرتها طويلاً وسيكون جمعكم كله

أداة طيعة فى يدي. لم أتوقع أبدا أن تأتى الساعة بهذا الشكل ولا لهذا السبب، ولكن فليكن. كل الطرق تصلح.

الرب الذى ترهبونه سبق إلى وأنا فى الخامسة من عمري، عندما دبّر يوسف الغربى مكيدته لأبى واشيوخ الشرقيين. هو أكثر من أمقت من الغربيين ولكنى أسلم له بأنه أحسن تدبير مكيدته. لم أفهمها إلا بعد أن كبرت وبعد أن فأتت فرصة الانتقام منه. لكنى درست كل خطاه لكى أتعلم.

أعيدها على نفسى، أتأملها وأحفظها حتى لا يفوتنى شيء من غيرها وتقاصيلها. بدأ بأن أشاع الفوضى فى الواحة عامدا عندما لم تكن للمصريين قوة كافية هنا. حرّض زجالة الشرقيين على محاصرة خيمة أحد الأوروبيين الملاحين الذين يأتون لسرقة الآثار من المعابد والمقابر وأوعز إليهم أن يقتلوه ويحرقوا خيمته ومتاعه.. لكنهم من قبل أن ينفذوا ما حرّضهم عليهم أرسل يستدعى الرجل وأبلغه أنه سمع أن حياته فى خطر ولهذا فسيستضيفه فى بيته ويحميه. وعندما وصل زجالة الشرقيين لم يجدوه فسلبوا متاعه وأحرقوا خيمته.

كان يوسف يعرف أن المصريين يعملون ألف حساب لسلامة هؤلاء الأجانب، أكثر من سلامة أبنائهم أنفسهم، فابقى الرجل فى بيته أياما ثم سافر معه خلسة إلى مصر. وفى القاهرة قال الأجنبى المخدوع إنه لولا يوسف لفقد حياته ولاحترق مع خيمته، فكافأ المخدوعون هناك يوسف بأن عينوه عمدة للواحة وأرسلوا معه قوة كبيرة من الجند المصريين ومن البنىو كانت سبب بلوتى.

خيم العمدة الجديد بالجند على مشارف البلد وبعث رسولا إلى شيوخ عشيرتى الذين تحصنوا فى البلدة وأعدوا السلاح للدفاع عن أنفسهم، أبلغهم بأن المصريين لم يأتوا محاربين وأن الشرقيين لو أرسلوا وقدا من شيوخهم فسيبيرمون معهم صلحا يعيد السلم إلى الواحة. اتخذ قوما أيضا بمكيدة يوسف وذهب جمع منهم إلى معسكر المصريين، لكنهم ما إن وصلوا حتى قيدوهم جميعا بالسلاسل

وأعلنوا أنهم سيشتقونهم. ما لم يلق بقية المتحصنين في شالي السلاح ويسلموا كبراءهم. وعندما جاءوا لأخذ أبي صرخت وأنا أتشبث به فصريرني واحد من الجنود بعصا كبيرة شجّت رأسي وصفتّ ماء عيني.

لا أنكر شيئاً من طفولتي غير تلك اللحظات من الرعب، ما زالت تنقض على رأسي حتى الآن عصي غليظة وكثيرة تذكرني بهم في المنام كما تذكرني بهم في الصحو، عيني اليسرى التي لم أعد أرى بها إلا خيالات، ويذكرني بهم يتمي وضعف حيلتي في طفولتي وصباي. لكنني تعلمت لدرسي منذ الصغر، أن أصمت ولا أبوح بما في نفسي.. في البدء كان الصمت وإيد الخوف الذي جعلني أنزوي وأهرب من صحبة الناس، ثم أصبح بعد ذلك عادة نافعة، تذكرني بيوسف الذي استعان بالكتمان وبالحيلة ليصل إلى ما يريد. جعلت هدفي أن أكون مثله لأنتقم من قومه.

لم أدرع أحداً يعرف حتى أنني لا أرى بالعين اليسرى سوى هذه الخيالات. مادامت تبدو سليمة فليعتقدوا أنها سليمة. وعندما أراد أعمامي بعد أن حفظت القرآن هنا إرسالني إلى الأزهر لأتعلم لم أقل إنني لا أحب مصر وأهلها، بل رجوتهم أن أتعلم في تونس. ولم أندم أبداً على أنني تعلمت في جامع الزيتونة. قابلت هناك شيوخاً من جنوب البلد أفهم ما يقولون ويفهمون لغتي، ويعرفون بلدي وقبائلها.

وهناك قابلت الرجل الذي زوّجني بكتاب النبوءات. رأيت في المسجد يحرق في وجهي حتى أخافني بريق عينيهِ. كان عجوزاً فانياً لكنه لاحقني حين خرجت وجذبني بقوة فكنت أسقط على الأرض. كلّمني بلغتنا من نون لهجة أهل تونس وقال لي أنت من كنت أنتظروا! أدركت في التو أنه من عشيرتي لكنني سألته متهيّباً وأنت من تكون؟ اكتفى بأن أزاح كم جلبابه عن يده الأخرى فرأيت ساعداً مبتورا من منتصفه ثم رفع رأسه فرأيت ندبة غائرة بعرض رقبته تكشف لحماً أبيض

لايفطيه جلد، وقال لى أنت الذى دلتنى عليه النجوم، أنت الذى ستثأر لى ولنا من الغريبيين.

خفت منه ولكنى لم أثق فيه وأردت أن أختبره. قلت هناك من الغريبيين من جرحوا مثل جروحك فى حروبنا وربما أسوأ منك. لم يهتم بما قلت وواصل كلامه: قضيت عمري هنا فى مطالعة النجوم وحساب الأفلاك وقرأت طالع واحتنا ككتاب مفتوح، لن يكون سلام فى الواحة ما لم يخل وجه الأرض لنا نحن أو لهم هم.

ذكرنى كلامه بشئ، فقلت: حاول واحد من شيوخ الغريبيين أيضا أن يخلو لهم وجه الأرض فلم يفلح. قال: أعرف ولكن أنت ستفلح، مكتوب أنك ستفلح، وإلا فستحقق تلك النبوءات كلها، ما لم تقض على أعدائنا فسيكون مصير أحيائكم كمصريى. أئذرقومك، ثم زودنى بنصيحة أخرى ما كنت بحاجة إليها - أن أزم الحذر والكتمان لأن عشيرتى لا تستجيب إلى نصح أو نذير، دأبهم العناد وهو دأب الغريبيين أيضا، ويمكنتى أن أصل بالحميلة إلى ما لا أتركه بالقتال. وكنت أحفظ هذا الدرس من قبل أن أسمع، وتعطشى للثأر من أعدائنا يفوق تعطشه - أنا لا أذكر حتى ملامح وجه أبى لكنى لا أنسى حقدى على من قتلوه، أليس من العدل أن أثار له ونفسى؟

لم أعرف مدى صدق نبوءات ذلك الشرقى المهاجر لكنى أكرها متمنيا وقوعها وأكرها أيضا لأخوفهم بها، بالخوف وحده أستطيع أن أحكمهم.

كل ما فعلته عشيرتى حتى الآن لا يشفى غليلى، صحيح أنهم قتلوا العمدة يوسف فى معركة قبل أن يهتأ بالمنصب عاما واحدا، وأنا انتصرنا على الغريبيين بعد ذلك فى حروب أخرى، لكن انتصارنا لم يكن هو ما أحلم به، لم يكن نهائيا بحيث تخلو لنا الأرض كما تمنى كاتب النبوءات، بل نغلبهم ويقلبوننا، نأثف ثم نفقأ أيتلافنا، وسيستمر ذلك إلى ما شاء الله ما لم نحسن التدبير أفضل حتى مما أحسنه العمدة يوسف.

فكرت من زمن فى أن الحل هو الرقعة الشاملة بين الغريبيين والمصريين دون

أن يبدو أن لنا دخلاً بالأمر. لهذا أدارى هؤلاء وأولئك على السواء. أبداً لهم ملاك السلام متمنيا اللحظة التي أصبح فيها ملاك الهلاك لهم، وأحاول كسب ثقة هذا المأمور النافر الذي حل علينا هو وزوجته الملعونة كالقذر.

تظاهرت أيضاً بحماسي لعلاج الشاويش مساييرة لأهل الطفل الذي أنقذه من عشيرتنا مع أنى ما كنت لأشعر بئى حزن عليه لوبق الحجر رقبته، وسنحت فرصة كبيرة أهدرها قومي كعادتهم، شجعتهم على أن يسدوا الخراج نون الفريين، أعرف أن امتناع خصومنا ونقص الخراج سيعجل بحملة جديدة من العسكر، وفي هذه المرة سنكون نحن الأبرياء وتكون الحرب بين المصريين والفريين وحدهم، ويمكن أن أشعل وقودها من بعيد كما فعل يوسف. شرحت لقومي - ولكن بحذر شديد - ما يمكن أن نكسبه لو التزمنا نحن بالسداد وتركنا لخصومنا التمرد والعصيان، لكن الفرور ركبهم: لن ندفع ما لم يدفعوا! كيف نبادر نحن بالسداد قبلهم؟

لا بأس. إن تكن هذه الفرصة قد فاتت فمرحبا الآن بمصافة الغولة. وفي هذه المرة سأعمل على أن تكتسبهم.

ما الذى يمكنك أن تقوله أو أن تفعله الآن يا يحيى الدفاع عن مليكة؟ أعرف أنك ستكون كالعادة أول الواصلين لكنى أنتظر فى السقيفة منذ زمن. تلسد على أمرى دائماً بطيبتك الزائفة وتاريخك الزائف. تنقع المخدوعين بأنك فوق الشقاق والضلاف، لا أنت مع قومك ولا معنا، ولكنى لا أصدقك، أجدك أخبث أهل البلد، لكنى أصبر عليك كما أصبر عليهم. فليساعدنى الله اليوم على أن أخفى شمانتى. أنقذكم أيها الفرييون من القتال موت معيد، لكن ما الذى يمكن أن يتفذك اليوم مما فعلته مليكة؟ لا يوجد اليوم داع حتى لأن أنكلم، بل الأفضل ألا أفتح فمى. كل شىء يسير حتى الآن كما أهوى. أسمع نهيق حمراك قادما من أغورمى وسأعانقك يا يحيى عند وصولك مثلما اعتدت وأنا أحلم أن تتلاشى تراباً بين نراعى.



يكتمل عقد الأجواد مبكرا عن كل يوم. فى وجوه كبار شيوخ الغريبيين، إدريس وعبد الماجد ويحيى وجوم وقتامة وأرى فى وجوه شيوخ عشيرتى سلام ونافع وعبدالله غضبا مكتوما ولكن يعلو ذلك كله الذعر الذى يطل من وجوه الجميع. إذن سأزيدكم غمًا.

قلت بصوت حزين وأنا مطرق الرأس: طلبنى المأمور بالأمس لكنى لم أفهم ما الذى يريده بالضبط. يريد أن نعاقب مليكة وأسرتها ومن سمح لها بالخروج وإلا فسيأخذ ثاره بيده.

ارتفعت أصوات الأجواد جميعا تلعن المأمور وزوجته واليوم الذى حل فيه بأرضنا وقلت فى سرى: آمين!

وقال الشيخ عبدالله: ألم يكن من الأفضل لو أننا أخذنا بما قاله الولد مبروك وقتلناه هو وزوجته منذ نزل بأرضنا ومعهما نذر الشؤم؟ فقال الشيخ نافع: أردنا يومها أن نهرب من مصيبة فوقعنا فى المصيبة الأكبر...

وقاطعه الشيخ عبدالماجد: لا تضيعوا الوقت فيما لا يفيد. ما العمل الآن فى النكبة التى حلت ببلدنا؟ ما العمل فى دنس الفولة الذى نشر الشراب فى كل مكان؟

ساد صمت ثقيل لم يقطعه بعد فترة إلا صوت الشيخ يحيى الذى جاء ضعيفا على غير عادته وكأنه هو نفسه لا يصدق ما يقول: سمعت عن المصائب التى حدثت ورأيت فى الطريق من أغورمى نخلة ساقطة. ولكنى أعرف أنها كانت نخلة معطوبة منذ مدة و...

قاطعه الشيوخ غاضبين وهب بعضهم واقفا وهم يتصايحون: ما معنى كلامك؟ فى بيت جارى كل الأولاد أصابتهم الحمى... العقارب السوداء زحفت من تحت الأرض وملأت البيوت كالنمل... رأيت بعينى شجرة زيتون تحترق...

سنموت جميعا لو استمر هذا الحال.. ألا تسمع البكاء في كل البيوت؟
ابتسمت لنفسى وأنا أراهم يكادون ينقضون عليه، لكن يحيى انتظر إلى أن
سكتوا والتفت نحو الشيخ سلّام الذى تنوّن أسرته أياً عن جد أخبار واحتنا فى
سجل مكتوب وسأله عما كان يفعله أجداننا عندما تحل بهم هذه النكبة.
فردّ عليه سلّام: لم تنزل ببلدنا مصيبة كهذه من قبل. أعرف هذا عن يقين، ومع
ذلك فقد راجعت بالأمس المخطوط الذى يجمع كل الأخبار فلم أجد أى إشارة.
قال الشيخ إدريس والحزن يغلب على صوته: لو قتلنا ابتنتا فهل يحو قتلها
نفس الغولة؟

سكت الجميع. أعلم أنهم كانوا ينتظرون سماع ذلك لكنى لم أتمالك نفسى
فقلت: سيرضى هذا سعادة المأمور فيرفع عنا غضبه.
انفجر الشيخ إدريس ثائرا: عليه غضب الله هو وزوجته جالبة المصائب! أنا لا
أفكر فيما يرضيه أو يسخطه. أمره أهون عندي بكثير من مصيبة الغولة وسنتتهى
من أمره الآن بإذن الله...

نظر له بقية مشايخ الغريبيين فى تأنيب وأشار له بعضهم بأيديهم محذرين،
ولكن يحيى لم ينتبه لذلك كله.

قال الشيخ نافع: إهدأ يا إدريس ودعنا نفكر. ألم تسمع سلام يقول إن تلك
أول مرة تقع فيها هذه النكبة بالواحة؟ أهل البلد ينتظرون أن يجد شبيخهم حلا.
كأنه فتح أمام يحيى سبيل النجاة فرفع صوته وإن ظل مع ذلك ضعيفا
ومترددا وهو يلتفت إلى سلام سائلا: ماذا يقول المخطوط يا شيخ سلام عما كنا
نفعله بالنسوة عندما يصيبهن الجنون؟

ردّ سلام بدهشة: أى سؤال هذا يا شيخ يحيى؟ كنا نفعل مثلما نفعل الآن -
نستدعى شيوخا حافظا للقرآن يعرف الأدعية التى تخرج الجن من جسد المرأة ثم
نسجن المجنونة إلى أن تشفى أو تموت. لكن هذا ليس جنا يقتصر أذاه على من

يتلبسه. هذا شر مستطير عمل له أجداننا ألف حساب. حاصد أرواح وناسر خراب يتلبس الغولة. عرف أسلافنا خطره ففرضوا على الأرامل الحبس إلى أن ترحل عنهن روح الهلاك...

قال الشيخ عبدالله ببساطة: إذن فلنعمل ما قاله الشيخ إدريس وأمرنا إلى الله فلنقتلها بسرعة لترحل عنا هي وشرها.

فجأة ارتفع صوت يحيى بغضب المعهود: هل نحن هنا لنجد حلاً أم لتكرروا واحداً بعد الآخر نقتل نقتل وكأن من تلبسكم أنتم جميعاً هو عزرائيل استغفر الله...

رأيت يحيى يتخبط كصيد في فخ فوجدتها فرصة لالقي سهماً وقلت بهدوء: مهما يكن ما فعلته مليكة يا أجواد فحكايتها الآن لا تخص أسرتها وحدها.. تلقف الشيخ عبدالله الخيط الذى مدته فقال: صدقت يا شيخ صابر. مليكة ابتنتنا جميعاً والخراب الذى تنتشره يصيبنا جميعاً فليس للغربيين الآن أن يكون لهم وحدهم الرأى..

ظل يحيى يتخبط فى الغضب: هل سمعتنى أو أيا من أجواد الغربيين الآن ينفرد برأى، أم أننا نتشاور كما نقولون ونسأل الشيخ سلام عما كان يفعله الجنود عندما تحل بنا المصائب؟

فقال الشيخ عبدالله، وفي صوته أيضاً رنة الغضب: بصراحة يا شيخ يحيى، أنت لا تريد أى حل يمس هذه البنت أس البلاء.

قال يحيى عاجزاً عن أن يسيطر على نفسه ولا على صوته: وأنت أيضاً تريد قتلها؟ نعم يا شيخ عبدالله مليكة ابنتى وأنا أحبها، لكن لو أعرف يا أجواد أن موتها يزيح عن الأرض الخراب الذى تتكلمون عنه.. لو أقسمتم أنكم تعرفون أن قتلها هو الذى يرفع اللبس عن البلد فلن أقف فى طريقكم.. ولكن ماذا لو ماتت وظل كل شيء على حاله؟

تبادل الأجواد النظرات لكنهم لم يكونوا يستمعون الآن إلى ما يقوله يحيى.
كانوا يرهقون السمع إلى ضجة آتية من ناحية حدائق أغورمى فانشرح قلبى.
مرّ فى الطريق تحتنا بعض زجالة الغريبين وهم يجرون حاملين بنائقهم نون
أن يرفعوا رؤسهم نحونا، ثم انضم إليهم عشرات أسفل البلدة يحملون البنائق
والرماح والعصى وهم يصيحون بهتافات الموت للمأمور والكفار وأطلق بعضهم
عيارات نارية وهم يمشون فى اتجاه قسم الشرطة.
أدرك الشيخ يحيى ما يحدث فوقف يتكلم صارخا ليطو صوته على ضوضاء
الطريق:

يا شيخ صابر أوقف هؤلاء المجانين! هم الذين سيجرّون على البلد الخراب..
رفعت صوتى أيضا ليسمعنى: وهل يمكن أن يصيبنا خراب أكثر مما نحن فيه
يا شيخ يحيى؟ هم رجالكم فلو قفهم أنت.

اقترب من الشيخ عبد الماجد وانحنى فوقه وراح يهزه من كتفيه:
تعرف أنى لا أستطيع أن أجرى ولا أن ألحق بهم. أنت شاب يا عبد الماجد
فاجر وأوقفهم! قل لهم إننا جرّينا ذلك من قبل فلم نجن سوى الحرب والمشائق
والسجون.

أحنى عبد الماجد رأسه لى لا يواجه يحيى وقال بصوت سمعته بالكاد:
فات الوقت يا شيخ يحيى.

اعتدل يحيى، وقف يلقّب بصره بين الجميع وقال بصوت متهدج:
إن فقد اتفقتم على هذا من قبل أن نلتى. أنا الوحيد الذى أجهل؟
قررتم البدء بالمأمور ثم تستديرون إلى مليكة؟ كان كل تشاوركم كالعادة كذبا
فى كذب؟

أراد أن يصرخ لكن صوته اختنق وهو يقول: واو حاريتكم وحدى!

لم يرد عليه أحد. وأوردوا لما سمعهم وسط طلقات البنادق وهتافات الزجالة فأسرع خطوه مترنحا وهو يتكئ على عصاه يريد أن يهبط التل، لكن بينما يتأهب للتزول ساد صمت مفاجيء.

توقفت الطلقات والهتافات وتطلعننا جميعا فى اتجاه قسم الشرطة.

وقفت أنظر فرأيت الزجالة وفي وجوههم نعر، وتطلع بعضهم نحونا وهم يشيرون محذرين نحو الجنوب فى اتجاه قسم الشرطة، لكن قبل أن يقولوا أى شىء كانت كرة من النار تنفثت فى السماء وتتساقط مطرا من شرارات اللهب ثم أعقبها الرعد الذى هب له الشيوخ صارخين والأرض ترتج والسقيفة ترتج وتتساقط جريدها فوق رؤسنا شظايا وتُرابا وصياح النسوة أعلى حتى من نوى الانفجار وكل الزجالة الذين هاجموا مركز الشرطة يرجعون متخططين يدفع بعضهم بعضا ولا يرفعون من يسقط منهم على الأرض لكن بعضهم وجدوا الوقت أثناء فرارهم ليلتفتوا نحونا ويصرخوا كأننا لم نفهم بعد: المدفع!

كان الشيوخ يدورون حول أنفسهم ينفضون عن أنفسهم التراب وهم يسعلون، ولما اختفت ضجة الزجالة وتفرقوا وتحول صراخ النسوة إلى نحيب هدا روع الشيوخ وإن ظلوا واجمين وهم يرون مكان كتلة النار سحابة بخان بيضاء منورة ثابتة فى موقعها بين الأرض والسماء تعلقت بها الأبصار كأنها تستفهم عن المصير ورائحة البارود تملأ الفضاء.

ولم يتأخر الجواب. ظهر المأمور محمود عبد الظاهر أسفل التل متمطيا حصانه الأبيض يحيط به عدد من رجال الشرطة على جيادهم.

توقف لحظة تحت السقيفة ثم وثب بحصانه وثبتين معتليا التل كأنه يقصصنا قبل أن يتوقف من جديد وينظر نحونا.

تكلم دون أن يترجل عن جواده، قال بصوت عالٍ ولكن بنبرة هادئة مشيرا إلى السحابة البيضاء:

هذه كانت للإنذار فقط يا أجواد. فى المرة المقبلة سيدك المدفع أسوار بلكم
وبيوتكم كما جرىتم من قبل فى حملة الجيش..

لوى عنان حصانه ليعود من حيث أتى لكنه توقف مرة ثالثة وعاد يصيح:
يا شيخ صابر. أريد الضريبة كاملة خلال أسبوع. أبلغنى بأسماء الأسر التى
تمتتع، وأريد أن يأتى غدا إلى القسم بعد صلاة الفجر الشيخ إدريس والشيخ
عبدالله معا.

ثم انصرف مع جنوده وبقي كل الشيوخ صامتين، وظللت أنا أقف ذاهلاً. حتى
بعد أن أحكمت التدبير... حتى بعد أن ساعدني القدر بكارثة الغولة... حتى وهى
هذه المرة بين المصريين والغريبيين وحدهم!

وقع بصري على يحيى الذى تجعد فى مكانه عند منحدر التل موليا لنا ظهره
منذ غادر الجمع. التفت برأسه نحونا مرة واحدة وهو يهز رأسه كأنما فى حزن
قبل أن يواصل هبوطه فى بطة.

تمتعت كائى أخاطبه - لا يهم يا يحيى. ستكون هناك مرة أخرى!



١٣ - كاثرين - محمود - الشيخ يحيى

كاثرين

هل حدثت كل هذه الأشياء بالفعل من الأمس إلى اليوم؟
جاءت مليكة وتعانقنا وتشاجرنا وأوشكت أن أقتلها، ودوت في الواحة طلقة
مدفع ثم أصبحت أنا الغولة السجينة بدلا من مليكة؟ هل كل هذا الكابوس
صحيح؟

منذ ساعة أصبحر محمود أمره أن أبقى في البيت، لا أخرج منه ولا أفتح بابه.
كان متعجلا يريد أن يخرج وأنا أسمع سهيل خيول أسفل منزلنا، وجنوده في
انتظاره ليعودوا معا إلى القسم بعد أن أطلق المدفع. قبضت على ذراعه وأوقفت
بالقوة وطلبت أن يشرح لى السبب. قال بنفاد صبر وهو يحاول أن يخلص ذراعه
من يدي إن حياتي في خطر. البلد تعتبرني أنا المسئولة عن كل ما حدث منذ
خرجت مليكة من بيتها. سألته في غضب وهل أنا التي طلبت أن تأتي أم هي التي
اقتحمت بيتنا؟ الخلل في الحقيقة خطؤه هو من البدء. هو الذي طرد مليكة من
البيت بفضيحة، وهو الذي هدد أهل البلد طالبا ثارا لم يفهموه ولا فهمته أنا.

رد قائلا إن ما حدث قد حدث ويجب أن أفهم الآن أن الهوى الذي يسود
الواحة بعد طلقة المدفع هدوء زائف. هم يبدون الآن شيئا بكل تأكيد، فلأيق في
البيت إلى أن يجد حلا. صرخت أني لا يعني تهديدهم وأنى أفضل الموت على أن
أبقى سجينة، فصرخ بدوره وهو ينتزع ذراعه أنني أستطيع أن أموت حين أشاء
ولكن ليس هنا وليس بسببه ولا تحت مسئوليتي. خرج غاضبا وهو يقول إنه سيضع
جنودا أمام البيت لمنعى بالقوة إذا ما فكرت في أى تهور، وسمعته يفلق الباب
بالمفتاح من الخارج.

لم تمض سوى ساعة لكن السجن الإجبارى يخنقنى. أبقي أياما كثيرة فى البيت لا أغادره - أقرأ وأكتب، وإنما باختيارى. الآن لا إرادة لى، محمود يريد ليصبح مايكلا وأنا؟ ماذا أصبحت؟

لم أجد عندى أدنى رغبة فى عمل شئ فاستسلمت للرقاد فى الفراش محدقة فى سقف الغرفة. ما الذى يحدث لى بالضبط؟ ألوم نفسى منذ الأمس وصورة مليكة لا تفارقنى... إن يكن محمود قد ضربها وركلها قاتنا أوشكت أن أقتلها بالفعل. نهاية سيئة لبداية جميلة.

فرحت حين فتحت لها الباب وخفق قلبى بالفرح حين رأيت وجهها الجميل بعد أن نزعنا لثامها. وتقدمت هي بارتباك فى الصلاة وراحت تشير نحوى وتشير إلى نفسها ثم أخرجت من لفافة قماش مطوية تمثالين حجريين صغيرين لامرأتين، وقدمتهما لى وهى تبتسم.

تأملتهما بدهشة، تمثالان بدائيان لكن فى نحتهما رشاقة أنثوية وانسيابية تليقان بتكوين المرأة. أين عثرت عليهما، ولماذا تقدمهما لى؟ نظرت لها بدورى مبتسمة ومستغمة فاقتربت منى وأشارت إلى رأسى التمثالين فأخذت أنظر إليهما مذهولة. كان لأحد التمثالين ملامح وجه كوجهى وللآخر ملامحها هى. سألتها بالعربية وأنا أمد نحوها التمثالين: من؟

أردت أن أسأل عن نحتهما لكنى لم أعرف كيف أنقل لها ما أريد، فأمسكت هى بالتمثالين وراحت تقرب الواحد منهما من الآخر فيصطكان ثم تعود فتشير إلى وإلى نفسها ثم رفعت التمثالين أمام وجهى وقاربت بينهما كأنهما يتعانقان. ظللت أنظر إليهما. كانت ظمأنة على ما يبدو لأنها كانت تعلق شففتيها الممثلتين بلسانها. لكنى لم أعرض عليها أن تشرب. كأن عقلى توقف فجأة عن العمل فوقفت مشدودة البصر إلى شففتيها القرمزيتين وإلى عينيها الرمانيتين الأسرتين.

شجعها صمتى وابتسامتى فوضعت التمثالين على المائدة واقتربت منى فى

تردد، واجهتني حتى أوشكت أن تلتصق بي وأنفاسها اللاهثة تلمح رقبتى، ثم رفعت يديها ببطء وأحاطت بهما كتفى واحتضنتني بمنتهى الرقة فمددت ذراعى حولها واحتضنتها بنورى لكنني فجأة صرخت «لا» وبفعتها بعيدا عنى وكانت هي تتشبث بكتفى فتمزق ثوبى وأنا أدفعها بعنف وأكرر «لا، لا أنا لست سافو» لم تفهم مليكة أى شئ فوقفت بعيدة عنى تطل بنظرة جريئة ودموع تتجمع فى عينيها، ثم راحت تتكلم بسرعة بلغتها وأنا أكرر: أنا لست سافو فعادت إلى تمثالها تضم أحدهما للآخر وأنا أمز رأسى لا لا بتصميم وغضب، فالتقت التمثالين فى الأرض بعنف فتحطما واقتريت منى وأدركت من لهجة كلامها أنها تنوёл إلى أن أفهم ما تقول رغم جهلى باللغة ثم ركعت أمامى على الأرض واحتضنت ساقى بأصابع متشنجة وهى تبكى بكاء خافتا ثم شبت على قدميها ببطء دون أن تفلت أصابعها عن ساقى ثم فخذى ثم وسطى قبل أن تدس رأسها وتقبلنى بين نهدي المكشوفين بشفتيها المبللتين بدموعها ولعابها - ويعاودنى السؤال من لحظتها حتى الآن، هل كانت الرعشة التى شملتني عندئذ اشعرأزاً أو لذة؟ هل اختلطت جريدة النخل وضربتها بها عندما عادت تركع تحت قدمى لاعاقبها أو لاثبت أن هذا الإغواء لا يمكن أن يلمسنى؟

رحت أكرر لنفسى «أنا لست سافو» نعم أحفظ أشعارها عن تلميذاتها وعشيقاتها لكنى لست مثلاً. وكنت أتمتع لنفسى فى انفعال بهذه الجملة الوحيدة «لست سافو، لست سافو» وأنا أقاوم أن أمد يدي من جديد فأرفعها من الأرض وأدس وجهها فى صدرى لكنى بدلا من ذلك اختلطت جريدة النخل ورحت أضربها وأخيرا أوشكت أن أقتلها، هل كنت فى الحقيقة غاضبة منها أو من نفسى؟ غضبت لأنها قبلتني أو للرعدة التى شملتني حين قبلتني؟ وأسأل نفسى منذ الامس لماذا لم تفارقنى صورتها منذ رأيتهأ أول مرة؟ لماذا انفعلت وخفق قلبى بالفرح عندما طرقت بابى؟ ولماذا أحفظ أشعار سافو إن كنت أرفض حبها

النسوى؟ وأرد على نفسه بأنى أحفظ الكثير من الشعر اليونانى القديم من هوميروس وحتى أشعار «ألكايوس» حبيب سافو الرجولى!
لكن بعد أن انصرفت مليكة قمت أحاول جمع حطام التمثالين اللذين هشمتهما وأحاول تشكيلهما من جديد دون جنوى، تفتتا إلي شظايا لا يمكن إصلاحها، لكن أية أنامل حساسة نختت هذا الجذع ونمتت هذه اليد وهذه الوجنة؟ أيعقل أن تكون هى نفسها، مليكة؟

وبينما كنت أتحسس بيدي تلك البقايا المهشمة كانت تدور فى ذهنى برغمى تلك الأبيات لسافو:

لم أسمع كلمة منها!
عندما فارقتنى كانت تبكى.
تمنيت لو أنى مت...
باحث لى قبلها بكلام كثير
قالت لابد من احتمال هذا الفراق ياسافو
فأنا أفارقك برغمى
قلت إذن فاذهبى واسعدى!

لكن ما كان يوسعى أنا أن أقول للمليكة اذهبى واسعدى وأنا أعرف ما ينتظرها على أيدي أهلها، لو أنها تتجولوا أنها تعود! لا..
أنا لم أكن هكذا أبدا! أنا لست هكذا أبدا!

كأثرين، كم مرة قلت هذه العبارة أخيرا؟ قلتها عندما حاولت أن أستحضر روح الاسكندر، وعندما سعدت بابتعاد محمود عنى والآن عندما خضعت لإغواء مليكة، وإن فمن أكون؟ يوجد شئ هنا يغير الإنسان، فى هذه الواحة المعزولة فى جوف الصحراء السحيق، شئ يغيرنا، لا يجب أن أستغرب أن يطلق محمود المدفع ليصد جيشا من الحفاة بعد أن تحول بفرابة من كاره للواحة إلي عاطف على

أهلها . دعك الآن من محمود . ماذا عنك أنت؟ أريد أن أقول كلانا تغيير في هذه
الواحة لكن لماذا لا يكون الأمر هو العكس؟ لماذا لا يكون كلانا في هذه الواحة قد
وجد حقيقته؟

لا هذه ليست حقيقتي...

لكني لم أسمع كلمة منها عندما فارقتني...



مضمون

لا يمكن الآن التوقف أو الرجوع إلى الوراء، أنا مسئول الآن فقط عن هؤلاء الجنود الذين يركضون ورائي بخيولهم، لكل منهم أسرة وبيت وأحباء بعيدا عن هنا، كنا قرييين جدا من الموت قبل ساعة، احتجنا إلى معجزة لنقلت من مجزة، الآن نحتاج معجزات أخرى، لا يخدمهم هذا الهدوء ولا يخدمنى.

وصلنا إلى القسم فوزعتهم فى أماكن حصينة جاهزين بيناتهم - وراء النوافذ وفوق سطح المبنى وخلف السور ننتظر ما تأتى به الأحداث.

لا يمكن الآن أن نكرر التجربة نفسها لو جندوا الهجوم. أنا فى الأصل لم أصدق نفسى عندما انطلقت القذيفة، علقت أملى على ألا يكون الصدا والرمال والرطوبة قد أفسدت المدفع وذخيرته معا. وعندما حشوت المدفع وأطلقت القذيفة بنفسى نحو السماء، بعيداً عن البلد، كنت متيقنا أن هذه هى الثواني التى تفصل بين الحياة والموت، كنت قد وزعت الجنود فى أفضل المواقع التى تصورتها للدفاع عن المبنى وأمرتهم بالرد على نيران الزجالة إن هاجموا القسم مدركا أنه سيكون هناك قتلى كثيرون منا ومنهم.

حزننى إبراهيم منذ وصلت القسم مبكرا فى الصباح. قال إن الجو خطير فى البلد. هناك من يحشدون القرييين ضد كاثرين وضد كاثرين قائلين إننا سبب كل المصائب التى حلت بهم، يتهمون كاثرين بأنها دبرت سحرا لتطلق الغولة من سجنها، ويشجعونهم على الانتقام منا لترتفع عن أرضهم اللعنة التى تهلك البشر والحيوان والنبات. نبهنى إلى توقع الهجوم اليوم ونكرنى بأنهم محاربون لا يعرفون الخوف وحين يكون القتال مع غرياء عن بلادهم فإنهم يرمون بأنفسهم إلى

الموت كأنهم لا يرون سلاح الخصم فيندفعون جماعات ويقتلون من أمامهم دون أن يباليوا بمن يسقط منهم.

أرسلت إبراهيم على الفور إلى البيت ليحذر كاثرين من الخروج وفكرت أن أرسل جنبيين لحراسة البيت، لكنى أدركت أنهم لابد أن يبدأوا بى قبل مهاجمة كاثرين، نجاتها تتوقف على نجاتى.

عندها فكرت أن أخيفهم بسلاح المدفع الذى جريت البلد خملورته من قبل. قررت استخدامه للتخويف فقط فتحققت المعجزة. لا أدرى إن كانت قابلة للتكرار أم لا. لكن هذه المعجزة أنقذتهم وأنقذتنا من المذبحة وكسبت لنا بعض الوقت. وكان لابد بعدها أن أمضى فى الطريق نفسه، أواصل التهديد بمنتهى الثقة مع أنى لست واثقا من شئ على الإطلاق! هم فهموا بالتأكيد أنى أنوى إلقاء القبض غدا على إدريس الفريى وعبدالمجيد الشرقى لإرغام العشيرتين معا على دفع الضرائب، سيكون حضورهما صباح الغد اختبارا حاسما لنجاحى فى فرض سلطتى على الواحة. هذا إن جاء الغد أصلا

“بالتطبع أدرك الآن - بعد قوات الاوان كالعادة - أنى أخطأت منذ البداية. لم يكن من المفروض أن أهدد الشيخ صابر ولا أن أصر على الثأر من مليكة وأسرتها. هى بالفعل كما قالت كاثرين طفلة ومجنونة، فأى عاقل يثار من الأطفال والمجانين؟ ثم ما الذى كان يمكن لأسرتها أن تفعله وهى قد فرت دون إنهمم واقتحمت البيت متكررة من وراء ظهورهم؟ ألم تكن تكفى كل الضربات والركلات ثم ذلك الجرح الذى أصابتها به كاثرين؟

والآن يؤكد لى إبراهيم أنهم بعد أن فشلوا فى قتل كاثرين وقتلى فسيتحولون لقتل مليكة لينقذوا أنفسهم من لعنة الغولة. كيف يمكن لى أو لى إنسان أن يفهم هذه العادات؟ لا شئ يمكن أن أفعله الآن لإنقاذ مليكة. إن كانوا سيقتلونها فهذا بسبب خرافاتهم عن الأرامل. حتى ولو لم أطلق المدفع.. حتى ولو لم أقل كلمة

واحدة للشيخ صابر.

لكن إن كنت مقتنعا بهذا كله فلماذا لا أشعر فى قرارة نفسى أنى برئ؟
الأفضل بدل التفكير فيما لا جدوى منه أن أفكر كيف يمكن إنقاذ المجنونة الأخرى
كأثرين. لو بقينا أحياء فلابد أن أبعدنا عن الواحة فى أسرع وقت وأن أطمئن إلى
وصولها إلى مصر بسلام . ولكن كيف؟

أما أنا فسوف أكمل الطريق المرسوم الذى حاولت تجنبه . سأسجن وربما
أجلد، لجمع الضرائب مثلما فعل أسلافي. وأعلى أحاول أيضا ضرب الشرقيين
بالغريبيين أو العكس حسب نصيحة المستر هارفى التى أزدريتها وأزدريته حين
اقترحها .

فإلى أى مصير تمس آخر سوف أنحدر هنا؟



الشيخ يحيى

هل قلت سأحاريكم وحدي؟ أنت تهذى يا يحيى! تحسب أن الزمن يرجع للوراء.
حتى لو لم يرجع الزمن، فمن أجلك يا مليكة سأعيدة قسرا من جديد! أعدك
يا ابنتى.

لكن الحمار يرفض أن يتحرك. ينهق كأنه يبكى ويتوقف أكثر مما يسير ليست
عادته. لم يصبح يعد عجوزا جدا مثلى. حتى أنا يا حمارى أستطيع الآن أن
أركض، فهيا تحركا ربما أصابتك قذيفة المدفع الفاسدة بالذعر مثلما أصابت
الشيوخ، أو هى رائحة البارود تخنقك كما تخنقنى.
نختنق أو لا نختنق أنا أت يا مليكة!

هذه النخلة التى سقطت كنت أشم فيها رائحة العطب كلما مررت عليها
والعقارب السوداء تظهر ثم تختفى، فما ذنب مليكة؟
أفهمك يا ابنتى. أفهم ألا تطيق السجن وأنت الطليقة، أنت وحدك الطائر الحر
وسطنا نحن الجثث القعيدة. لعل كنت يوما مثلك. لا! أنت الأفضل.

تحرك أيها الحمار فبالأمس لم أستطع أن أراها. ذهبت إلى بيت أختى حين
سمعت بما حدث. كان مزناحما بنسوة غريبات طرحن عباءاتهن أمام الباب حتى لا
يدخل رجل. لعل خديجة تعمدت ذلك كى لا أرى مليكة أو أتدخل فيما يدبره لها.
أسرع أيها الحمار فالיום لابد أن أراها.. ولو ذهب كل نساء البلد ورجالها
لنمى!

كيف تريدون من مليكة أن تفهم عاداتكم التى بلغت أنا من الكبر عتيا فلم
أفهمها؟ مليكة الجميلة رسول الموت؟ عقارب سوداء وحرائق فى البيوت والشجر

وأطفال مرضى؟ أنتم المرضى! هذه يامليكة مثل نبوءات صابر المشنومة التي كنت تسخرين منها. لا أنت تفهمين بأى ذنب تسجنين ولا أنا فهمت هذه الضرافة طول عمري.

تثير جنونى مثلها مثل الصروب، حفلات الدم التي لا تكاد تنتهي إلا لتعود. يتلهفون على إقامتها لأهون الأسباب أو حتى دونما سبب. يتشاور أجواد كل عشيرة ثم يتشاورون معا، وفى النهاية الحرب! ما هذا؟ ما معناه؟ حفلات فيها الزغاريد والغناء وفيها الطبول وهدايا أعراسها الجثث والأطراف المبتورة لكنهم يستعملون لها فى جذل. يحددون لها الساعة ويختارون المكان والقاضى. كل شيء ينبغى أن يتم حسب الأصول. فى الموعد المحدد تتراص صفوف عشيرتنا مقابل صفوف عشيرتهم، كل أسرة لها مكان محدد من قديم الزمان مقابل أسرة من الخصوم، وخلف الصفوف تقف النساء. يزغردن ويغنين الأمازيج وعندما يدق القاضى طبلته يبدأ الحفل، يطلق كل المحاربين طلقة واحدة لاغير ثم يتوقفون إلي أن ترفع جثث القتلى. بعدما تعود الطبله والطلقة ويستمر الحفل أياما بأكملها الي أن ينتصر فريق على فريق.

كيف كنت تريدين يا مليكة ألا يملك خالك الغضب من هذه الأعراس الجنونية بأمازيجها وزغاريدها وصراخها وولولاتها وبمائها وطبولها؟ بسببها حاربتهم وحدى. ومن أجلك أنت أيضا ساحاريهم وحدى. مازلت أعرف كيف أستخدم بندقيتى.

هم لم يحكوا لك حكايتى، من زمن توقفوا فى عشيرتنا عن حكايتها للصغار ولكنى أعرف أنهم يتهامسون سرا عن جنون يحيى فى شبابه. لا تصدقنى يا ابنتى. لم أكن مجنونا بل أردت أن أوقف الجنون.

اليوم سأحكى أنا ما لم أقله لك أبدا لكى تفهمى ولكى توقف معا كل الجنون فى هذه الأرض. كانوا يعتبروننى فى شبابى فارس الغريبيين وأشجع رجالهم لأنى

لم أنهزم أبداً في قتال ولم أراجع أمام العدو. لكن صدرى كان يضيق يوماً بعد يوم، حرباً بعد حرب، من هذه المجازر. وعذبتى ضميرى لكل الدماء التى سفكتها فيها. فرفضت أن أشارك قومى فى معركة ظالمة كانوا هم فيها المخطئين، اعترلتهم فجائى الأخوة والأعمام والأخوال. كيف وأنا فارسهم أتخلى عنهم فى ساعة الحرب، كيف أقبل هذا العار؟ فاض الكيل فقلت إن كنتم تريدونها حرباً فلتكن هى آخر الحروب! مامعنى كلامك يا يحيى؟ معناه أن نقاتلهم غير قتالنا كل مرة فننتصر نحن أو يقتصرون، بل نقاتلهم إلى أن يفنواهم أو نفنى نحن! ضحكوا - هل تمزح يا يحيى؟ لا .. لكن هذا شرطى. لا بد أن تنتهى هذه الحكاية إلى الأبد. شرطك غريب يا يحيى لكننا نوافق عليه مادمت معنا ، حتى آخر رجل؟ نعم، حتى آخر رجل، تقسمون على المصحف؟ نعم . نقسم.

ذهبت معهم بعد هذا القسم إلى الحرب . وفى اليوم الأول كنت أطلق النيران وأدير بصرى لأعرف مواضع الضعف فى صفوف خصومنا، أفكر كيف نفيد من ثغراتهم فى قتال الغد وبعد الغد إلي أن يتحقق الوعد بفناء عشيرة منا. لكن قبل أن ينتصف نهار اليوم رأيت بعض رجالنا يتهمون وينسحبون، لم ينفذ صراخى لهم مذكراً بالقسم، ولم تنفع إهانات النساء. ولا شتائمهن لمن يفرون من الحرب. وبعد الظهر وجدت نفسى فى قلة من قومى، ثم وجدتني وحيداً. أبرز من مكمنى وأطلق النار مع كل دقة طبلة على صفوف الشرقيين المتراصة. غير أن رصاصاتهم كانت تلبس بعيداً عني فى كل مرة. كانوا يستطيعون قتلى بكل سهولة لكنهم لم يفعلوها. ثم فجأة . بعد إحدى الطلقات أذنعوا نحوى وألقوا السلاح تحت قدمى وراحوا يقبلون يدي ويقبلون رأسى قائلين إننى أشجع من انجبت الأرض. عرضوا أن أبقى معهم وأعيش وسط الشرقيين مكرماً، لكننى ركبت حمارى ولم أرجع إلى دارى ولا إلى قومى، بل تقدمت نحو الصحراء المتأهة عازماً ألا أعود.

هذه هى حكاية جنونى يا مليكة التى يتجنبون أن يحكوها أعرف أنى أخطأت

يا ابنتي لكن صدقي أنني أحببت قومي حتى تمنيت لهم الفناء ليعيش من يعيش في
سلام، وصدقي أنني مستعد الآن، في سنى هذه، أن أحاربهم وحدي لتوهب لك
الحياة ، من أجزر منك بالحياة في هذا البلد المنكوب بناسه وخرافاتة؟
ولو كانت حياتي هي الثمن يا مليكة؟
فقط لو يسرع هذا الحمار!



عند عين الجوبة رأيت أشخاصا قاسمين من ناحية أغورمى.
أمسك أحدهم برقبة الحمار وأوقفه في وسط الطريق وكلمنى، تكلم طويلا فلم
أرد.

ظللت فى مكانى تحت الشمس وقتا لا أعلمه إلى أن تحرك الحمار من تلقاء
نفسه بخطاه الوثيدة نحو البيت.

دخلت صامتا، تكلمت أختى خديجة وتكلم ابناؤنا . كانوا يقاطعون بعضهم
البعض فى صخب ليصوبوا الحكاية. لكنى لم أقاطع ولم أسأل. استمعت فقط
للرجال الذين يقسمون والنساء الصارخات دون أن أنطق كلمة. قالوا إن مليكة
سجنت نفسها فى غرفتها منذ عادت من بيت المأمور. لم تكف بإغلاق بابها
بالمفتاح بل وضعت وراءه كل ما بالغرفة من صناديق ومتاع . تسب كل من يطرق
الباب أو يخاطبها بكلمة. تشتم بصوت عال أمها وأخواتها وتلعن بالذات معبد
الميت. لماذا يعتبرونها أرملة ومعبد لم يكن رجلا؟ هى مازالت بكرا والنم الذى حمله
إليهم معبد بعد دخوله بها دم كذب. هى لم تكن من الأصل زوجة ولا أرملة فكيف
أصبحت غولة؟ كررت كلامها كثيرا وهى تضحك وتبكي وتقول: الغولة يجب أن
تكون معبد لأنه لم يكن رجلا لكنها تتحدى من يطرقون بابها أن يدخلوا لتصب
على رؤوسهم كل لعنة الغولة وترميهم بكل نكباتها وتحرق من فى الواحة من رجال
ونساء وشجر وحجر. لكن فليقولوا لها أولا لماذا هى غولة؟ اشتكت لأمها أن
الرجل الذى عاشت معه سنتين لم يقربها ويضربها دون سبب فضريتها أمها أيضا
وحرمت عليها أن تكرر هذا الكلام ويكفى أن يحمىها ظل رجل. لكن هى كرهت ظل
معبد وتكره من أجله كل الرجال وكل النساء فى هذا البلد، تكرههم جميعا فلماذا
لا يتركونها بعد أن رحمها الله بموت معبد تبحث عن صحبة جميلة بعيدا عنهم؟
ليست مثلهم ولا توجد فى البلد من تشبهها وهى تحبها أكثر من أمها . أين خالى
يحيى؟ أين خالى؟ هو وحده الذى أريد أن أكلمه. لماذا لا يأتى هو ويخسف الله
بكم الأرض؟

ظللت أسمع صامتا ما يقولون. نجحوا أخيراً فى تحطيم الباب وتركوا أمها

وحدها تسخل قالوا: تلقتها مليكة وهى تقف فى وسط الغرفة يشعر مهوش ملطخ بالدم وتمسك بيدها سكيناً كبيراً، حاولت خديجة أن تهدئها ومدت لها يدها بطبق من الطعام فبصقت مليكة وسالتها وهى تبكى لماذا باعته؟ لماذا رمتها لمبعد؟ ثم أدارت السكين نحوها وأغمسته فى صدرها وهى تلعن كل الرجال والنساء وناقورة الدم تندفع منها نحو أمها.

أشارت أختى باكية إلى الدم الذى يلطخ ثوبها ثم عادت تلطم خديجا لكى تمت لأنصرف دون كلمة.

جرت خديجة ورأى - الجنائز يا شيخ يحيى؟ متى الجنائز؟

لم ألقت ورأى.

فى الطريق إلى بستانى كنت أفكر فيما سمعت وأسأل نفسى أين الحقيقة؟ هل رشقت مليكة السكين فى صدرها حقاً أم أنتم الذين أغمدموه فى قلبها لترفعوا، كما قال أجدادكم، نس الغولة من الأرض؟ أين الحقيقة وما جرى أن أعرفها الآن وقد ضاعت مليكة؟ ضاعت بكتب الرجال ورعب النساء وغرور ذلك المأمور الذى يأكله الحقد. ضاعت فما أهمية أى شىء؟

لا أريد أن أراها ميتة. لا أريد فيمابقى لى من أيام أن أنكر هذه الطفلة كجثة. أريدها أن تبقى لى حية كما عرفتها. أجمل نبتة أخرجتها هذه الأرض.

كانت تحتاج الظل والحماية وأن تبعد عنها النباتات الشريرة ولكن... يحيى يا يحيى! ما أكثر ما صادفت من الموت خلال عمرك. بيدي هاتين دفنت إخوة وزوجات وأبناء وأحفاداً، فلماذا وأنا المعجوز الفانى لا أحتمل موتك يا ابنتى؟ أبكيك وأبكى نفسى. الآن يئست من بلنتكم .

لم أستطع أن أخرجها من ظلماتها شاباً ولا شيخاً. حاولت وعجزت. لم يهينى ريبى إلى السبيل، لكنى الآن أعرف طريقى. سأعتزلكم إلى الأبد. لم تعد بى قوة لأخرج إلى الصحراء كما فعلت فى شبابى. سألزم الحجرة الصغيرة فى حديقتى، وإن أرى منكم أحداً.

سأهجرك الآن أيتها الواحة لا لكى أجد نفسى مرة أخرى وإنما لكى أودعها.



١٤ - محمود

لا أعرف ما الذى أفاد ، أمى طلبة المدفع التى كانت مجرد نوى صاعق
وشرارات متطايرة من النار لا أكثر أو هو سجن الشيخين؟ لم أكن بحاجة بعد
ذلك إلى أن أسجن أو أجلد أحداً. أبقيت إدريس وعبد الماجد ضيفين فى إحدى
حجرات القسم وأمرت الجنود أن يحسنوا معاملتهما وأن يسمحوا لأقاربهما
بالزيارة وإحضار ما يشاءان من منزليهما . لكن الرسالة وصلت فأطلقت سراحهما
بعد أيام.

من أول يوم بدأت ترد حملات من البلح وبنان من زيت الزيتون اكتظت بها
المخازن، فوضعنا جزءاً منها فى فناء القسم. يصل الشيخ صابر بنفسه أو يرسل
مندوباً يقول هذه حصة العائلة الفلانية ويطلب إيصالاً بأنها سددت نصيبها من
الضريبة. أوشك الخراج المطلوب أن يكتمل وفوقه الغرامة المالية ، وأصبحت أأزم
القسم طول النهار تقريباً لأتابع جمع الحصص وجردها .

سمعت وأنا جالس فى مكتبى بالطابق الثانى جلبة تقترب من القسم مصحوبة
بصياح أطفال. اعتدت على هذه الضجة مع وصول حصص الأسر، أو لعلها هى
ضجة الجنود العائدين من استقبال قافلة مطروح . لكن لا . هناك وقع حوافر
خيول كثيرة.

ذهبت أنظر من النافذة ففوجئت بضابط شاب يترجل من على حصانه
ويصحبته ستة من الجنود الضيالة ترحلوا بدورهم وشكلوا بسرعة طابورا واحداً
انضم له الجنود الذين أرسلتهم لاستقبال القافلة . وقف الضابط لحظة كأنه
يستعرضهم وهم يربون له التحية العسكرية ثم تركهم واقفين فى أماكنهم وأشار
إلى واحد من جنود القسم الذين أحاطوا بالفرقة الوافدة فى صمت وتوجس. قال

شيئاً للجندى ثم تقدمه نحو السلم.

كنت واقفاً عندما نزل مكتبى لرفع يده بتحية عسكرية ودق كعبيه بشدة ثم تقدم نحوى بخطوات منضبطة ومدّ نحوى ظرفاً أصفر، وهو يقول ب لهجة رسمية:

يوزياشى وصفى همت نيازى تحت أمر سعادة المأمور . أفندم!

يوزياشى؟ فى هذه السن؟ لم أصل إلى رتبته إلا بعد أن جاوزت الثلاثين

بسنوات وهو بالكاد فى الخامسة والعشرين، ما الحكاية؟

قلت وأنا أشير إلى مقعد أمام مكتبى: أهلاً يا حضرة اليوزياشى . اجلس.

تأملته وأنا أجلس إلى مكتبى. أشقر طفولى الوجه متوسط القامة أميل إلى

القصر . أكثر مايلفت النظر فيه عيناه العسليتان اللتان تتحرك حدقتاهما بسرعة واستمرار فى مقلتيه.

لم يجلس وصفى الا بعد أن عدت أنا إلى مكانى خلف المكتب. قلت وأنا

أضحك: وعدتتى النظارة بهذا المدد منذ شهور قبل أن أصل إلى هنا. لكنها لم تبلغنا عن الموعد لنستعد لاستقبالكم.

لم أقل له إننى كنت انتظر عدداً أكبر من الجنود والضباط. وبينما كنت ألقى

نظرة عابرة على خطاب نقله إلى الواحة الملىء بالتوقيعات والأختام، قلت ولكننا

بحاجة فعلاً إليكم وإلى الخيول . لم تبق فى القسم سوى خيول مجهدة.

صفقت ييدى فدخل الشاويش إبراهيم الملازم للباب وسألت وصفى إن كان

يريد أن يشرب شايا أو قهوة فرد بآته سيكون شاكرأ لو قدمت له كوباً من الماء

لأنه لا يشرب الشاى ولا القهوة.

فقلت مبتسماً: تقصد كوز ماء . ليست لدينا فى القسم أكواب.

وعندما خرج الجندى قلت لوصفى : ستستريح الآن من السفر ثم سنتكلم غداً

عن العمل. لكن أول مسألة هى أن ندير لك مكاناً للإقامة.

قال إنهم حدثوه فى القاهرة عن المسألة وشرحوا له التقاليد فى الواحة وإن

أفضل شيء أن يقيم فى القسم، فلن تختلف الحالة عما كانت عليه حياته فى المدرسة الحربية.

قلت : قد تكون الحياة أصعب قليلاً من المدرسة الحربية . ستري أن ..
لكن وصفى أنزل فجأة كوز الماء الذى كان يشرب منه فى جرعات كبيرة وقاطعتى:

عفواً ياسعادة المأمور، ربما كان يجب أن أبلغك بهذا قبل أى شيء، أنا
أوصلت ميس فيونا إلى بيت سعادتك قبل أن أتى هنا. دلونى على المكان فلوصلتها
قبل أن أسلم نفسى للعمل..

لم أستوعب الخبر فى أول الأمر. نسيت بالفعل حكاية فيونا فى زحمة ماجرى
لنا. لكن وصفى واصل بشيء من الحماس إن حكمदार الإسكندرية أوصاه برعاية
الميس حتى تصل إلى الواحة وإن سعادة الباشا الحكمदार جاء بنفسه مع وكيل
الحكمदार لتوديعها قبل أن تتحرك القافلة . كان وصفى مبهوراً من ذلك وهو ينهى
كلامه بأن سعادة الوكيل يهدينى السلام.

سألته ومن هو؟ فرد سعادة الأميرالاي طلعت بك عبد العزيز .
- شكراً لك وللاميرالاي.

انقبضت نفسى، ولم أتعجل العودة إلى البيت. إذن فهناك الآن مشكلتان. يجب
أن أعيد الاختين معاً وبأسرع ما يمكن . ربما مع القافلة نفسها . سأرى.
سألت وصفى وأنا شارد تقريباً كيف لم تؤثر الرحلة على هندامه ولم تلوث زيه
العسكرى ولا طربوشه؟ فرد بجدية إنه غير كل ثيابه فى الصباح استعداداً للقاء
سعادتى واستلام عمله الرسمى.

شرحت له ظروف عملنا فى الواحة لئلا نون أن أتطرق للحوادث الأخيرة، وقلت إن
أول مهمة له ستكون هى المساعدة فى جمع بقية الضرائب من الواحة وتبدير
إرسال دفعاتها الأولى مع القافلة التى جاءت ثم تجولت معه قليلاً فى القسم .

اخترت له حجرة مناسبة ينقل لها متاعه، وطلبت من الشاويش إبراهيم أن يدير
أماكن الجنود الجدد ويقدم لهم الغداء. وقبل أن أنصرف قلت لوصفي إني لابد أن
أمر على البيت لفترة قصيرة ، وإنه مالم يكن متعباً جداً فيمكنه أن يأتي معي
للغداء بعد ذلك.



طرقت الباب عدة مرات وانتظرت قليلاً قبل أن أفتحه فوجدت كاترين وفيونا واقفتين فى الصلاة حول المائدة متأهبتين لاستقبالى، أعددت نفسى لأقول بمرح كاذب «مرحباً بك فى صحرائنا يا فيونا - لكنى وقفت عند الباب ولم أقل كلمة بعد «مرحباً»، رأيت فى الصلاة توأمين متشابهين، نسختين من كاترين.

تقدمت نحوهما بخطى بطيئة وكررت متلعثماً «مرحباً بك...» فضحكت كاترين ضحكة خافتة : قلت هذا من قبل يا محمود. ما رأيك فى هذه المفاجأة؟ فريدت مجاملاً مفاجأة سعيدة بالطبع . لكما نفس لون العيون والوجنتين المذورتين، فقالت كاترين: لكن فيونا أجمل بكثير.

اقتريت منهما أكثر، لم تكذب كاترين . كانت أختها ممشوقة القوام وملامحها أكثر تناسقاً، وجه باهر الجمال حقاً فى إطار من شعر ذهبى أغزر من شعر أختها ومع ذلك فعندما مددت يدي لأصافحها هالتي شحوب وجهها رغم الابتسامة العذبة التى تكاد تكون جزءاً من ملامحها. ربما يكون هذا الشحوب من إرهاق السفر.

جلسنا ثلاثتنا فى الصلاة وقتلت لكاترين إن الضابط الجديد ربما يصحبنا اليوم على الغداء فسألت فيونا : كايّن نيازى؟
- نعم ، وصفى.

وقالت كاترين لشقيقتها : يجب أن تعتادى على هذا . هنا يخاطبون الناس بالاسم الأول. كنت أستغفر فى البدء عندما يقولون مسز كاترين أو مستر محمود ولكن يجب أن تعرفى منذ الآن أنك الميس فيونا.

فريدت مبتسمة : هذا ألطف بكثير. وبعيد عن الرسميات.

شتتت هذه التثرثرة انتباهى عن الحديث، ورحت أراقب فيونا. لها حضور هادئ وقوى، لا يبيدل أى جهد ليفرض نفسه. وسألت نفسى بشكل عابر: هل ذهب الحكمدار ووكيله المحترم بناء على توصية من شخص مهم فى السفارة أو غيرها، أو لإلقاء نظرة أخرى على هذه المرأة الجميلة؟ وأدهشنى أيضاً أن هناك شيئاً ما

رغم جمالها لايجعل منها امرأة مثيرة. كأنها صورة أو تمثال لامرأة كاملة وليست امرأة من لحم ودم. وتساءلت هل هذا هو السبب في أنها لم تتزوج حتى الآن؟ غير أنى انتبهت إلى كاثرين تسألنى في حماس: هل كنت تعرف ذلك؟ لم أكن أتابع حوارهما ولاحظت هى ذلك فكررت سؤالها: هل كنت تعرف أن الضابط وصفى مهتم بالآثار؟ - لم يكن هناك وقت لأسأل أو أعرف. هزت فيونا رأسها مؤكدة وقالت : هو متقف جداً ويتحدث الإنجليزية كالإنجليز تماماً.

وسكنت لحظة قبل أن تكمل : يتصرف كجنّلمان إنجليزى حقيقى. كانت تتكلم بلهجة محايدة فلم أفهم هل تمدحه أو تنتقده. قلت لكاثرين وأنا أنهض متأهباً للخروج : وهكذا ستجدين من تتحدثين معه عن آثارك. صحبتنى كاثرين حتى الباب وهمست فى أذنى بالعربية قبل أن أخرج إن من الأفضل أن أصحب وصفى على العشاء حتى تترتاح فيونا وقالت إن أختها تلقت نصيحة من الأطباء فى أيرلندا بأن تعيش فترة فى جودافى جاف لأن صدرها ليس على مايرام. غمغمت وأنا أخرج : إذن ربما الصعيد أفضل لها . تعرفين وضعنا هنا الآن.



لم تخطئ فيونا. تصرف وصفى على الغداء كجنتلمان حقيقى. يعرف آداب المائدة أفضل منى بكثير، يمتدح نوق كاثرين فى إعداد الطعام، يخاطبها وشقيقتها بتهذيب شديد، ويبتكر دعايات تبعثها على الابتسام أو الضحك. وبعد الغداء انهمك مع كاثرين فى الحديث عن الآثار. تبادلنا حديثاً عن كتب وأسماء لا أعرفها. قال إنه قرأ كل شيء عن الآثار الموجودة فى سيوة وينوى أن يزورها جميعاً.

فهزت كاثرين رأسها وهى تقول بمرارة إنه قد يجد صعوبة حقيقية لأن أهم الآثار موجودة وسط البيوت وهم لا يسمحون للأغرب بالتجول وسط بيوتهم. جريت هى ولم تعلق. فقال وصفى بثقة سنجد حلاً لذلك بالتاكيد.

وفكرت بدهشة : ألم تتعظى حتى الآن يا كاثرين؟ بعد كل الكوارث التى جرتها زيارتك للمعابد؟ اعتقدت بعد الحزن الرهيب الذى حل بك منذ سمعت بموت مليكة وبقائك سجنية أياماً فى غرفتك أنك لن تعودى مرة أخرى إلى هذه الهواية الخطرة. لكن لا. أنت لاتتغيرين. يجب بالفعل أن أبعدك أنت وأختك من هنا بسرعة. أنت خطر حقيقى على نفسك وعلى غيرك.

عدت إلى حديثهما وهى تسأل وصفى باهتمام شديد وتختار كلماتها بعناية لسبب غير مفهوم .

– مادمت قد قرأت كل هذا فسأسألك لو كانت هناك معابد يونانية فى سيوة فأتين تتوقع أن تكون؟

رد وصفى وهو يختار كلماته بحرص أيضاً : تحتاج المسألة بحثاً على الأرض. لكن ربما يكون من بينها معبد بلاد الروم. التسمية توحي أنه كان معبداً يونانياً أو رومانياً. بالتأكيد لم يكن يشبه المعابد المصرية القديمة.

قالت كاثرين : قرأت مقالته عنه أول من رآه من الرحالة وهو أنه أجمل معابد الواحة. لكن المعبد تحطم بعد ذلك تماماً. لم يبق منه عامود واحد وإنما مجرد

حجارة متناثرة وسط مستنقعات قرب بحيرة خميسة. اندثر تقريباً.

هتفت برغمي : لحسن الحظ إنه اندثر!

التفتوا نحوي في دهشة فقلت : وفر على الناس مهمة البحث!

سادت لحظة من الصمت قطعتها فيونا وهي تسأل بابتسامتها المألوفة هل

سمعتكما تقولان إن هذا المعبد كان بجوار بحيرة؟

قالت كاثرين: نعم، بحيرة خميسة إلى الغرب من هنا.

فقالت فيونا: ولماذا يكون قد اندثر؟ ربما هو مازال تحت الماء وربما مازالت

تقام فيه صلوات!

نظرنا لها أنا ووصفي متعجبين بينما ابتسمت كاثرين وقالت : أنا أخمن . هيا

يا فيونا!

أكملت فيونا وهي تنتظر نحونا : ألا تعرفان حكاية من يعيشون في قصر تحت

الماء؟

لماذا لا يكون قد حدث لمعبدكم مثل ما حدث في قصة الملك كورك وابنته في

أيرلندا؟

سأحكى لكم لتصدقوا.

قالت كاثرين بحماس: نعم يا فيونا، إحكي!

فبدأت أختها:

كان هناك ملك غني يسكن قصراً جميلاً وسط واد أخضر فسيح ، لكنه مع كل

ثرائه فقد كان كثره الصقيى الذى يفخر به هو نبع الماء الذى يتفجر في فناء

قصره. لم تعرف أيرلندا أبداً مياهاً أعذب ولا أصفى منها واعتاد الناس أن يأتوا

من كل مكان ليرتووا من هذا الماء السحري. لكن عندما زاد تدفق جموعهم على

القصر خاف الملك كورك أن يشح الماء وأن ينضب معينه الفريد ففكر ثم أحاط

النبع بسور عال ومنع الناس من الاقتراب منه. وكلما أراد أن يشرب كان يرسل

ابتنته الجميلة فيور بمفتاح باب النبع لتجلب بعضاً من الماء في دلو ذهبي صنعه لهذا الغرض وحده. لم يطمئن لإعطاء المفتاح لأحد من الخدم مخافة أن يسلب بعضاً من ماء النبع. نعم، إلى هذا الحد كان يخاف على ثروته الغائرة في باطن الأرض. وذات ليلة أقام حفلاً كبيراً دعا إليه الأمراء والنبلاء، تلالا القصر بالأضواء وانسابت في جنباته أنغام الموسيقى رامت موائد عامرة بكل أنواع الطعام والشراب .

تابعت حكاية فيونا وأنا أتأملها، وطرات على بالي على الفتور نعمة فأخذت أقارن بينهما. فيونا تحكى بهدوء وبساطة كأن هذا القصر الأيرلندي مكان مألوف، لو فتحنا الباب فسنراه وسط ريف أيرلندي ومروج خضراء، وإنما من بعيد . أما نعمة فتعيش حكاياتها، تنفعل وتصبح وسط دموعها هي الأميرة السجينة، والملك المسحور، والعاشق المهجور ويشرق وجهها بالفرح ساعة النصر فتصبح هي وأنا اثنين داخل الحكاية ملوكاً وفقراء وعشاقاً ونساكاً. فأى الطريقتين أفضل؟

وها هو أمير نعمة الجميل يظهر في حكاية فيونا! يدخل إلى حفل الملك فيكون الحب منذ اللحظة الأولى. لا يرفع عينيه عن وجه فيور الساحر ولا هي تحول عنه بصرها ووجهها المتورد بالحب .. يدعوها للرقص فتتساب بين ذراعيه ويدوران في القاعة بخفة كفرشتين ترفرفان على وقع الأنغام، بينما يعزف الموسيقيون بجمال ودون توقف كما لم يعزفوا أبداً من قبل كأنهم لا يريدون لهذه الرقصة الأثرية أن تنتهي - لولا أنه كان لا بد للراقصين أن يجلسوا أخيراً على مائدة العشاء.

كنت أتابع نظرة كاثرين المستمتعة وعيني وصفي اللتين لا تكفان عن الحركة في لهفة طفولية للاستماع إلى ماتحكيه فيونا: على العشاء أرسل الملك ابنته لتملا الدلو من ثبعة الثمين وصحبها أميرها الجميل عبر فناء القصر إلى النبع، لكنها عندما مالت لتملا الدلو الذهبي وجدته ثقيلاً جداً فزلت قدمها وسقطت في الماء. حاول الأمير أن ينقذها لكن بلا فائدة، أخذت مياه النبع تفيض وتتدفق مجتازة

الباب المفتوح لتغمر الفناء كله، وأسرع الأمير يطلب النجدة من القصر غير أن المياه التي ظلت حبيسة الأسوار انطلقت فرحة بحريتها وظلت تفيض في الفناء وترتفع بسرعة حتى أنه عندما وصل الأمير إلى القاعة كان الماء يصل إلى رقبته، وأخيراً انتشرت المياه حتى غمرت كل الوادئ الأخضر الذي يتوسطه قصر الملك وهكذا تكونت بحيرة كورك.

سكنت فيونا لحظة وهي تنقل بصرها بيننا ثم قالت لكن الغريب أن الملك وضيوفه لم يفرقوا كما يمكن أن يحدث في مثل هذا الفيضان، ولا غرقت الأميرة الجميلة (فيور) التي رجعت في الليلة التالية تستأنف الرقص مع أميرها الوسيم تحت الماء، وفي كل ليلة منذ ذلك الحين تتجدد الوليمة والرقص في قاع البحيرة إلى أن يواتى الحظ أحداً من الناس فينتشل الدلو الذهبي الغارق الذي كان السبب في كل ماجرى.

فهل أنتم واثقون أن أحداً لا يستطيع أن يرى معبدكم هذا تحت الماء؟
لم تسمع رداً فأكملت بلهجتها الواثقة نفسها: هذا لأنك إذا ما مررت ببحيرة كورك حتى اليوم وكان نظرك قوياً تستطيع أن ترى عبر مائها الصافي أبراج القصر وأسواره، وفي الأمسيات يمكنك أن تسمع الموسيقى والفناء في الوليمة الممتدة، وإنما هذا في الصيف فقط لأن البحيرة تتجمد في الشتاء!

حل علينا سحر الحكاية فظللنا نتطلع في لهفة إلى فيونا أملين أن تكون للقصة بقية، لكن كاثرين ضحكت فجأة وصفت وهي تقول:
- كنت متأكدة يا فيونا! كنت واثقة أنك ستقنعينها..

ثم التفتت نحونا: أظن أن فيونا هي آخر سلالة رواة الحكايات الأيرلندية. كان عندنا منهم مئات وربما آلاف يتجمع الناس حولهم، لكنهم الآن ينقرضون، إلا أن فيونا مازالت تحفظ كل القصص، أليس كذلك؟

لوحث فيرنا بيدها وقالت - دعك من هذا، لحسن الحظ مازال هناك كثيرون

غيري، والآن قولوا لي ما الذي فهمتموه من هذه الحكاية؟
ظللنا نتبادل النظر ولكن كاثرين قالت : لاتسأليني أنا، منذ كنت صغيرة أعرف
الحكاية وأعرف مغزاها، عوقب الملك لأنه حرم الفقراء من الماء.
قالت فيونا: هذا عندما كنت صغيرة، ولكن كيف تفهمينها الآن؟
هزت كاثرين كتفها مبتسمة.
وقالت فيونا : هذا أيضاً رد،
ثم التفتت نحوي قائلة وأنت؟
ترددت قليلاً ثم قلت : رأيي أنها حكاية جميلة.
فقالت فيونا وقد ارتسم الجد في وجهها: نعم ، ولكن يجب أن تقول ما فهمته
منها ، الحكاية لاتكتمل بروايتها وإنما يكملها من يسمعها..
إستغرقت في التفكير لحظة ثم قلت : ربما تقصد الحكاية أن مانراه قد لا
يكون هو الحقيقة. قد يخفي سطح الماء الرائق حياة لانعرفها وقد تغيب عنا
الحقيقة تحت أي سطح، هل هذا هو المعنى؟
ابتسمت فيونا وهي تقول : ربما، ألم أقل لك أن الحكاية يصنعها كل من
يستمع إليها؟ وأنت يا مستر نيازى؟
قطب وصفي وجهه الطفولي وأرخى جفنيه لأول مرة فبدأ كتلميذ في امتحان
لكنه قال:
لست بارعاً في حل الألغاز ولكنى لافهم كيف يكون ماحدث عقاباً للملك كما
تقول مسز كاثرين، على العكس، الحكاية تقول إن الملك والأميرة والأمير والضيف
يعيشون حياة أبدية تحت الماء في حفل مستمر.
قاطعته كاثرين : ولكن لاتنس أن ذلك كله في سجن تحت الماء.
قلت: ولعل القصر قبل الغرق كان سجنًا فوق الماء أيضاً، لعل هذه الدنيا كلها
سجن!

خاطبت كاثرين شقيقتها بلهجة مازحة: انتبهى يا فيونا! بدأ الآن النصف المعتم لزوجى فى العمل، ولكن لاتهنمى. ربما يتفاعل مع حكاية أخرى! غير أن فيونا بدت لحظتها شاردة وهى تزم شفيتها وترتكز بيديها إلى المائدة وقد احتفن وجهها فجأة.

وضعت يدها على فمها وأخذ جسدها يرتج وهى تبذل جهداً لتكتم سمعات قصيرة متقطعة، ثم حاولت أن تنهض وهى تضع منشفة الطعام على فمها لكنها عادت الجلوس وهى تنتفض بالسعال وقد تحول تنفسها إلى حَشْرَجَة مؤلمة بينما تحاول التقاط أنفاسها. وقفنا أنا ووصفى مذهبورين بينما كانت كاثرين تقف أيضاً بجوار أختها اللاهئة محتضنة كتفها وخاطبتنى وهى تحاول السيطرة على خوفها مشيرة إلى زجاجة فى طرف المائدة: بسرعة يا محمود صب ملعقة من هذا الدواء. أزعجت فيونا يد شقيقتها عن كتفها برفق وأشارت عدة مرات علامة الرفض وهى ما زالت تسعل وعندما انتهت الأزمة قبضت على يد كاثرين بقوة ورفعت عينيهما الدامعتين إلى أختها الواقفة، ثم التفتت، نحونا وقالت بانفعال كأنها غاضبة من نفسها وهى تلهث:

أنا أسفة، أفسدت الـ .. الوجبة ومن .. من أول مرة، غمغمنا بعبارات احتجاج لا معنى لها بينما كانت فيونا تخاطب أختها التى تحاول التقاط أنفاسها مشيرة إلى زجاجة الدواء بشكل عابر: لا ينفع الإكثار منه... لايفيد شيئاً .. تناولت جرعة منه بالفعل قبل العشاء. ثم تماكنت نفسها وأكملت، قال لى الأطباء فى أيرلندا إن مرضى لاينقل العدوى لأحد. ما كنت لأسمح لنفسى .. أنتما .. وكاثرين.

قلت محتجاً - ما هذا الكلام الآن؟ المهم أن تستردى صحتك، فكررت بنبرة تأكيد ومع ذلك ماكنت لأسمح لنفسى أبداً. إنحنى كاثرين على شقيقتها وقبلتها فى وجنتها وهى تقول بلهجة حاولت أن

تجعلها مازحة - أنت لاتنقلين إلا عدوى الأشياء الطيبة يافينا. ليتنى أصاب
بالعدوى منك..

انتهت السهرة بسرعة. صحبت وصفى حتى قسم الشرطة وكنا صامتين
وواجمين لكنى توقفت فى منتصف الطريق وسألته فجأة: لماذا فى رأيك حكى لنا
فيونا قصة هذا القصر الغارق؟

ولماذا طلبت رأينا؟

فوقف وصفى أيضاً وتطلع فى وجهى بشيء من الدهشة وقال: أظن ياسعادة
المأمور أنها كانت تحكى حكاية للتسلية. أنا نسيت ذلك تماماً مع الأزمة التى
أصابتها.

استأنفت المسير وأنا أقول معك حق.

لكن شيئاً فى داخلى كان يقول إنها لم تحك حكايتها عبثاً، أبسط شيء أنها
أرادت أن تتعرف علينا ثم ماذا؟ وكان وصفى لحظتها يقول بلهجة مشفقة:
- كانت تأتينا هذه التوبيات أحياناً ونحن فى القافلة ويحزن الجميع من أجلها،
واعتادت ساعتها أن تبعد وأن تتجنبنا. عرفنا أنها تكره أن يبدى أحد الاهتمام
بها فى هذه الحالات. لم تكن تظهر إلا بعد أن تنتهى الأزمة والابتسامة على
شفقتها وكان شيئاً لم يحدث.



فى الصبح كنت أوشك أن أرسل الشاويش إبراهيم ليستدعى الشيخ صابر حتى أقدم له وصفى، عندما فاجأنى الشيخ بحضوره بنفسه إلى مكتبى، نادرا ما فعلها منذ حادثة مليكة وإطلاق المدفع. قال إنه سمع بوصول حضرة الضابط الجديد، وإنه جاء للترحيب به باسم الأجواد. استقبلته بتحية مجاملة فائرة ثم عرفته على اليوزياشى وصفى وشرحت له أنه سيكون منذ الآن مسئولاً عن الاتصال به فى كل ما يخص جمع الضرائب. لكن وصفى أدهشنى عندما بدأ يتكلم عن سعادته بالتعرف على «فضيلة» الشيخ صابر الذى سمع الكثير عن علمه من قبل أن يأتى إلى سيوة.

لم أتمالك نفسى من سؤاله أمام الشيخ: من أين عرفت؟
رد بشيء من الحماس: الأومباشى وهبة السلماوى الذى جاء معى. أصله من مرسى مطروح وعاش هنا فترة من قبل ويعرف كل أجواد سيوة.
قال الشيخ صابر : وأنا أعرفه.

ثم استأذن اليوزياشى أن يخرج «دقيقة واحدة» وعاد وفى يده علبة صغيرة مستطيلة من القطيفة الحمراء وخاطب الشيخ صابر قائلاً إن والده الحاج همت أدى الفريضة هذا العام وأحضر معه أشياء من الحجاز للتبرك، وهو يرجو الشيخ صابر أن يقبل هذه الهدية البسيطة. بدت الدهشة أيضاً فى وجه الشيخ صابر عندما فتح العلبة وأخرج منها مسبحة صفراء قلبها فى يده وهو يقول «كهريمان حرا» ثم راح يكرر الشكر لوصفى قائلاً إنها بركة حقيقية من البيت الحرام وإنه سيدعو له كثيراً هو والحاج الوالد.

وعندما انصرف الشيخ صابر قلت لوصفى وقد استبد بى الغضب:

- ما هذا الذى فعلته يا حضرة اليوزياشى؟

لم يفهم سبباً لغضبى فقال وفى وجهه حيرة: سعادة الأميرالاي سعيد بك نصحنى أن أجمال الأجواد فانتهزت الفرصة..

- مع ذلك كان يجب أن تستأنننى أولاً! أنت لاتعرف هذا الشيخ. هذا الرجل هو ..

ثم سكت لأنى لم أعرف ماذا أقول. لو بدأت فسأشرح له كل شيء وأنا لا أريد ذلك. ليس الآن على الأقل..

قال وصفى وفى وجهه خيبة الأمل: أنا متأسف جداً ياسعادة البك المأمور. لن أكرر هذه الغلطة.

ثم أكمل بشيء من التردد - كتبت قد أحضرت معى مسابح لبقية الأجواد، ولسعادتك طبعاً، فهل تأذن..

لوحث بيدي لأصرفه وأنا أقول - إفعل ماتشاء ياحضرة اليوزباشى . نفذ نصيحة سعيد بك.

وما إن خرج حتى سمعت طرقاً ملحاً على الباب.

دخل الشاويش إبراهيم ولوح بتحية مرتجلة ثم قال : عفوا ياسعادة المأمور . سامحنى للسؤال ولكن لماذا حضر الشيخ صابر إلى مكتب سعادتك اليوم؟ يقف دائماً بباب القسم منذ الحادثة ويرسل أحداً بطلباته..

- أراد أن يتعرف على الضابط الجديد. لماذا تسأل؟

سكت لحظة ثم قال - سامحنى سعادتك مرة أخرى، ولكنى أخاف من هذا الرجل . لم يتكلم معى مرة واحدة منذ انتهى علاج رجلى. عندما يصادفنى فى الطريق ينظر نحوى كأنه لايعرفنى . لاسلام ولا كلام.

لوحث بيدي بلا مبالاة : لاتهتم بإبراهيم.

- أنا لا أهتم ، ولكنى أريد أن أقول لسعادتك إن قلبى لايطمنن له، وسمعت فى البلد أشياء . سمعت أنه هو الذى حرض الزجالة على مهاجمة القسم فى ذلك اليوم..

- وأنا عرفت ذلك ، حتى دون أن أسمع شيئاً من البلد ، كان يرأس إجتماع

الأجواد فى ذلك الصباح ورأى الزجالة يزحفون على القسم فلم يحاول هو أو أى من أجواده منهم ، وكان يعرف بالتأكد من الليلة السابقة أنهم سيهجمون فلم يحاول إبلاغى ولا تحذيرى .. أعرف كل هذا فما الجديد؟ المهم الآن أنه يجمع الضرائب ويسلمها فى هدوء ...

- ولكن حتى متى ياسعادة المأمور؟ هذا الهدوء نفسه يخيفنى. أنا أخاف عليك وعلى الهانم وحتى على أختها .

- وما دخل أختها أيضاً فى هذه؟

- أذكر الله أن يسترها معنا، ولكن من له ثأر لا ينسأ سعادتك . وصاحب الثأر مجنون. كان لى زميل فى الجيش طيب جداً وابن ناس، ومتعلم قراءة وكتابة ترقى فى الجيش حتى اقترب من رتبة الصول. لم يكن يعرف غير شغله ولم نره يذهب حتى فى الإجازات إلى بلده مثلنا جميعاً. ومع ذلك جاء ذات يوم من قتله . كان هناك ثأر قديم على عائلته من أيام الجنود، فأرادوا أن يوجعوا العائلة لم يقتلوا أى فلاح فى القرية والسلام وإنما أرادوا قصف رأس كبيرة فضاء المسكين دون أن يكون له ذنب.

قلت: الله يطمئنتك يا شاويش!

- سامحنى سعادتك أنت وأنا باقيا هنا لأن هذا عملنا وأكل عيشنا وما سيكتبه الله علينا سيكون ولكن لماذا لا تبعد الهانم وأختها من هنا بسرعة؟
- سافكر يا شاويش، إنصرف أنت الآن.

بعد خروجه نهضت وبدأت أتجول فى المكتب متحاشياً الاقتراب من النافذة . لا أريد أن أرى أحداً . نطق إبراهيم بما كنت أفكر فيه منذ وصلت فيونا. لم أعد أطمئن إلى مفاجآت كاثرين . قد تخرج غدا وتسبب مصيبة جديدة. بعد حزنها على مليكة أو تظاهرها بالحزن عليها عادت كما كانت من قبل بالضبط . كان شيئاً لم يحدث أبداً ، مثلها مثل البلدة التى ما إن ماتت مليكة حتى اختفى كل حديث

عن الحرائق والعقارب والكوارث الأخرى. كأن البلد ماكانت تنتظر إلا دمها لتعود إلى سيرتها الأولى. المسكينة!

بالأمس في حديث كاثرين مع وصفي الجنتلمان شعرت بنذر مصائب مقبلة . سأحاول تعطيل قافلة مطروح التي جاءت بها مع اليوزباشى بضعة أيام إلى أن أرتب سفرها هي وأختها.

اليوزباشى! بالطبع!

تخرج في المدرسة الحربية. من أسرة شركسية غنية بكل تأكيد! أنا لا أحسده ولكن لماذا يأتي هذا المحظوظ إلى الواحة التعيسة؟ مؤكد عنده من الوساطات ما كان يمكن أن يعفيه من هذه الوظيفة الخطرة. فلماذا جاء؟ ولماذا يتعلق الشيخ صابر؟ قلبي مثلك يا إبراهيم لايطمنن وما هي هموم جديدة تتراكم فوق الهموم القديمة. حتى طلعت يرجع الآن ليذكرني بنفسه . سعادة وكيل الحكمدارية! هنيئا له! لم أرد أبداً أن أكون مثله ولا في مكانه، فما الذي كانت أريده؟ مرة أخرى ماهي مشكلتي؟

المشكلة هي أنت بالضبط يا حاضرة الصاغ! لاينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طيب ونصف شرير. نصف وطني ونصف خائن . نصف شجاع ونصف جبان. نصف مؤمن. نصف عاشق، دائماً في منتصف شيء ما . لم أقتل مليكة بيدي لكني تركتها للقتل، أردت أن أنقذ محمود الصغير لكن في منتصف المحاولة تركت إبراهيم يكسر ساقه . تحمست فترة للوطن والثوار وعندما جاءت لحظة الامتحان أنكرتهم ثم توقفت في مكاني. لم أكن أبداً شخصاً واحداً كاملاً في داخله طلعت كان أوضح مع نفسه. مادام قد خان فليكمل الطريق إلى نهايته. باع نفسه وقبض الثمن الذي يريده. أما أنا فبعت بلا ثمن وقيقت قانعاً بالسخط على نفسي وعلى الإنجليز وعلى الدنيا كلها دون أن أعرف ماذا أريد. حتى الحب اكتفيت منه دائماً بالمتعة ثم وقفت لا أكمل الطريق. تركت نعمة التي أحببتها

لتضيع منى . لم أتورط فى أى علاقة حقيقية قبل كاثرين لكن حكايتها حكاية أخرى. أظن أنها انتهت فى داخلى بعد ما جرى للميكة. ترقد بينى وبين كاثرين كل ليلة لتبعدنى عنها وتبعدا عنى ثم تقتصمنى فى المنام.

هذه الليلة كانت كابوسا ممتدا . جاعتنى ملثمة الوجه لايبين منها غير عينين واسعتين تجرى على شاطئ بحيرة تحفها الخضرة، أجرى وراءها حتى أكاد أمسكها بيدي لكنى لا أستطيع اللحاق بها مهما حاولت، تحول شاطئ البحيرة إلى صحراء واسعة وسقطت أنا على الأرض فى عجز وإعياء فاستدارت نحوى وصرخت فى رعب حين رأيت وجه غولة بشعة لها عينان كجمرتين تمسك بيدها جريدة سعف بحجم نخلة راحت تدفعها فى صدرى وتطمرنى فى الأرض التى تبتلعنى لكن قبل أن تدفننى تماماً نظرت مرة أخرى إليها فرأيتها بوجهها الجميل الذى لم أره سوى مرة يتطاير حوله شعر ناعم أشقر وتطفر من عينيها دموع فصحات وأنا ألثت عاجزاً عن التنفس كئنى مدفون فعلا فى الأرض. ظللت واقفاً داخل حجرتى فى القسم ألتقط أنفاسى بصعوبة كئنى داخل الحلم من جديد.

رجعت أجلس إلى مكتبى وأقول لنفسى للمرة الألف لا جدوى من التفكير فيما لاطائل منه. لن أهرب من عيني مليكة. لن أهرب من كاثرين ولا صابر ولا إبراهيم، ولا من وجه طلعت الذى يطل على منذ أعاده وصفى. لا مهرب. فلأ فكر فى شيء آخر. شيء جميل، وأى شيء عرفته فى حياتى أجمل من نعمة؟ أحاول أن أستعيدها كلما سدت المنافذ لكنها تعاقبنى أيضاً. ترفض أن يزودنى وجهها من جديد . لا ألومها أبداً.

أدرت وجهى نحو النافذة. لاشيء غير سماء زرقاء وسحابات صغيرة خفيفة متفرقة. ومن فناء القسم يأتى صوت وصفى رفيعاً ولكنه صبارم يعطى أوامر للجنود.



سألقاهم بالتدريج . لا داعى للعجلة . لا أهمية حتى لأن أفهمه .

فى أول يوم جمعه أعقب وصوله ، صحبته ومعى بعض الجنود كالعادة لأداء الصلاة فى مسجد شالى الكبير - فى الفترة الأخيرة يفسحون لنا مكانا معزولاً تقريباً عن بقية المصلحين ويصافحنى بعض الأجواد دون كلام بعد الصلاة ثم ينصرفون من المسجد على عجل ، فى هذه المرة بعد أن صافحنى الشيخ صابر وهو يرمقنى بعينيه الزجاجتين أمسك بيد اليزيياشى وصفى وقدمه بفخر لأجواد الشرقيين والغربيين واحدا واحدا ، ثم التفت نحوى وقال بشكل عابر - الأجواد يريدون أن يرحبوا بحضرة الضابط الجديد بعد إذن سعادة المأمور بالطبع . أومأت برأسى موافقاً وأنا أنصرف من المسجد مع بقية الجنود . وعلمت بعد ذلك أنهم دعوه للغداء فى حديقة الشيخ صابر وأنهم قد تبادلوا الهدايا .

فهمت بالطبع أن الأجواد يقرءون وصفى إليهم كنوع من الإمعان فى عزلى وإهانتى بإبداء احترام وود للمرؤوس يفوق بكثير مايبنيه الرئيس . وقدرت أن وصفى يريد أن يثبت نجاحه فى عمله الجديد . حتى الآن لا اعتراض لى على مايفعله .

قد تساهم علاقاته مع الأجواد فى تهدئة أهل الواحة بعد كل ما جرى ، رغم أن إبراهيم لا يكف عن تحذيرى من أن أتصور أن الحكاية قد انتهت وكان الشاويش مرتاحاً على أى حال لأن عمله كجندى المراسلة التابع لى يعفيه من الاحتكاك مع وصفى الذى يعامل كل الجنود بشدة وقسوة . لا يكف منذ الصباح الباكر عن تنظيم طوابير المشى والجرى وضرب النار أحياناً .

وكان الجنود يخافونه ويطيعونه . إستأننتى فور وصوله فى إجراء هذه التدريبات والتمارين اليومية للجنود فوافقت . قلت لنفسى ما الضرر فى المحافظة على لياقة الجنود واستعدادهم الدائم ونحن نعيش بالفعل وسط الخطر؟ غير أنى لم أصحب وصفى معى فى جولاتى الليلية إلى أطراف الواحة والتى

أصبحت نادرة، لم يعد لها داع بعد أن توقفت تقريباً غارات الببو.
إنشغلت أيامها كثيراً بحالة فيونا، لم أفلح فى تعطيل القافلة التى كان لابد لها
من العودة بسرعة لتحمل ماتم جمعه من حصص الضريبة كما أمرت النظارة ولم
تكن حالة فيونا تسمح لها بسفر آخر طويل ومجهد. خابت توقعاتها هى وكاثرين
بأن يساعد الدفء والجو الجاف على تحسن حالتها وسعالها ، لا سيما أنهما ما
كانتا تخرجان من البيت، بل تنتقلان من حجرة إلى أخرى وراء أشعة الشمس
وتقضيان معظم الوقت فى الباحة الخلفية الشبيهة بشرفة مكشوفة عالية الأسوار
تغمرها الشمس طول النهار وتجلس فيها فيونا وحولها عباءة ثقيلة من الصوف
تغطى صدرها وجسدها.

واعتاد اليونزياشى وصفى أن يسألنى باستمرار عن حالة «الميس فيونا» فارد
عليه باقتضاب، لكنى ذات صباح وكانت قد قضت الليل كله فى سعال لاينقطع
ولازمتها كاثرين قلت لوصفى إن حالة الميس لا تتحسن، بدا فى وجهه انزعاج
وأسف وقال إنه كان يريد أن يقترح شيئاً لا يعرف كيف ساقبله أنا أو ستقبله
الآنسة.. تساءلت إن كان يريد أن يطلب يدها منى نظرت له ليكمل كلامه فقال إن
الأومباشى وهبة الذى جاء معه أخبره أن لديهم فى هذه الواحة أعشاباً ونباتات لا
توجد فى أى مكان آخر فى مصر وإن كثيراً من الناس يأتون من مرسى مطروح
بل ومن الإسكندرية للتداوى بهذه الأعشاب التى لها مفعول السحر.

قلت إننى أصدق ذلك تماماً لأن العلاج بهذه الأعشاب هو الذى أنقذ حياة
الشاويش إبراهيم وأنا أستغرب كيف لم يخطر هذا على بالى حتى الآن.
ثم فكرت كيف أستطيع أن أطلب عون الشيخ صابر أو أى إنسان آخر فى
الواحة وأنا الآن العدوا الذى لا يوجه له أحد مجرد السلام.. قلت لوصفى إنى
سأعرض الفكرة على الآنسة فيونا وسأترك لها القرار.

وفى اليرم نفسه نقلت إلى فيونا ماسمعت وحدثتها عن تجربتى مع إبراهيم

فبدأ فى وجهها الاهتمام وقالت فلنجرب يا محمود. ما الذى سنخسره؟ هذا الدواء
المر الذى وصفه لى الأطباء فى أيرلندا لم يعد يفيد بشئ. نظرت إلى كاثرين
فقطبت حاجبيها غير مقتنعة، لكن فيونا ألت.

رجعت إلى قسم الشرطة واستدعيت وصفى ومعه الأومباشى وهبة السلماوى.
رأيت مرات من قبل لكنى لم أكلفه بأى عمل. كان الأومباشى ضخم الجسم له
ملامح بدوية ولهجة بدوية نفرت منها: سألتها عما يعرفه فكرر أمامى ماقاله
لوصفى.

وهل تعرف من يعالج بهذه الأعشاب؟
بدأ فى وجهه الأسى وقال مع الأسف ياسعادة المأمور. آخر من شهد له أهل
مطروح الذين قصنوا سيوة للعلاج. اعتزل العالم كله ويسجن نفسه فى حديقته.
قال وصفى بحماس . فلنجرب معه.

فكرر وهبة محذرا - هو لا يقابل أحداً يا حضرة اليوزباشى . ثم نظر نحوى
وهو يقول ببطء بصوته الأجش: حتى لو قلنا له إننا من طرف سعادة المأمور
فسيرفض أن يقابلنا . أنا أعرفه.

أدركت أن وهبه يعرف أشياء عما جرى فى الواحة فلم أعلق على كلامه، لكن
وصفى قال بالحماس نفسه: هل تسمح لنا أن نحاول ياسعادة المأمور؟
سكت لحظة كان وصفى خلالها يتطلع نحوى بلهفة فكررت ماقالته فيونا «ماذا
سنخسره؟».

أدى وصفى التحية العسكرية التى لا يكف عن تكرارها.
ثم قال بلهجة أمرة: ورائى يا أومباشى.
وبعد قليل سمعت وقع حوافر حصانين يقادران باحة القسم.



١٥ - كاثرين

هل قلت إن اسمه الشيخ يحيى؟ أنا أعرفه.

حكيت لمحمود وفيونا عن مقابلي الوحيدة مع الشيخ وقلت إنها كانت في يوم الزيارة إياها لبيتنا مدركة أن محمود سيفهم، أما فيونا فقالت ما دمت تعرفينه ياكاثرين فلنحاول معه.. لا أمانع أن أذهب معك لتقايه، احتج محمود: لا يمكن، إذا كان قد رفض أن يقابل ضابطا وجنديا يعرفه منذ زمن طويل فما الذي يجعله...

لكني رأيت لهفة فيونا فقاطعت: لو كنت أنا مكانه لرفضت أيضا، هذا كما لو كان أمرا عسكريا لرجل اعتزل الدنيا كما تقول بأن يقطع عزلاته. لكن ربما لو ذهبنا نحن إليه وحدنا - مجرد امرأتين تطلبان العون فقد يختلف الحال.

خاطبني بالعربية قائلا - خروجك أنت بالذات في هذه الظروف خطر وأنت تعرفين. خطر يهددك ويهدد فيونا معك.

عندما سمعت اسمها على لسانه قالت بلهجة ضارعة: وافق يا محمود أرجوك. أنا لا أتوقع معجزات بطبيعة الحال، لكن لو هناك شيء يخفف ولو قليلا من هذا السعال فأنا.. ثم سكنت.

حول محمود بصره عن فيونا وبدأ مستغرقا في التفكير ثم قال:

لا أطمئن لخروجكما وحيدتين، سأرسل معكما بعض الجنود.

هتفنا في صوت واحد تقريبا «لا» - ثم ضحكنا.

وقف مترددا لحظة ثم انصرف، أنا متأكدة مع ذلك أنه سيرسل خلفنا بعض الجنود.

لبست ثوب ركوب الخيل، وارتدت فيونا ثوبا رماديا ووضعت على كتفها شالا من الصوف ثم انتظرتنا طويلا أن يرسل لنا محمود الحمارين، خمنت أنه يجد مشكلة في العثور على من يرضى بتأجير أى شئ لنا فى هذا الوقت الذى تعادينا فيه الواحة.

رويت لفيونا بإيجاز قصة مليكة، حكيت فقط عن زيارتها وهى غولة عن موتها، لم تبد دهشة كبيرة حين سمعت عن أسطورة الغولة، لكن الحزن اكتسح وجهها حين سمعت بموتها الذى ظل لغزا، أهو قتل أم انتحار؟

قالت: لا تفضيبنى منى ياكاثرين، سواء كانت قد انتحرت أم لا فهى قد ماتت قتيلة على أى حال، لتكن عاداتهم هنا ما تكون، تعجبنا أو لا تعجبنا - هى عاداتهم وهم راضون بها.

ما شأنا إن كانوا يتشامون من الأرامل أو لا يتشامون؟ هذه حياتهم التى ظلت تمضى على طريقتهم منذ مئات السنين، لم يحدث موت أو قتل بسبب هذه العادة إلا عندما جاء الأغراب.

دافعت عن نفسى: أنا لم أفعل شيئا ، هى التى جاءت إلى بيتى عندما كان محرما عليها الخروج ،
لم تقل فيونا شيئا .

وكنْتُ بالفعل أدافع عن نفسى أمام أختى. فماذا لو كنْتُ قد حكيت لها القصة كاملة؟

بمنتهى الصعوبة خرجت من هذه الأزمة، سجنت نفسى أيا ما بعد أن سمعت بموتها لاتفارقنى صورتها ولا يفارقنى حزنى. أفكر فى كل ثانية من لقائنا الوحيد وما انتهى إليه. أحاول أن أفهم ما حدث وأحكم نفسى. هل هى التى أغوتنى؟ أنا التى أغويتها؟ وهل كان هناك إغواء بالفعل أو خوف؟ كانت فى منتهى العنوبة حين دخلت. أدركت استحالة التفاهم باللغة فاخترعت حكاية التمثالين، لكنها غضبت

منى ومن نفسها لأنها عجزت عن إقهاى ما تريده بالكلام وبإشارات التمثالين. وما الذى كانت تريده بالفعل؟ عندما عانقتنى كان احتضانها رقيقا كعناق طفلة. أنا التى سيطرت على لحظتها فكرة سافو وغزلها الأثنوى. هل كنت خاضعة بالفعل لتأثير شاعرة (ليسيوس) أو متوجسة منه؟ رغبة فيه أو رافضة له؟ دفعتها بعيدا عنى فتمزق ثوبى. خافت . لعلها أرادت أن تثبت أنها لا تريد إيدائى فركمت أمامى تحتضن ساقى. أما ما بعد ذلك فضباب كامل فى ذهنى. لماذا قبلت صدرى؟ ما الذى حدث فى تلك اللحظة بالضبط؟ هل فاجأها صدرى العارى فقبلته أو أنا التى ضمنتها إلى؟ جاء دورى أنا لأخاف فاخطفت الجريدة وبدأت أضربها وتلك الأشعار الملعونة تطاردنى.

لا أعرف بالضبط ما كان يدور فى ذهن مليكة. لعلها كانت بريئة تماما . ما كان يعينى هو أن أحاسب نفسى وقد انتهيت إلى أن هذه بالفعل ليست حقيقتى. هى فى أسوأ الأحوال لحظة ضعف. لحظة ارتباك بسبب الوحيدة القائلة فى هذه الواحة. نعم هذه اللحظة لم تكن إلا وهما. ويفضل إرادتى وحدها استرددت نفسى من الخوف والضعف. لست مسئولة عما حدث، ولم يكن ما حدث مهما، ولست مذنبه لموت مليكة. فهل يمكن لفيونا أيضا أن تفهم وأن تبرئنى لو حكيت لها هذا التعقيد كله؟ أما أنا فقرررت أن أطوى هذه الصفحة نهائيا.

جلسنا صامتين فى الشمس ننتظر، رسولا من محمود الذى لم يساوره لحسن الحظ أى شك فيما دار بينى وبين مليكة سوى أنها هاجمتنى ومزقت ثوبى.

وأخيرا سمعنا نهيق الحمير ونداء باسم محمود. فتحت الباب فوجدت أسفل السلم جنديا طويلا عريضا من الشرطة يركب حمارا ومعه صبي متجههم يجر حمارين. تقدمت فيونا أيضا من الباب ولوحت بيدها واتسعت ابتسامتها وهى تقول بلهجة بالغة الركالة:

— إصباح الخير مستر سلماوى!

رد الشرطى تحيتها بحرارة وخاطبتنى بصورة عابرة: كان معى فى القافلة.
يعرف قليلا من الانجليزية وهو طيب جدا.
كانت الشمس تغمر الخلاء المقدم أمانا والمدينة المحصنة إلى يسارنا لكن
فيونا شعرت بهواء بارد فدخلت ورجعت بعد قليل وهى تلبس العباءة الزرقاء المقلمة
التي تلتف بها النساء فى الواحة وقالت وهى تمسكها حول جسمها:
.. أليست جميلة؟

نظرت لها باستغراب وقلت: هى تدفى على أى حال.
فقلت بشئ من الفخر: يسمونها «تارفوتيت» . أهدتها لى امرأة فى القافلة...
وقف الأطفال ينظرون إلينا من بعيد ويصيحون بأصواتهم الرفيعة ما خمنت
أنه شتائم نهرهم السلماوى وهو يلوح مازحا بضحكته فجرى الأطفال مبتعدين.
سألته بالعربية: المسافة بعيدة؟ فقال ربيع ساعة تقريبا . لم تكن فيونا قد ركب
حمارا من قبل وكانت تضحك مبتهجة كطفلة وهى تحاول امتطائه، لكنى حذرتها
من أن الحمير تقفز فجأة أحيانا وتتطوح فتسقط من يركبها ونصحتها أن تتشبث
جيذا بالجام.

سبقنا السلماوى فى الطريق وكان الولد العابس يجرى ورائنا كالمعتاد. خلفنا
شالى ورائنا واتجهنا شرقا نحو أغورمى فى الطريق الترايبى المفضى إلى المعبد.
هذا هو الطريق الذى قطعته مليكة وهى عائدة من منزلنا تتزف دما، وهو آخر ما
رأت من الدنيا. كفى! ألم أعاهد نفسى ألا أفكر فيها أبدا؟

أسمع من وراء الأسوار أغنيات الزجالة المعتادة، لكن رائحة التين وفواكه
الصيف والخريف الأخرى اختفت وتفوح الآن بدلا منها رائحة سماء عضوى فى
الأرض. قلت لنفسى بمرارة هى أول مرة ألاحظ فيها تغيير الفصول. لم أخرج من
البيت منذ سجننى محمود ومنذ وصلت فيونا. كأن علاقتى بالدنيا قد انقطعت منذ
سنتين وكأننى لم أمر بهذا الطريق أبدا من قبل!

ظهرت أعمدة المعبد عن بعد، لكن قبل أن نصل إليه، انحرف السلماوى يسارا فتبعناه.

وصلنا أخيرا إلى حديقة مسورة لا يبين من داخلها شئ غير مراوح السعف وهى تصفق برتابة مع النسيم الذى حمل لنا أيضا رائحة النعناع والياسمين والليمون وروائح عطرية كثيرة.

توقفنا أمام الباب المفتوح وأرسل سلماوى الصبى الذى يصحب الحمارين ليبلغ الشيخ. غاب الولد طويلا ورأيت فيونا مستبشرة تتطلع حولها بابتسامتها التى لا تغيب وقالت: هذا البلد غريب ياكاثرين، عندما ترين كل هذه الخضرة وكل هذه المياه تنسين أنك بالفعل وسط بحر من الرمل.

- لكن الرمل ليس بعيدا مع ذلك، لو مددت بصرك بعد هذه الخضرة ستريته فى كل مكان..

وفى تلك اللحظة رجع الولد ومعه صبى فى مثل سنه وأبلغا سلماوى أن الشيخ معتكف ولا يقابل أحدا.

قلت لسلماوى فى غضب: مستحيل! سأدخل أنا بنفسى لأكلهم.

تحركت نحو الباب فوقف سلماوى أمامى وفرد ذراعيه يسد الطريق وقال بأدب، بصوته الأجش: ياهانم، هذا هو المستحيل، حتى فى الأحوال العادية لا تدخل النساء هنا على الرجال بمفردهن ويدون إذن. أما الآن فسيغضب مولانا الشيخ جدا، ثم سكت لحظة وأكمل وسيجعل هذا موقف سعادة المأمور أصعب فى الواحة كلها...

إنن فهو يعرف كل شئ هذا السلماوى.

تجمدت فى مكانى فى عجز وقهر. وطلبت منى فيونا أن أقول له إننا نطلب نصيحة الشيخ حتى ولو رفض أن يقابلنا، يمكن أن يشرح لنا علاجا أو أن يبلغنا باسم شخص آخر يثق به.

عاد سلماوى يخاطب الصبيين ثم وقفنا من جديد ننتظر، تطلعت إلى فيونا. لم تفقد هدوءها لكن خيبة أمل كانت تغشى وجهها وهى تقول بلهجة مستسلمة:

– إن لم ينفع هذا أيضا فليس أمامنا سوى أن نرجع.

لكن فى لحظتها رأيت الصبيين يعودان جريا وقالوا شيئا لسلماوى الذى تهلل وجهه وأشار لى وفينا أن نرجع قليلا عن الباب. ويعد قليل رأيت الشيخ يحيى بنفسه بنظارته المربوطة بنوارة إلى أنه هو يتوكأ على عصاه.

بدا لى أنه شاخ كثيرا عما كان عليه فى المرة الوحيدة التى رأيت فيها، وقف داخل الباب ووجهه مكتن بالغضب.

لم ينظر نحوى ولا نحو فيونا لكنه خاطب سلماوى بعبارات هادئة باللغة التى نجهلها وسلماوى يحاول أن يسترضيه ملوحا يديه فى ضراعه لكن الشيخ أوشك أن يستدير عائدا عندما طالبتى فيونا بسرعة أن أقول له إنها سمعت أنه معتكف ليعبد الله، وأن أفضل عبادة الله كما تعرف هى أن يساعد الإنسان من يحتاجون إليه.

نقلت للشيخ بصوت عال ما قالت فيونا ويدأته بعبارة: أختى تقول لك...

فرد دون أن ينظر نحوى بصوت مرتعش لكنه واضح تماما – قولى لأختك لا أحد يتكلم باسم الله – هو وحده الذى يقدر ويحكم...

فقالت فيونا: هى خطيئة مع ذلك فى كل الأديان أن يرد الإنسان محتاجا يطرُق بابه...

وقال هو: إلا إن كان الطارق قاتلاً أو حاقداً.

وردت فيونا – قلبى لا يعرف حقدأ على أحد. جئت أطلب عونك ورفضت أن تساعدنى لكن الله يعلم أنى لا أكرهك.

تقدم نحونا قليلا دون أن يتجاوز باب الحديقة وحق من وراء نظارته فى وجه فيونا وهو يقول: وأختك؟ والمأمور؟

كنت أترجم بينها وبينه بشكل الى فقالت فيونا - لا أستطيع أن أجيب عن أختي ولا عن المأمور ولكنى أعرف أن الكراهية فى أى قلب هى مرض. أصابنى الله بالعلة التى جئت أطلب عونك من أجلها، غير أنه أنجاني من هذا المرض. ثم قلت : وعن نفسى ياشيخ يحيى فأننا أيضاً لا أكره أحداً. فقال بشكل عابر وهو يحدق بنظره الكليل فى وجه فيونا: فهل تحبيننا؟ هل تحبين أنت وزوجك بلدتنا وناسها؟ ولم ينتظر رداً، بل استدار عائداً من حيث جاء مستنداً إلى عصاه وإلى كتف الصبى.

وقفت فيونا تتابعه ببصرها إلى أن اختفى وظلت أنا أيضاً كالمشلولة فى مكانى أراقبها فى عجز. تحركت نحو الحمارين وهى تسعل بشدة وتضع يدا على فمها وأشارت لى بيدها الأخرى للرجع. قال سلماوى بصوت متهدج: كان معها نواء فى القافلة ينفع عندما تأتيها نوبات السعال.

قلت بجفا: ليس معنا هذا النواء هنا وهو لم يعد ينفع. قالت فيونا تتعجلنا: هيا بنا است بحاجة الآن إلى نواء. لكننى كنت أتمنى بالفعل أن يساعدنى هذا الشيخ. فهتفت: عليه لعنة الله!

عبست فيونا فى وجهى وهى تقول: أرايت ياكاثرين؟ ها أنت تثبتين أنه على حق!

قلت فى غضب أشد : لست قديسة مثلك! فردت : ولا أنا قديسة. ولا أحب أن ينادينى أحد بهذا الوصف. كنت أخجل أن أقول هذا لأبى الذى اخترع اللقب، لكن أرجوك أنت ألا تنادينى به. لست قديسة. يكفى أن نكون مجرد بشر. يكفى ويزيد.

فى طريق العودة لزمتم فيونا الصمت تماما . انحنيت فوق حمارها وبدأ لى كما لو كان جسدها كله متهدما فرحت أحدث نفسي: إياك أن تموتى يا فيونا! إن لم تكونى قديسة فلتصبحى كذلك ولتصنعى معجزة لتشفى من هذا الداء! ما هو على أى حال ذلك المرض الذى لا يعدى ولكنه يكاد يقتلك؟ اصنعى المعجزة مادام طب أيرلندا لم ينفع وهذا الشيخ الملعون يرفض حتى أن يحاول. أنا لا أصدق تماما حكاية أعشابهم السحرية أو أن هذا الشيخ يمكن أن يكون لديه بواء ناجع لكنى نفدت رغبتك لا أكثر .

تحدث عن كراهيتى وعن حقدي! حققتنا أنا ومحمود، بل هو الحقود! نحن على من نحقد؟ على هذه الواحة وناسها كما قال؟ غلطا! هم يستحقون الرثاء لا الحقد. أنا حتى لا أفكر فيهم ماداموا بعيدين عنى، لم أكره هؤلاء الشيوخ رغم جهلهم وضيق أفقهم، بل أحببت هذا الشيخ إلى أن رأيت ما فعله اليوم. لا . أحببته كلمة فيها مبالغة، أقصد أنه أمجبنى يومها. وجدت فيه شيئا يختلف عن الشيوخ الآخرين، لكنى اكتشفت حقيقته الآن. هو أسوأ منهم ، عليه لعنة الله ألف مرة مهما أغضبك هذا يا فيونا، أنا لا أغفر بسهولة مثلك.

عندما وصلنا إلى البيت كانت فيونا من الإعياء بحيث وضعت لراعها حول كتلى ونحن نصعد السلم المتاكل وأحطت وسطها بيدي وكنا نرتاح عند كل درجة وهى تتنفس بصعوبة. وعندما فتحت الباب تهاكت على أول مقعد فى الصالة وهى تقول متتهدة:

لم أخرج.. من البيت.. منذ وصلت. هذا هو السبب... فقدت التعود على الحركة. لا تلقى ياكاثرين سوف أنام قليلا وستصبح حالتى أحسن. نظرت إلى وجهها وأنا أتصنع الابتسام قائلة: است قلقة يا فيونا، أفهم أنها أزمة عابرة مثل غيرها.

فى الحق لم أكن قلقة، كنت ميتة من الرعب.



فى الصبأ صحوى بمزأ سىئ.ؑ
ظلت فىونا راقدة فى الفراش ولم أآبال كلاما كآىرا مع مأمود أثناء الإفطار؁
لكنى طلبت منه أن ىءعو الیوزیاشى وصفى على فنجان من الشأى عندنا فى
المساء؁

قال متعجبا : الیوم؟ ألم تقولى إن فىونا متعبة؟
- ولهذا السبب أریءه أن یأى؁ قد یفید التؑیر والصحبة. هذه العزلة التى
نعیشها ممیة.

قال متشككا : لا أظن أن صحبة وصفى...
فمقاطعته: هل تفار؟
رد بدهشة: من هذا الطفل؟
فأكملت بلهجة عصبیة بالرغم منى: إذن فاءمه الیوم. وقل له أیضا إنى أآب
أن أطلع على مالىء من كآب عن سیوة.



قضيت النهار مع فيونا في حجرتها في الطابق الثاني. حملت لها إفطارها في الفراش فلم تمنع كما اعتادت من قبل. تصر دائما مهما كانت حالتها على النزول للإفطار معي في الصلاة بعد أن تغتسل وتلبس كامل ثيابها كما لو كنا خارجتين لمقابلة مهمة. لكنها ظلت هذا الصباح في الفراش، ولم تنجح بسمتها في إخفاء إعيائها الشديد بقيت معها وعرضت عليها أن تنتقل إلى حجرة في الطابق السفلي معنا حتى لا يرهقها طلوع السلم ونزوله، لكنها فضلت البقاء حيث هي.

وفي المساء كنا جالستين معا في صالة البيت ننتظر محمود ووصفي، بعد أن جاء الشاويش إبراهيم ليبلغني أنهما سيصلان عند الغروب. أفادت الراحة فيونا فتحسنت حالتها قليلا. تزينت وحاولت كالعادة أن تبدو طبيعية.

دخل محمود كالعاصفة بعد طرقتين على الباب وهو يحاول أن يكبح انفعالا شديدا يطل من وجهه، وكان وصفي وراءه يبتسم بشئ من الدهشة وهو يحمل حقيبة ثقيلة.

لوح محمود في وجهينا بلقافة يمسكها بيده وهو يقول: تخيلا ما الذي حدث؟ قلت وكيف يمكن أن نعرف؟

لكن حتى قبل أن ينتظر منا جوابا بدأ يتكلم بسرعة وحماس: دخل على الأومباشي السلماوي.. أقصد كنت في مكتبي أتأهب للانصراف عندما دخل الأومباشي وهو يحمل هذه اللقافة. أحضرها له صبي، تخيلا ممن؟ تخيلا ما الذي فيها ؟

قالت فيونا: يكاد يقتلنا الفضول يا محمود. قل أنت ما الذي يوجد في هذه اللقافة السحرية؟

أمسك محمود اللقافة ورفعها أمام وجهه متأملا وهو يقول: هنا يوجد نواء وتوجد زجاجة زيت من أرسلهما؟.. الشيخ يحيى ولا أحد سواه ينصح بأن تدفن

فيونا صدرها بالزيت وتغطيه بالصوف طول الليل وأن تتناول الشراب أول شئ في الصباح.

قلت : الشيخ ؟ تصورا...

ثم أكملت متشككة: لكنه رفض أن يراها بالأمس أو أن يسمع شيئا عن حالتها.

فكيف اختار لها هذا العلاج؟

تدخل وصفي: سألت أنا أيضا يامسبز كاثرين هذا السؤال، فرد سلماوى بأنه لاحظ أن الشيخ ظل ينظر طويلا في وجه الميس فيونا وأنه استمع إلى سعالها..

قلت : وهل يكفى هذا للتشخيص؟..

فقاطعتنى فيونا : يكفى أنه فكر في مساعدتنا ياكاثرين. كنت واثقة رغم غضبه أنه شخص طيب...

ضحكت : بالطبع كل الناس عندك طيبون يا فيونا!

فقالت بلهجة جادة: لا. بل الطيبون فقط. وربما يفيد علاجه يبنو أنه شيخ مجرب.

قال محمود بحماس: بالتأكيد سيفيد. أدويتهم تصنع المعجزات .

جلسنا جميعا حول المائدة، ووضع وصفي حقييته إلى جواره وهو يقول : لن تبقى طويلا على أى حال. لابد أن يرتاح سعادة المأمور قليلا لأنه سيخرج الليلة في دورية في الصحراء..

سألته وأنت أيضا؟

فرد وفى صوته نبرة أسف: لا . سعادته يريد أن يخرج وحده.

وغمغم محمود : لابد أن يبقى أحدهما فى القسم.

بدأت أصب الشاى فطلب وصفي بشئ من الخجل أن يكون شايه خفيفا جدا.

وقال محمود إن وصفي حريص على صحته وإنه لا يشرب الشاى ولا القهوة إلا للمجاملة.

قلت: ربما لديه تسليية أخرى. فرفع الحقيبة الثقيلة الموضوعة إلى جواره وقال مبتسما: القراءة فقط، ومعنى الآن كل ما طلبته من الكتب..

بعد أن قدمت الشاي أخذت منه الكتب وبدأت أراجع عناوينها. وجدت أنها هي نفسها التي أحضرتها معى من القاهرة - أطلس مينوولى الشهير والصور التي رسمها للمعابد عند زيارته للواحة فى عام ١٨٢٠ وترجمة لكتاب رولفس الألمانى عن الواحات وكتبا أخرى أعرفها. لكنى وجدت مقالا جديدا فى المجلة الجغرافية الملكية لانجليزى اسمه بارملى عن الصحراء الغربية وقبائلها. استأننته فى الاطلاع على المجلة وإعادتها له بعد أيام فقال إننى يمكن أن آخذ كل الوقت الذى احتاجه لأنه قرأ المقال بالفعل، وكان يعرف من قبل أن يقرأه أن كل المعابد المصرية الموجودة فى سيوة، بما فيها معبد الوحي، ترجع إلى آخر فترات الصحوة المصرية قبيل غزو الفرس لمصر، وقد بناه الملك...

كان محمود يتابع الحديث وفى وجهه ضيق وملل فقاطع وصفى قائلا:

- أى أنه بناء على كلامك ياوصفى فبينما كان الفرس يستعدون لغزو مصر كنا نحن نستعد لهم ببناء المعابد. عظيم! رأى الملك أن بناء المعبد أفيد للبلد من بناء جيش وهو يعرف أن الفرس قادمون ، لم لا؟

بدا الارتباك فى وجه وصفى من لهجة محمود الاستفزازية وتخلص من الموقف بعبارة جاهزة: الأيام نول!

تدخلت لإنقاذه فقلت يا محمود المعبد عند المصريين لم يكن مجرد بناء بل وسيلة حماية، كان رمزا للبلد كله، سقفه مزين بالنجوم كالسما وأرضيته هى تربة مصر. ينبت فيها الزرع المرسوم على الأعمدة التى كانت هى نفسها نباتا سامقا من البردى. وفى قدس الأقداس يتجلى الإله الذى يحمى هذا الوطن من الخراب ومن الأعداء أيضا.

كرر محمود متظاهرا بمنتهى الجد: عظيم! عظيم!

نجح فى إرباكى أنا فغمغت: هذه عقيدتهم يامحمود...

حلت لحظة صمت فسالنى وصفى: بمناسبة قدس الأقداس يامسز كاثرين فقد قرأت أنهم فى العصور المتأخرة كانوا يعبدون آمون فى سيوة باعتباره إله الشمس الغارية، أعرف أنهم وجدوا بينه وبين رع إله الشمس، لكن لماذا عبدوه هنا كشمس غارية؟

قلت : نعم ، قرأت ذلك أنا أيضا وفكرت فيه. أنت تعرف ياكابتن وصفى أن الغرب أو الأفق الغربى عند المصريين هو مملكة أوزيريس، مملكة الموتى وأرض الحساب التى اعتقد المصريون أنها فى مكان ما فى الصحراء الغربية، وبما أن سيوة هى أقصى الغرب من مصر فلعلهم اعتبروها أيضا آخر محطة تقرب فيها الشمس عن الدنيا.

أطلق محمود ضحكة مفاجئة وقال: إذن فقد أصبح آمون هنا أيضا إلها للموت!

قال وصفى بصوت عال فى انفعال مفاجئ:

-- بل للخلود!..

ثم استدرك بلهجته المهدبة: الخلود ياسعادة المأمور! الأفق الغربى هو عالم الخلود..

ظل محمود يتفحصه محاولا أن يخفى امتعاضه ثم سأل عن سر اهتمامه بهذه الحفريات التاريخية وهو ضابط الشرطة الذى يشهد له بالكفاءة ، ألم يجد هوية أو تسلية أفضل؟

قال وصفى: هذه ليست مجرد تسلية ياسعادة المأمور . أنا أحاول أن أعرف تاريخ بلدى وأجدادى، أدرس آثارهم وعظمتهم التى بهرت الدنيا لنقتدى بهم، لو كان الأمر بيدى لقررت تدريس تاريخ مصر القديمة وأثارها على التلاميذ منذ

الصفر. سيتعلمون كيف كانت الدولة قوية والحكومة منظمة وأنا يجب أن نصبح أقوىاء مثلهم لنسترد عظمتهم..

استمر محمود فى إلحاحه: لكث تعلم أن مقرر التاريخ فى المدارس منذ الاحتلال هو تاريخ إنجلترا فقط. التاريخ المصرى ممنوع فى مدارسنا الآن، ولكن يمكن بالطبع تعليم التلاميذ أهمية النظام والقوة من تاريخ إنجلترا أيضا، قطب وصفى جبينه وقد فطن إلى أن محمود يسخر منه فقال:
- أعتقد سعادتك أنهم منعوا تدريس تاريخ مصر حتى يجنبوا التلاميذ دراسة مرحلة الفتنة والخيانة وتلويث أفكارهم.

سال محمود : أى خيانة تقصد يا حضرة اليوزباشى؟

- خيانة عرابى ومن معه من العصاة بالطبع.

قالت فيونا : تقصد عرابى باشا ياكابتن نيازى؟

وسالها وصفى بدهشة: هل تعرفينه؟

ردت : كنت صغيرة أيام ثورته، لكن أبى مثل كثير من الأيرلنديين فى حينها كان يعتبر عرابى باشا بطلا يقاوم احتلال الإنجليز لبلده. علق صورته فى مكتبه وظلت هناك طويلا.

قال وصفى : إذن فهو لم يكن يعلم وأنت أيضا بالتاكيد لا تعلمين أن عرابى خان مولاه الخديوى ونشر الفوضى فى البلد . لكن تمرده انتهى لحسن الحظ بهزيمة منكرة.

قطبت فيونا جبينها وقالت محاولة أن تخفى غضبها: كثير من زعمائنا فى أيرلندا انتصت ثوراتهم على الإنجليز بالهزيمة لكننا نظل نعتبرهم أبطالاً، هم حاولوا على الأقل .

- لكن عرابى ...

قالت فيونا بنفاد صبر وقد احتقن وجهها الشاحب : لماذا لا نغير الموضوع؟

ثم اعتذرت على الفور بابتسامة مصطنعة: السياسة تجلب الشقاق دائما. ربما يكون حديث الآثار أفضل...

قلت لنفسى شكرا لك؛ يافيوننا لم أعرف أنا كيف أضع حدا لهذا الحديث الشائك.

وأنا ما دعوت وصفى إلا لحديث الآثار. لم أشاركك الهجوم عليه رغم أنه يستحق أكثر من مجرد التائب. يكاد يدافع عن احتلال الإنجليز لبلدها أى عارا لكن من العقل الآن أن اسكت، فأنا أحتاج إليه. غير أنى راقبت محمود متوقعة منه أن يغضب ويثور على وصفى ، لم يفتح فمه! ما المفاجأة فى هذا؟ متى نجحت فى فهم سلوك محمود أو تصرفاته؟ لزم الصمت وهو يحدق فى فيونا أثناء انفعالها الوجيه كأنه يراها لأول مرة. مهما يكن فيجب أن أرتجل الآن شيئا لإزاحة هذا الصمت الثقيل. لابد أن أرضى الجميع.

رسمت بسمة عريضة وتكلمت متظاهرة بالحماس. فعلا اقترح فيونا أفضل بكثير فلنترك السياسة ولنعد إلى الآثار. أريد أن أسأل الكابتن وصفى هل يهتم أيضا بالآثار اليونانيين فى مصر؟ هل يعتبرها آثارا مصرية وهل يعتبر الإسكندر والبطالة مصريين أيضا؟

رد وصفى وهو مازال متجهما. بالطبع. المصريون أنفسهم توجوا الاسكندر فزوعوا مصريا والبطالة عاشوا فى مصر أجيالا متعاقبة فهم مصريون أيضا. نطق محمود أخيرا على غير توقع وهل تعتبرون الانجليز الذين يحتلون بلدكم أيرلنديين لأنهم عاشوا فيها أجيالا متعاقبة؟

رفعت سبابتى فى وجه محمود وقلت بلهجة مازحة - لا تجربنا مرة أخرى للسياسة. اتفقنا على أننا انتهينا من هذا الموضوع، والمقارنة ليست دقيقة تماما. ثم وجهت الحديث لوصفى: لكنت كنت تحاول فى المرة السابقة أن تقول شيئا عن معبد بلاد الروم، ما الذى قرأته عنه بالضبط؟ يهمنى أن أعرف.

حاول وصفى أن يتغلب على اكتنابه وأن يتكلم بطريقة عادية: لابد أنك قرأت عنه مثلما قرأت أنا. هو على الأغلب معبد يونانى أو رومانى لأنهم أسموه المعبد الدورى. واضح من أن أعمدته كانت من الطراز الدورى اليونانى وليست من طراز الأعمدة المصرية.

قلت : لا يمكن مع الأسف أن نتأكد لأنه تهدم كله.

قال وصفى: نعم، لكنى قرأت أيضا أنه توجد فى المنطقة المجاورة له مقابر منحوتة فى الصخر، كلها منهوبة ولا توجد عليها نقوش لكنها فى الأغلب أيضا مقابر يونانية أو رومانية.

فكرت قليلا ثم سألته : هل تنوى زيارة هذه المنطقة ياكابتن وصفى؟ خميسة ليست بعيدة وهى غنية بآثار لا توجد فى غيرها. لو فكرت فى زيارتها فيمكن أن أصبحك.

قال بشئ من التردد: إذا سمح سعادة المأمور بذلك.

قال محمود الذى كان يحنى رأسه شاردا عن حديثنا: فى يوم عطلتك أنت حر يا حضرة اليوزباشى فى الذهاب حيث تشاء. ولكن أنت ياكاثرين .. هل ستصحبن معك فيونا فى هذه الرحلة؟

رددت بسرعة - أقصد بعد أن تتحسن حالتها . قريبا بالطبع، مع تحسن الجوى.

انتبهت فيونا عندما ذكر اسمها وخاطبتني قائلة: بالطبع ياكاثرين ، لابد أن أصبحك عند زيارة البحيرة فريما نكتشف هناك شيئا تحت الماء.

ضحكتا للمجاملة لاغير. انتهى السمر وماتت الأمسية بالفعل منذ بدأ حديث السياسة ولم أنجح فى إحيائها من جديد، بل نجح محمود فى إخراجى فلزمت السكوت أيضا. وانتهن وصفى لحظة الصمت التى حلت ليجمع كتبه ويضعها فى حقيبته بعد أن ترك المجلة على المائدة وشكرنى على الشاى الذى لم يكن قد شرب

منه رشفتين.

تأهب للانصراف فمدت فيونا يدها تصافحه وهى جالسة وقالت : حاول أن تزورنا بين وقت وآخر ياكابتن نيازى.

.. سيسعده هذا كثيرا وهو يتمنى أن تساعدنا الأدوية الجديدة على الشفاء بسرعة. صحبتة خلوتين وأنا أشكره للزيارة ومشى معه محمود حتى الباب وسمعته يقول :

- سأمرهم بإعداد الحصان الأبيض لسعادتك . أعرف أنك تحبه.

لكن عند الباب قال محمود فجأة : سأرجع معك إلى القسم.
لوح مودعا قبل أن يخرج دون أن ينظر ناحيتنا ، وبمجرد خروجهما قامت فيونا من مكانها وقالت وهى تلتقط اللفافة:

- سأصعد لأرتاح قليلا . ربا نبدأ تجربة أدوية الشيخ هذه الليلة.

تابعتها ببصرى وهى تمشى ببطء نحو السلم الصغير وتصعد درجاته ببطء لو تعرفين كم أتمنى أن يفيد هذا العلاج حتى ولو لم أقتنع به ، لكن معك فأنا أحلم بمعجزة من أي نوع. أنت صنعت معجزة بالفعل حين نزعت الغل والغضب من قلب هذا الشيخ وجعلته يرسل هذه الأشياء، فأكملى المعجزة لتعيشى..

ولكى يعيش محمود أيضا!

نعم ، محمود يحبك بالطبع . منذ متى شعرت بذلك؟ ربما من أول لحظة عندما وقف عند الباب مأخوذا ومرتبكا حين رآك. وأشعر به الآن حين يحاول أن يهرب بنظراته منك. قد يكون عاقلا أو مجنونا لكنه ليس ممثلا بارعا. هى أفعاله ذاتها وتعبيرات وجهه ذاتها التى رأيتها عند بدء علاقتنا عندما كان يحاول أن يهرب من الحب بالدخول فى ذاته وبالصمت، بتجنب المواجهة، وبالاكتئاب! لكنى أرى أرتياكه هذه المرة أشد وحزنه أعمق. يدرك بالطبع أن هناك أبعد وأدرك أنا حبه لك ولا أغضب.. لا أشعر حتى بالغيرة الطبيعية لزوجة مهجورة. أقول لنفسى هذا

عدل! هو القصاص الواجب .. سرقت أنا منك مايكل فاصنعى الآن معجزة الشفاء وسأعطيه لك أو سأعطيك له. ولكن هل تقبلين أنت؟ هل تبادلينه الحب؟ لم أر فى عينيك حبا له. أقصد ذلك النوع من الحب. وهل تعتبر القديسة هذا التبادل المتأخر للرجال خطيئة؟ إذن لا يهم يافيونا، اصنعى معجزة الشفاء ثم اتركه لى. أقصد اتركه لنفسه فنحن لم نعد حبيبين منذ جئنا إلى هذه الواحة. ولم نعد زوجين منذ فرقت بيننا دماء مليكة. لم يعد يلمسنى ولا عدت أنا أيضا أرغب ملمسه.

كيف حدث ما حدث؟ لو كنت أستطيع أن أتكلم مع أنسة بريئة مثلك من هذه الأمور لسألتك. لكن ليس لى سوى نفسى أعتمد عليها. يجب أن أفتش أكثر داخل نفسى لأنهم ما جرى. بل يجب أن أنسى هذا كله وأرميه وراء ظهرى. يجب أن أستأنف عملى ويحشى. هذا وحده هو المخرج لاسترد كاثرين الحقيقية.

كنت أقلب لون تركيز فى الكتب التى تركها وصفى عندما فوجئت بطرقات محمود التقليدية قبل أن يفتح الباب ويدخل مندقما.

شمل الصالة بنظرة عابرة ثم جاء يجلس إلى جانبى.

سألته: هل سترتاح قليلا قبل الخروج للدورية؟

اعتمد بذراعيه على المائدة ووضع رأسه بين كفيه وهو يقول :

لا . لن أخرج الليلة . أجلت الدورية للغد. أشعر بتعب.

ابتسمت لنفسى. أعرف يا محمود. هذا التعب! أعرفه تماما!.



١٦ - محمود

سحب بيضاء خفيفة لاتبشر بأى مطر لكنها تحجب الشمس والداء.
أراها من نافذة مكتبى تتجمع ثم تتفرق فى نواثر متباعدة . سيكون يوماً
صعباً على فيونا وكاثرين. ليست محظوظة فيونا، ظلت مشكلتنا هنا هى الحر
القاتل لكنها تأتى فى وقت نبحث فيه عن مجرد الداء فى الليل. أتمنى أن تنفع
معها أنوية الشيخ يحيى. رأيت بالأمس القلق فى عيني كاثرين وهى تتلصص
بنظرها إلى أختها. كانت فيونا بالفعل شاحبة شحوب الموت. لا إياك أن تذكر
الموت! ألم تتفعل ويتضرع وجهها وهى ترد على وصفى حين وصف الثوار بأنهم
خونة! لا ستسترد صحتها بالتاكيد مع هذه الأنوية ، وسيرجع ذلك البريق فى
عينها وهى تحكى حكاياتها الأيرلندية فى الأمسيات وستبقى تلك النظرة الصافية
التي تخترق الروح.
كفى!

نهضت وذهبت إلى النافذة أطل على ساحة القسم. ألم تشبع بعد يا حاضرة
اليوزياشى من تدريبات المشى والجري والقفز مع الجنود منذ طلعة الشمس؟
أصبح هؤلاء البؤساء صالحين تماماً لخوض المعارك الحربية مع أى جيش لكن
مانع ذلك هنا؟ عند الخطر لاشئ يصلح غير قنيفة مدفع - شرط أن تنطلق !
ربما أختبر شجاعتك بإرسالك معهم فى دورية فى الصحراء لتلاقوا البدو. إن ينفع
ساعتها أن تتملقهم كما تتملق الأجواد. إما أن تطاردهم أو أن يصطادوك!
لم يهتز لك جفن عندما قالت فيونا إن الهزيمة لاتنزع البطولة عن الثوار سكت
تأدباً لأنك ضيفى لكنى رأيت الغل فى عينيك. ومن هم بالضبط أجدادك المصريون

الذين تدرس آثارهم يا حضرة اليازجى الشركسى الأشقر؟

قابلت أثناء الثورة قلة من شراكسة طيبين يحبون مصر كوطن لهم لكن معظم الشراكسة كانوا يعتبرون أنفسهم السادة وتآمروا أكثر من مرة لقتل عرابى (الفلاح) وفرحوا لهزيمته مثلما تفرح أنت. إذن فيم تهكم آثار أجداد هؤلاء الفلاحين الذين تريد أن تسترد مجدهم؟

ربما تقصد بالذات الفراعة ! ربما تراهم أسلافك الأسياء الذين حكموا عبيداً من المصريين. ظلتم أنتم أيضاً سادة فى حضن السادة الأتراك وعندما ثار عليكم العبيد استعنتم عليهم بسادة آخرين من الإنجليز فهزمتهم وبقيتم بعدها سادة أيضاً. وأنا، ماذا اعتبرت الثوار؟ قلت فى التحقيق إنهم بغاة، فما الفرق بينى وبينك؟

لكم أكرهنى!

عدت أجلس إلى مكتبى لكنى سمعت فجأة لغطاً فى فناء القسم واختفى صوت وصفى الزاق وهو يصدر أوامر التدريب. نهضت من جديد ونظرت من النافذة فرأيت الجنود واقفين فى وضع الاستراحة والأومباشى السلماوى يكلم وصفى الذى انهكم فى قراءة شيء ما ثم استدار وأعطى أمراً لاثنتين من الجنود فتوجها جرياً نحو باب القسم بينما أسرع هو فى اتجاه السلم.

دخل مكتبى مندفعاً ووراءه الشاويش إبراهيم فالتفت إليه وقال بلهجة الأمرة : أخرج الآن وأغلق الباب وراءك . أريد أن أبقى مع سعادة المأمور بمفردنا فلا تدخل أحداً.

نقذ إبراهيم الأمر وفى وجهه دهشة وتذمر، وحاولت أن أبدي هادئاً وأنا أسأل:

- ماذا حدث يا يوزباشى؟

لم ينس أن يؤدى التحية العسكرية وهو يسلمنى ورقة مطوية قائلاً:

الحمد لله أن سعادتك لم تخرج فى دورية بالأمس . رمى صبقى هذه الورقة

مربوطة فى حجر فى فناء القسم ثم جرى، رآه الأومباشى وهبة السلماوى وحاول أن يجرى وراءه لكن الولد كان أسرع، أرسلت جنديين لمحاولة اللحاق به والقبض عليه.

فتحت الورقة التى كانت تضم سطرين مكتوبين بحروف كبيرة مائلة:
«المأمور لا يخرج وحده فى لوريات ليلية هذه الأيام، هناك ناس يتريصون لقتله»..

تأملت الورقة، ماأسهل أن نعرف كاتبها، يمكن أن نعدمه على أصابع اليد من يعرفون الكتابة هنا، ولكن لماذا أرسل هذا الإنذار؟ من الذى لايسعده فى هذه الواحة أن يتخلص منى وبسرعة؟
طويت الورقة من جديد ووضعتها على المكتب وتطلعت صامتاً إلى وصفى الذى سألنى وهو يقف متخشباً كعادته:

ما معنى هذا التهديد ياسعادة المأمور؟ أرجو أن يعثر الجنود على الولد الذى رمى الورقة لنستجوبه. هل تشك سعادتك فى أحد حتى نقبض عليه حالاً؟
رددت مبتسماً: هل يمكن أن نقبض على كل سكان الواحة؟
قال متحيراً: بالطبع لا . لكن يمكن أن نطلب من الشيخ صابر أن...
قاطعته : وهل حقاً لاتعرف ياوصفى معنى هذا التهديد؟ ألم تسمع حتى الآن من الشيخ صابر أو غيره من الأجواد ماحدث هنا قبل وصولك؟

بدا الارتباك واضحاً فى وجهه وهو يقول : ياسعادة المأمور أنا أريد...
- تريد المساعدة . شكراً، ولكن لم يكن هناك داع أيضاً لإرسال الجندين ، لن يجدوا الصبى ولن يتعرفوا عليه مادام لم يرياه. تستطيع الانصراف الآن ياويزباشى واستئناف تدريب الجنود. سيفيد هذا التدريب لو فكر الأهالى فى اقتحام القسم من جديد.

خرج وصفى فسمعت طرقات الشاويش إبراهيم المعهودة على الباب.

قال وهو يدخل وفي وجهه انزعاج شديد : سامحنى ياسعادة المأمور ولكن ماذا جرى؟

تطلعت إلى وجهه ملياً وكان قلقه يزداد فى كل لحظة حتى بدأ جسده يرتعش. زادت التجاعيد فى وجهه وبدت عليه شيخوخة سنه الحقيقى منذ نجا من الموت، لكنه قطع صمتى قائلاً بصبر نافذ:

قل لى الله يرضى على سعادتك ما الذى جرى. أنا أعتبرك مع حفظ المقام مثل ولدى، الله يشهد.

- أعرف هذا ياشاويش إبراهيم دون أن تقوله ، وأنت أيضاً مكانتك كبيرة فى نفسى. الحكاية..

ثم ألم أبال أن أنقل له كل ماجرى فتغضن وجهه وقال بلهجة حزينة:
هل تذكر ماقلت لسعادتك فى ذلك اليوم؟ هم لا ينسون أبداً. فانتبه لنفسك...
توقف فجأة ثم أكمل باندفاع : وانتبه لنفسك أيضاً من هذا اليزياشى!
- لماذا تقول ذلك؟ ما الذى تعرفه عنه؟

- لا أعرف شيئاً ولكن كل الجنود يشكون منه. هو ليس إنساناً طيباً مثل سعادتك. وأنا أخاف من عينيه الشبيهتين بعينى قط.

قلت بهدوء لأطمئنه: لاتخف من شيء ياشاويش إبراهيم. تستطيع الآن الانصراف.. أدى التحية العسكرية التى كثيراً ماينساها غير أنه توقف مرة أخرى قبل أن يخرج وقال ملوحاً بإصبعه:

الكك تستطيع أن تطمئن للأومباشى وهبة السلماوى .. هذا رجل طيب وأنا أعرفه منذ زمن.

- شكراً، انصرف الآن ياإبراهيم.

بعد أن خرج حاولت أن أشغل نفسى بكتابة ربود على آخر مكاتبات النظارة لأرسلها مع القافلة المقبلة. لكن لا فائدة. لم أستطع التركيز على أى شيء.

لا تعيننى تلك الرسالة والتهديد قائم منذ وصلت هنا ومن قبل أن أتى. أكاد أستبطنه! وقوعه ولا انتظاره كما نقول. لو أرادوا تنفيذه فى أى وقت قلن يوقفهم شيء. إذن فهم أيضاً يحسبون حساباتهم بعد أن عشنا فترتين من الهدوء. المرة الأولى بعد بطولتى المزعومة فى إنقاذ ابنهم، وهذه المرة التى ظللنا نعيشها بعد طلقة المدفع. اختفت الكوارث التى نسبوها إلى مليكة ولم تختفِ تهديدات الكوارث التى تسببها كاثرين. ها هى تريد الخروج مرة أخرى إلى خميسة وأن تجر معها فيونا أيضاً إلى مغامرة جديدة! لن أسمح أبداً. مفاجأتها لا تنقطع فلماذا ورطت نفسها معها من الأصل؟ وهل أنا الذى ورطتها أم هى التى ورطتني؟ لا يهم. ذكرتني فى ليالينا الأولى بنعمة فرضيت بما لدى . لن أجد نعمة مرة أخرى ولم يعد عمري عشرين سنة. أقول لنفسى خسرت نعمة فلأحافظ على كاثرين لكن منذ جئنا إلى هذه الواحة انكسر شيء لا أعرف ما هو . انتهى هنا نهار علاقتنا إلى غروب فى هذه فى المحطة الأخيرة إلى الأفق الغربى كما وصفت كاثرين هذا المكان. تفتت زواجنا مثل الزمال ثم بدنته كله عاصفة مليكة.

ولماذا جاءت فيونا فى هذا الوقت؟

لا . فلأفكر فى شيء آخر. إلى العمل ! لكن ذهنى ليس حاضراً لحصر الأرقام وكتابة التقارير إلى النظارة. لماذا لا أكتب رسالة للأميرالاي سعيد؟ هو أيضاً كامل غير مكسور. يرسل لى بين العين والحين رسائل إخوانية من السلام والتحية. أجهد ذهنى لأقرأ فيها بين السطور عن أخبار المحروسة أو حتى عن أخبار النظارة فلا أجد شيئاً. يمثل هذا الحرص حافظ على نفسه مع قلب العهد نون أن يفقد ذاته . لماذا لم أكن مثله؟ أخرجت رسالته الأخيرة وأعدت قراءتها:

«سعادتكم أسمى وعزيزي محمود أفندي عبد الظاهر.

بعد إيفاء مراسم الإخاء ووث الأشواق التى يعلمها البارئ سبحانه وتعالى، فلو أردت شرح ما فى الفؤاد فإن الشرح يطول من غير وصول. وإن شاء الله تكونون

بعونه وكرمه فى غاية الصحة التامة وأن تكونوا فى أعلى درجات السرور..»
أعلى درجات السرور! كيف يمكن أن أرد على هذا الرجل الطيب دون أن
أكتب؟

لا فائدة، قمت وبدأت كالعادة أتحرك فى المكتب الواسع. لا فائدة.
هى ترجع دائماً كلما فكرت فى شيء آخر. فما العمل؟ تقول كثيرون إن أباهما
اعتاد أن يسميها القديسة، فلماذا أتت هذه القديسة المريضة إلى هنا لتزيد روى
كريا على كريها؟ أنا لا تأسرنى قداساتها ولا طيبتها. علاقتى واهية بهذه الأمور
أفسدتنى الفترة التى ترددت فيها على محفل الماسونيين. لم أفقد إيمانى كله، لكننى
اعتدت بعدما ألا أفكر كثيراً فى مسائل الحلال والحرام. هجرت الماسونية بعد أن
قرأت هجوم الألفغانى عليها وتنصله منها. وكرهتها أيضاً عندما رأيت الماسونيين
الأوروبيين يؤيدون الإنجليز فى مصر. لكن بقى عندى إيمان بالعقل والمنطق قبل
كل شيء وبقى قليل من الإيمان القديم. أعيش توبة سنوية حقيقية فى كل شهر
رمضان. لا أقرب الخمر ولا النساء، وأصلى الفروض والنوافل وأقرأ القرآن لكن مع
انتهاء شهر الصيام أرجع كما كنت. وبين الحين والآخر عندما تضطرب نفسى
أجد راحة فى الصلاة فأكثر منها. لاتعرف كثيرون شيئاً عن هذا كله. تقبلنى على
حالى. ربما الأصح أنها لاتبالى. لكن ماذا عنها هى؟ يخيّل إلى أن كل ماتعرفه عن
بينها هو الصليب الفضى الذى تعلقه على صدرها أحياناً وتقول ورثته عن جدتى.
وفيوننا؟ ليس فى حكاياتها المسائية دروس أو عظات ولم أسمعها تتحتم
بالصلوات. هى تحكى فقط حكايات جميلة، هى بالفعل..

كفى!

طرق على الباب. شكراً للطارق أياً كان! صحت بأعلى صوتى كأتى أطلب
نجدة : أدخل!

فتح الشاويش إبراهيم الباب وقال إن الأومباشى السلمانى يستأنن لمقابلتى. سمحت له بالدخول ففتح الشاويش الباب وناداه وعندما دخل كان جسده الضخم يسد الباب فتحتى قليلاً كي يخرج إبراهيم. لا أعرف سبباً لجيئه أما أنا فكنت أريد أن أسمع منه بالتفصيل ماجرى عندما ذهب مع كاثرين وفيونا لمقابلة الشيخ يحيى، لكنى تذكرت ما قاله عنه إبراهيم فسألته إن كان قد عرف الشاويش فى الواحة عندما جاءها مع الجيش؟ رد بأنه عرف إبراهيم ولكن بعد ذلك بكثير عندما كانا يحاريان معاً فى جيش عرابى فى كفر الدوار.

تذكرت بدو الإسكندرية فسألته بشئ من الدهشة : أنت كنت تصارب معه فى جيش عرابى؟

- نعم ياسعادة الأمور . حاربنا معاً ، وهو جندى شجاع . عرض حياته للخطر مرة لكى ينقذنى من الموت فى إحدى المعارك . كنت خارج الخندق عندما بدأ ضرب النار فقفز هو منه وجنبتى نحوه . سكت لحظة ثم قلت : الظاهر أن إنقاذ حياة الناس هواية عند الشاويش إبراهيم..

لم يفهم شيئاً فظل صامتاً وأكملت:

- لكنهم سرحوك من الجيش بعد الحرب مثلما سرحوا إبراهيم وكل الجنود . أليس كذلك؟

- بلى . لكنهم احتاجوا إلى بعد ذلك فى الشرطة فى مرسى مطروح . لا يوجد هناك كثير من الجنود المدربين .

- ولماذا جئت الآن يا أومباشى؟

قال إنه كان سيطلب الإذن بمقابلتى من قبل ولكن عطلته حكاية الصبى الذى رمى الورقة . بحثوا عنه ولم يعثروا له على أثر . لكنه يريد أن يبلغنى الآن أن الشيخ يحيى بعث له برسالة مع أحد أحفاده يطلب فيها أن يرانى فى أسرع وقت .

قلت بعد لحظة صمت:

هذا غريب، ولكنه يمكن أن يأتى لمقابلتى حين يشاء.

- وكيف ذلك ياسعادة المأمور؟ هو أخذ عهداً ألا يخرج من حديقته حتى يموت.

- يعنى المطلوب أن أذهب أنا إليه؟

- الرأى لسعابتك لكن إن شئت أن تذهب فاسمح لى أن أكون معك.

- لا بد ، فأتنا لا أعرف الطريق.



فى طريقنا إلى حديقة الشيخ يحيى أردت أن أمر على البيت لأبلغ كاثرين ولأعرف إن كانت فيونا قد بدأت تجرب العلاج . لكن عندما ترجلت عن الحصان أوقفنى أحد جنود الحراسة الذين وضعتهم أمام البيت قائلاً إن هناك امرأة من الواحة فى الداخل.

هتفت : امرأة أخرى من الواحة فى بيتى؟ أى مصيبة أخرى ستحدث؟ تحركت أصعد السلم وثباً فأوقفنى السلماوى بإشارة من يده عند أول درجة وقال بلهجة ضارعة: انتظر لحظة من فضلك ياسعادة المأمور لنفهم من الحراس ما حدث . لا داع كما قلت سعادتكم لمصائب أخرى.

كان الحارس يتلهف ليحكى مآلديه: شاهد امرأة تتقدم من البيت وهى تمشى ببطء مستندة على كتف صبي، بدا من خطواتها أنها عجوز جداً، وتأكد من ذلك عندما اقتربت ورأى جزءاً مكشوفاً من وجهها . أرادت أن تصعد السلم لكنه منعها فخطبته بكلمات فيها ألفاظ عربية وألفاظ من لغة البلد فهمها بصعوبة: هى تعرف الست وتريد أن تقابلها .

سأله السلماوى: وهل قالت إن اسمها زبيدة؟

رد الحارس: نعم يا حضرة الأومباشى.

نظرت إلى السلماوى مستفهما فقال : أعرفها ياسعادة المأمور هذه العجوز التى تتكلم قليلاً من العربية . كانت معنا فى القافلة وأحببتها الست فلونا . أرادت أن تشتري منها عباءة التارفتيت فأهدتها لها .

أكمل الحارس : لم أسمع لها مع ذلك بالصعود ياسعادة المأمور . لكنى أرسلت الصبى فطرق الباب وأبلغ الرسالة . وقفت الهانم الصغيرة بالباب وأشارت إلى زبيدة أن تصعد وعند الباب أخذتها فى حضنها ثم دخلتا معا..

أنهى جندى الحراسة حكايته متفعلاً مثلما بدأها وأشار بيده إلى صبي يجلس على الرمل ويراقبنا من بعيد قائلاً بلهجة دفاع عن النفس: هذا هو الولد الذى

جاءت معه . سيقول لسعادتك كيف حاولت منعها .

أردت أن أواصل صعود السلم فاقترب منى السلماوى وهمس فى أذنى :
وحتى لو كانت عجوزاً يأسعده المأمور وعمرها مائة سنة فلا يجب أن يدخل أى
رجل إلى البيت وهى فيه .

وأكمل مشيراً إلى العبادة المطروحة على السلم: مادامت قد تركت العبادة أمام
الباب فذلك يمنع دخول الرجال. هذه عادتهم ، والولد الجالس هناك سيبلغ لو
دخلت البيت. نحن الآن مطمئنون أن العجوز لن تؤذى أحداً فلنعنا إذن سعادتك
نكمل مشوارنا..

ترددت لحظة ثم عدت أمتطى الحصان وكذلك فعل السلماوى. هو الذى يعطى
التوجيهات الآن وأنا أتبعه. لا بأس. سأجرب نصيحة إبراهيم وأثق به إلى أن
أختبره. اتجهنا إلى طريق أغورمى. وبعد أن عبرنا رقعة الصحراء المكشوفة أمام
المدينة مررنا فى الطريق الذى يخترق الحدائق المسورة. كان الغناء يتوقف فى
الداخل عند سماع صوت حوافر الخيل ويظهر بمداخل الحدائق بعض الزجالة.
تعمدت ألا ألتفت نحوهم بعد نظرات الكراهية والدمدمات التى لا يصعب فهمها منذ
أول حديقة مررنا بها. أخذ بعضهم يوجهون التحية بحرارة إلى السلماوى وهم
يكررون اسمه لكى أفهم أن تحيتهم لاتشملنى.

كنت أسبق السلماوى على الطريق لكنه حاذانى ونحن نعبر قناة ماء صغيرة
فسألت: هل تعرف يا أومباشى لماذا يريد الشيخ أن يرانى؟

- لا أعرف أكثر مما قلته لسعادتك. ربما يريد أن يتحدث معك عن حالة

الميس..

ثم تهدج صوته الأجلش فجأة حتى ظننته على وشك البكاء .

أوقفت الحصان وسألته مستغنياً : ما الحكاية يا أومباشى؟

فأخبنى رأسه وقال وهو يتمالك نفسه : سامحنى يأسعده المأمور، ولكننى

أفكر. الشيخ يحيى لم ير الميس غير مرة واحدة وكان غاضباً من ومع ذلك أحبها وفكر أن يرسل لها العلاج. لو رأيت سعادتك كيف كانت الميس فى القافلة! كانت تكلم الجنود والنساء السيويات والبيديات وأطفالهن، والله لا أعرف بأى لغة. لا هى تتكلم لغتهم ولا هم يفهمون لغتها ومع ذلك.. كانوا يتبادلون الكلام والإشارات والضحك طول الرحلة. وعندما تأتيها نوبات السعال كانت بعض النساء تبكى حين يرينها تنزوى بعيداً..

غمزت الحصان فانطلق بسرعة وتبعنى السلماوى ويعد ويعد ويعد؟ كان الحصان يجرى وأنا أنظر أمامى فلم أنتبه إلى إهانات الزجالة ولا إلى مرورنا بعين الجوبة. لاحظت فقط أنى تجاوزتها عندما رأيت أعمدة معبد أم عبيدة . هنا بدأت كل المصائب!

كنت أقصد المعبد مباشرة وبسرعة لكن مرشدى نادانى من خلفى وهو يحاول اللحاق بى: إنتظر ياسعادة المأمور. إلى أين تذهب؟ الطريق من هنا. أشار لى بيده إلى طريق ضيق ينحرف يساراً فرجعت وتبعته.



أخيراً عند باب حديقة الشيخ؛ حديقة صغيرة بالمقارنة بالحدائق التي مررنا بها. قدرت من السور المحيط بها أنها لا تتجاوز نصف فدان. صفق السلماوى ونادى ببعض العبارات فظهر أحد الصبية. ظل يركز نظره على بيتنا كان السلماوى يتحدث إليه. لم يقل الصبى شيئاً لكنه عاد بعد قليل وأشار لنا أن نتبعه. فى مدخل الحديقة كثير من النخل كالعادة وبعض أشجار الفاكهة التي لم تثمر بعد ومن ورائها دغل من أشجار الزيتون ونفذت إلى أنفى من الزرع روائح عطرية لم أميز معظمها. وبعد أن تجاوزنا باب الحديقة بقليل أشار لنا الصبى إلى حُصر على الأرض فوقها وسائد مفروشة فى ظل نخلات متقاربة، جلست وظل السلماوى واقفاً وعندما أشرت إليه أن يجلس ظل مقرصاً بعيداً عنى كأنه يوشك أن يقوم فى أى لحظة. وبالفعل فقد هب واقفاً فوقفت أنا أيضاً لنستقبل الشيخ.

كان يمشى نحونا ببطء متوكئاً على عصاه فتقدم منه السلماوى مصافحاً وهو يقول «السلام عليكم يامولانا» وحاول أن يقبل يده لكن الشيخ سحبها بسرعة. تقدمت أنا أيضاً وصافحته فظل ممسكاً بيدي لحظة وهو يتأملنى بنظرة فاحصة من خلف نظارته، ثم قال اجلس.

قابلته من قبل مع وفد الأجواد بعد وصولى ثم مرات كثيرة فى صلاة الجمعة ولفتت نظارته انتباهى، لكنى لا أذكر أنى تحدثت معه، وخيل إلى أنه شاخ عن آخر مرة رأيته فيها فى المسجد. هو فوق الثمانين بالتأكيد على كل حال.

أمسك السلماوى بذراعه وساعده على الجلوس على إحدى الوسائد فأسند الشيخ ظهره إلى نخلة وقال مبتسماً: شكراً ياسلماوى. أنت فهمت أنى أحتاج إلى العون.

قال الأومباشى بل نحن الذين نحتاج عونك يامولانا.

فخطابه الشيخ بشيء من العصبية: ما حكاية «مولانا» هذه ياسلماوى؟ أنا لست ولياً من الأولياء. انس هذا الكلام.

حول الشيخ نظره نحوى حين جلست قبالة وجه حديثه إلى: وصلتك رسالتى متأخرة أيها المأمور. أحمد الله أنك لم تخرج فى النورية أمس.

قال السماوى الذى جلس مرة أخرى مقرفا بينى وبين الشيخ:
والله قلبى كان يحدثنى يامولانا أنك أنت الذى أرسلت الرسالة ولكن كيف عرفت بالتدبير الذى أعونه يامولانا؟

دمدم الشيخ عابساً «مولانا مولانا» نظرت إلى السماوى وأشرت له بيدي محذراً فقام من تلقاء نفسه وجلس بعيداً بحيث لا يسمع حديثنا.

التقت الشيخ نحوى بعد ابتعاد السماوى وقال: لا يخفى شئ فى هذا البلد. هل ترى الصبية الذين يتحركون فى كل مكان وينتقلون بين البيوت والحدائق؟ لا أحد يهتم بهم، لكنهم يعرفون كل كبيرة وصغيرة وينقلون أهم الأخبار.. ثم سكت لحظة وخاطبني ببيت من الشعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ..

لا يذهب العرف بين الله والناس،

أنت أنقذت صبيا اسمه محمود على اسمك فأراد هو أيضاً أن ينقذك، هو الذى نقل لى بالأمس خبر عزمك على الخروج، ومنه أيضاً عرفت أنهم يتربصون بك.

- من هم؟

هز الشيخ رأسه يمناً ويسرة وهو يقول: هذا ما لا أبوح به أيها المأمور. أنا لا أخون أهلى ولا أشئ بهم . يكفى أن تأخذ حذرك.

ثم شرده لحظة وقال : وعاهدنى أيضاً ألا تبحث عن الولد محمود أو أن تحاول استجوابه.

- اطمئن ياشيخ. أعدك ألا أبحت عنه أو أن استجوبه. أنا أشكرك أنت وهو لأنكما فكرتما فى انقاذى...

– لا تشكرنى ولكن كن حريصاً. سيجنبك هذا ويجنبنا المزيد من الدم..

قلت متدفعاً بون قصد: أنا لا أخاف الموت!

فرد يهدوء: بل أنت تتماها.

– هل تعرف الغيب أيضاً؟

– الشياطين وحدها هى التى تتلصص على الغيب أيها المأمور والحمد لله أنى
لست منهم. ولكن لماذا قلت فى ساحة القسم لكى يسمعك الجميع إنك خارج فى
نورية فى الليل؟ اعتدت من قبل أن تخرج وتتوغل فى الصحراء، أحياناً وحدك
وأحياناً مع جنودك، وأبعدت نورياتكم اللصوص عن البلد. لكذلك لم تكن تعلن ذلك
لأحد. فلماذا فعلت هذا بالأمس وأنت تعرف أنك تعيش فى خطر؟ أنا لا أقرأ
الغيب الذى لا يعلمه سوى الله سبحانه، أيها المأمور. لكنى أقرأ ما تفعله وما تقوله.
قال ذلك وانهمك فى تثبيت الدويارة التى تربط نظارته بإذنه ثم لزم الصمت.

قلت بعد فترة ليكن. ولكن أنت أيضاً من يومين فقط رفضت أن تقابل زوجتى
وأختها وقلت عنى أشياء سمعتها. أعرف أيضاً أنك مثل أهل الواحة جميعاً
لاتحبنى، فما الذى جعلك فجأة حريصاً على حياتى بعد طلبة المدفع وبعدها جرى
المليكة؟

احتقن وجهه بغضب مفاجئ وهو يقول: لماذا لاتسكت؟ لماذا تفتح هذه
السيرة؟

مليكة لم تكن بنت أختى فقط بل كانت أعز عندى من أغلى بناتى!
صحت كالملوغ: بنت أختك؟ أنا لم أكن أعرف حتى أنها قريبتك! لم يخبرنا
أحد.

– وما أنت قد عرفت، فما الفائدة؟ ماذا كنت تريدنى أن أفعل حين رأيت
زوجتك وذكرتتى بكل ماجرى بسببها وسببك للمليكة؟ أنتما قتلتماها.
قلت مدافعاً عن نفسى: هى التى خرجت وهى غولة وأثارت الذعر فى البلد.

- لم تكن أول مرة تخرج فيها . اعتادت من صغرها أن تتخفى فى ثياب الصبيان وتخرج فلا يتعرف عليها أحد، لكن أنتما نزعتما عنها ثوب التخفى ورميتماها فى الطريق فى فضيحة فجرى فى البلد ماجرى، ولم تكف أيها المأمور بذلك بل ذهبت تطلب الثأر منها . الثأر لماذا؟ هل قتلت زوجتك؟

قلت فى حزن حقيقى : عندما دخلت البيت رأيت زوجتى تدافع عن نفسها ورأيت ثوبها ممزقاً اعتقدت بالفعل أنها تريد قتلها .

- غيما لماذا تريد قتلها؟ آخر ما نطقت به كما سمعت أنها كانت تبحث عن صحبة من غير أهل البلد الذين كرهوها وكرهتهم . قصدت بيتك بحثا عن الود، فقابلتماها بالحد ثم قتلتماها .

- ألم تكن هى التى انتحرت ياشيخ؟

هبّ بجذعه قليلاً وقال بصوت يرتجف بالغضب . مليكة لانتحرت! لماذا تقتل نفسها وهى التى تحب الدنيا كل هذا الحب؟ كانت .. كانت تجد الجمال فى كل شىء فى الزرع وفى أطلال المعابد ويفضلها أحببت أنا هذه الآثار التى يخاف منها الناس .. مليكة ..

سألت بإلحاح لأرده إلى الموضوع:

- إذن فقد قتلوها؟

- ومن سيقول؟ من سيعترف أنه أغمد السكين فى قلبها؟ .. كلهم، كلهم

شاركتم . حتى الأجداد الذين اخترعوا حكاية الغولة ..

سكت الشيخ فجأة ورجع يسترخى فى جلسته ويذا أنه يبذل جهدا ليسيطر على غضبه . أحنى رأسه وقد غمرت وجهه سحابة من الحزن ثم قال بعد فترة طويلة بصوت خافت:

أحيانا أجد وسط الزرع زهرة أو نبتة جميلة لا أكون قد غرست بذرتها أو رأيت مثله . أرهاها وأبعد عنها الأعشاب الضارة والنباتات الأخرى، أروها

بحرص أكثر من غيرها لكنها تنوى بعد حين، لا أنجح فى إحيائها ولا فى أن أستتبث مثلها من جديد.

تمنيت لو تعيش مليكة لكنها ضاعت..

نطقت بما كان يدور فى رأسى طول الوقت: لكن يا شيخ كان هذا سبباً أقوى لأن تتركهم يقتلونى بالأمس!

رفع رأسه وقال بصوت مجهود : لولا ابنى تعلمت من زمن طويل أن أكره الدماء والقتل . غير ابنى بشر أيها المأمور. لم أتعلم أبداً من صغرى أن أسيطر على غضبى لكنى أحاول أن أقهره، تعلمت إن غضبت أن أندم وأن أتوب، وها أنا أطلب منك ومن زوجتك أن تصفحا عنى. مليكة أحببكما ومن أجلها..

سكت وفى صوته غصة، فقلت:

نحن يا شيخ نصفح أو أنت؟ لو تعرف كم أندم أنا أيضاً بسبب ماحدث لابنتك!

- لكن الندم وحده لا يكتفى. الأهم التوبة.

- وكيف تكون التوبة الآن وماحدث قد حدث؟ هى ماتت وانتهى الأمر.

ظل مثبتاً نظره على وجهى لفترة وقال: إن لم يسامح الإنسان نفسه فكيف يطلب من الناس أن تسامحه؟

ثم لوح بيده وقال: غير ابنى مال هذا دعوتك أيها المأمور وإنما لكى أحدثك من أخت زوجتك.

ارتجف قلبى ورجوت ألا يكون قد بدا فى وجهى مايفضحنى أمام هذا الشيخ الذى يقرأ بعينه الكلية ما يدور فى نفسى.

قال : هى امرأة طيبة وشجاعة، لكنى رأيت وجهها عن قرب منذ يومين وسمعت سعالها.

ثم شرد من جديد كأنه يفكر فى شىء آخر وقال بشيء من التعجب: عرفت فى حياتى أمثالها فى كل دين وملة وجنس، قلة يولدون وقد وهبهم الله السحاحة

وصفاء النفس، منحة من الوهاب لا فضل لهم فيها. وهم قلة لأنه سبحانه لم يشأ أن نكون ملائكة. أدرك أننا عصاة وخطاة وأن علينا أن نتوب ونجاهد في كل يوم حتى نصل إلى صفاء النفس بعملنا وسعيها..

عاد إلى الصمت فقلت استحثه: تكلمت يا شيخ عن سعالها، ماذا أردت أن تقول؟

رد دون أن ينتظر في وجهي: تمنيت ألا أقول شيئاً أبداً، لكني أخشى يا ولدي وأدعو الله أن أكون مخطئاً أن يكون مرضها هو ذلك الداء الذي لا يعرف أحد له علاجاً..

هتفت في جزع: لا! لم تسمع هذا من الأطباء في بلدنا! قالوا علاجها في الجوف الجاف.

— إن شاء الله . قلت إنني أدعو أن أكون مخطئاً ولكني أردت أن أنبهك لكي تفكر أنت وأختها جيداً فيما يجب أن تفعل. ربما تكون حالتها بالفعل هي رطوبة شديدة تكومت في الصدر وتأخر علاجها.

غمغمت مرتبكاً: وتلك الأدوية التي أرسلتها لها بالأمس ألا تجفف الماء في الصدر وتشفي من هذه الرطوبة؟

— الله هو الشافي أيها الأمور.

— بالطبع ولكن هل تشفي هذه الأدوية؟

ابتسم ابتسامة واهنة تضاعفت لها تجاعيد وجهه وهو يخاطبني:

هل سمعت جيداً أيها الأمور ما قلته لك؟

لم أفهم قصده على الفور فأكمل كلامه وهو يتطلع في وجهي: على العموم ما أرسلته لها هو ما كان جاهزاً عندي. قد يهديني الله لأشياء أخرى. ولو كانت حالتها هي الرطوبة في الصدر فأفضل شيء هو أن تدفن نفسها في الرمل الساخن . لكننا الآن في الشتاء.

توقف لحظة ثم أكمل : كنت أعرف هذا العلاج لكنى لا أبرح مكانى، ولا يستطيع أى رجل أن يعالج النساء بهذه الطريقة. أرسلت لها اليوم امرأة تعرف هذا العلاج.

- زبيدة؟

فهز رأسه وقال بشيء من الأسف : ولكن كما قلت فإن هذا ينفع فقط عندما يكون الرمل ساخناً كالنار ونحن الآن فى برد الشتاء..

تشبثت بهذا الأمل: - تأتى أيام دافئة بل وحتى أيام حارة فى هذا الشتاء ..
- نعم ، ولكن يجب أن يستمر الحر أياماً وأسابيع لتدخل السخونة بطن الرمال.

- ندعو الله أن يأتى الحر.

قال مبتسماً من جديد : ليكن دعاؤنا أبعد من هذا القادر على كل شيء.
أحسيت رأسى أفكر : إذن ما بين يوم وإيلة أرسل هذا الشيخ أنوية جهزها لفيونا ويحث برسالة يحذرنى من القتلة، وأرسل هذه المرأة زبيدة وصفح عنى وعن كاثرين وطلب منا أن نصفح نحن عنه! ما هذا؟ هل هو قديس أيضاً ... أقصد هل هو ولى من أولياء الله وإن أنكر؟ فى هذه الحالة إذن لابد أن ينجح الولى فى معالجة القديسة - لكنه تحدث عن الداء الذى لا يعرف أحد له علاجاً. فى جلسة واحدة أحيانى بالأمل ثم أماتنى باليأس!

انتبعت إلى أن الشيخ يخاطبني: أدع أن يكتب الله لها الشفاء وأنا سأسعدوك كثيراً أن تصالح نفسك.

- وما معنى أن أصالح نفسى؟

كانه لم يسمعنى فأكمل : وأن تصالح الناس أيضاً أيها المأمور. أعرف أن هذا لا يحدث بين يوم وإيلة. أعرف أنه قد يستغرق عمراً بأكمله..
ثم قال كأنه تذكر شيئاً:

- يحسن ألا تقول ماسمعته منى الآن لزوجتك وأختها .. إلا إن قررت ترحيلها
من هنا للبحث عن علاج فى مكان آخر.

- أين؟ هى جريت الأطباء فى بلدها فأرسلوها إلى هنا.

- إذن فاصمت . لا تجعلها تفقد الأمل..

قال ذلك وهو يرتكز ببديه على الأرض متأهباً للنهوض فقامت بسرعة أمسك
بيده لاساعده ورأنا السلماوى فهرع بسرعة نحونا وأمسك الشيخ من ساعديه كأنه
يحتضنه إلى أن أوقفه على قدميه.

قال : شكراً ياسلماوى، حاول أن تمر على غداً فريماً أعطيك أدوية جديدة
ليبت المأمور...

مد يده وصافحنى بقبضة قوية رغم سنه وصافح السلماوى ثم استدار مستنداً
إلى عصاه واختفى بين أشجار حديقته.

سألت السلماوى ونحن فى طريق الخروج: لماذا كنت تقول للشيخ يامولانا،
ولماذا أغضبه هذا؟

قال بحماس: هو أطيب من عرفت فى هذه الواحة ياسعادة المأمور. هل رأيت
سعادتك هو لم ير الميس إلا للحظات لكنه يهتم بعلاجها وإرسال الأدوية الجديدة
إليها رغم أنه كان غاضباً من..

سكت لكننى فهمت مايريد أن يقول:

وفى طريق العودة قال السلماوى بصوته الخشن المتهدج الذى يوحى دائماً
بأنه على وشك البكاء: والميس أيضاً ياسعادة المأمور. أنت لم تر كيف كانت فى
القافلة، كل الناس...

قلت محتداً : حكيت هذا من قبل ياأومباشى . لاتتكلم عنها كما لو كانت
تموت!

كف عن هذا النواح!

وقلت لنفسى : ياويلى لو أنها كانت بالفعل تموت!



١٧- كاثرين

صباح آخر غائم.

سيكون هناك قليل من الدفء لفيونا، وكثير من الانقباض في قلبي يجب أن أقهره، غير أنني لا أستطيع القراءة الآن في هذا الضوء الضعيف.

إن كنت أريد أن أساعد فيونا فلأساعد نفسي. قلت من قبل إنني لن أسمع لهذه الواحة أن تهزمني. سيأتي وقت أخرج فيه وحدي ولو كان الثمن موتي، مثلما خرجت مليكة وهي تعرف أنها ستدفع الثمن. كلما حاولت إبعادها عن ذهني يحدث ما يعيدها إليّ، إن لم تطاردني في الأحلام يعيدها شيء آخر. كل ما يحدث في الواحة يذكرني بها، ومحمود لا يتركني أنسى. فاجأتني حين حدثني عن قرابتها للشيخ يحيى وعن حب الشيخ لها. تكلم كأنه يهاجمني وهو ينقل لي ما قاله الشيخ عن أن مليكة جاءت إلى بيتنا تتشد صداقتنا أو صداقتي أنا لا غير.

يريدني أن أشعر بالخجل من نفسي لأنني ضربتها وطربتها. ذكرته مرة أخرى أنه هو الذي فضحها ورمأها في الطريق فما ذنبي أنا؟ لا يقتنع. بل يريد أيضا أن أقدم هذا الشيخ وأعترف بفضل له ليل نهار لأنه رغم ما فعلناه ببنت أخته يرسل الأنوية والأعشاب لفيونا ليساعدها.

ماذا أقول له؟ صحيح أنه يرسل كل فترة أعشابا لتعطأها فيونا. مرة منقوعة في الماء ومرة في ماء مغلي في الصباح أو المساء ويرسل زيوتاً متنوعة الألوان لتدهن بها رقبته أو صدرها مع إرشادات دقيقة عن المواعيد وطريقة الاستعمال، لكن ما نتيجة هذا كله؟ تقول فيونا في كل مرة إن صحتها تحسنت بفضل آخر علاج تجربته وأن المسألة تحتاج إلى وقت لا أكثر.

أما أنا فلا أرى أى تحسن من هذه الأدوية البدائية. شحوبها ونحولها يزدادان يوماً بعد يوم. الشيء الوحيد الذى تغير أن نوبات السعال أصبحت تأتيها على فترات أبعد لكن أشد بكثير مما كانت من قبل. كان كل ما تفعله هذه الأدوية هو أن تكتم السعال فى الصدر فتتركز الأزمات المتفرقة فى أزمة واحدة عنيفة يزوق لها وجهها وتجحظ عيناها فيجتاحني الرب ، هى لا تشكو لكنى أرى بنفسى. فما الذى فعله هذا الشيخ لكى أشكره؟

على الأقل هو يحاول يا كاترين كما تحاول هذه المرأة زبيدة. لكن كرمهما لا يشملى. جاءت تلك المرأة بهدية من التمر واللوز لفيونا وفهمت بصعوبة الكلمات العربية القليلة التى تتخلل لغتها لكنها تقاضت بسهولة مع أختى التى لا تعرف العربية بالإشارات والأصوات . وأدهشتنى فيونا حين وجدتها تستخدم فى حوارها مع زبيدة كلمات وتعابير سيوية تعلمتها منها . أحاول أن أفعل مثلاً فالكلمات عملى، أقترّب منهما وأستمع إلى حديثهما لكن العجز الماكرة نادراً ما توجه لى الكلام. يجرحنى أكثر أنها تتفادى النظر نحوى، لكنى أنونّ بعض الكلمات التى أستنتجها من حديثها، وابتسمت وأنا أتذكر أول زيارة لها ونحن ننظر لها فى حيرة ونحاول أن نفهم. كانت تضم كفيها متجاورتين وتحركهما كما لو كانت تنزح بهما شيئاً وهى تقول بالعربية مشيرة إلى الأرض «ننزل! ننزل!» ولم نعرف إلا من محمود فيما بعد حكاية العلاج بالدفن فى الرمال الساخنة. غير أن الحر الذى أهلكنا فى الشهور الماضية يرفض الآن أن يعود.

تحب فيونا كثيراً هذه العجوز السمراء المتفطنة الوجه بطيأت التجاعيد والتى تكحل عينيها الضيقتين بغزارة. تبدو سعيدة بوجودها وتجد دائماً ما تتحدث عنه معها. أدهشتنى فى بداية تردد زبيدة على بيتنا حين أمسكت بيدها وراحت تنظر بإعجاب إلى الحنة التى تخضب بها كفيها ثم سألتها باللغة السيوية «نيش؟» (وأنا؟). عجبت لأن تهتم فيونا بهذه المسألة فى مثل حالتها المتدهورة لكن زبيدة

فهمت وقبلت على الفور. وفي اليوم التالي لم تخضب كفى فيونا فقط بل وشمت بالحنة خطوطاً حازوتية على ظاهر يديها كفروع صغيرة مورقة يتوسطها طائر صغير. وكانت فيونا فخورة وهي تبسط يديها لتعرض هذا الوشم على وعلى محمود بابتسامتها العريضة.

ما دام هذا يسعدنا!

وما دام يسعدنا معا أن تتردد زبيدة على بيتنا يوماً بعد يوم! إن لم يصحبها أحد أحفادها تأتى بمقردها منمنمة حمارها وتحمل هداياها دائماً إلى فيونا. لكنها فى نهاية كل زيارة تشير إلى السماء وإلى الشمس الواهنة وتضرب كفاً بكف. إذن فلنتنظر الحر.

وهل يستطيع محمود الانتظار؟

هو أيضاً يزداد نحولاً يوماً بعد يوم. كانت شهيته مفتوحة دائماً، يكاد يكون أكلوا. لكنه منذ أن وصلت فيونا لا يستطيع أن ينهى وجبته. أراه على المائدة يحنى رأسه لكى لا ينظر إلي وجهها لكنه يبتلع طعامه بصعوبة كأن شيئاً يسد حلقه ثم ينهى الوجبة بسرعة ويترك المائدة. امتنع كذلك تماماً عن الشرب، ولا مجرد كأس واحدة فى المساء كما اعتاد فى حالات اعتداله، هل يبحث عن القداسة أيضاً؟ أصبح هادئاً ووديعاً وأراحنى هذا من جنون تقلباته، وفى اليومين الأخيرين لاحظت أن يده ترتجف. أفهم وأود لو أقول له ليس بالهرب من وجهها تستطيع أن تهرب من حبها.

لا أنسى ليلة دخل البيت تعيساً ومتجهماً كما لم أره أبداً من قبل وكأنه على وشك البكاء. إنتحى بى بعيداً وسألنى وهو يبلع ريقه إن لم يكن من الأفضل أن نعيد فيونا إلى الإسكندرية أو القاهرة لتجد علاجاً أفضل.. فهمت على الفور أنها محاولة أخرى للهرب بإبعادها عن ناظره. قلت يهدوء إنى أوافقك تماماً لكن هل يظن أن حالة فيونا تسمح بالسفر فى قافلة واحتمال برد الليل فى الصحراء؟ هذا

حكم بالإعدام. أقلت منه السؤال بصوت متهدج: على من؟. تجاهلت زلة لسانه وقلت فلننتظر إلى أن يتحسن الجو. رأيت الفرح يصارع اليأس في وجهه وهو يقول بتسليم: فلننتظر. كدت أشفق عليه لحظتها كما أشفق عليه وهو يتقلب في الفراش مؤرقاً طول الليل ثم تطارده بعدما الكوايس التي يصحو منها في فزع. لكنه مع ذلك غريب عنى تماماً الآن. كأننا لم نكن زوجين في أى وقت.

من حسن الحظ أن فيونا لا تشعر بهذا كله. لا يمكن لبراءتها أن تتصور أن يقع زوج أختها في غرامها. خيالها لا يستطيع أن يستوعب هذه الفكرة. حتى لو قلت لها إن كل ما بينى وبين محمود قد انتهى. أنتظر فقط أن تشفى أو أن تتحسن حالتها وأتمنى أن أصل خلال ذلك إلى شيء فى بحثى. على أى حال سأرحل معها. هذا قرار نهائى. سأنتهى من حكايات محمود ومليكه وهذه الواحة ومن مصر وناسها. كل هذا سيصبح عما قريب وراء ظهري.

انتهزت فرصة شعاع من الشمس دخل الصالة وبدأت أقرأ ما كتبه المؤرخ (أريان) عن آخر أيام الاسكندر - هو مثلى معجب بالإسكندر. ليس من نقاده القساة بسبب ما فعله فى حروبه بل يرى الجانب العظيم فى شخصية الملك المقدونى. رحت أغير مكاني كل فترة لأقتنص ضوء النهار المتسرب من النافذة ثم سمعت صوت خطوات فيونا يقترب.



وقفت فى مدخل الصالة وقد ارتدت ثيابها الشتوية ووضعت على كتفها عباءة الصوف، بدا وجهها مرتاحا قليلا هذا الصباح عما كانت عليه بالأمس، أظن أنى أحسنت التصرف حين صممت على نقلها إلى غرفة فى الطابق السفلى معنا. أراحها هذا من مجهود طلوع السلم إلى الغرفة العلوية، جلست إلى جوارى وأشارت إلى الكتاب قائلة:

- هل أعطاك عن العمل؟

ابتسمت وأنا أقدمه لها قائلة: هو كتاب قرأته عدة مرات من قبل. أكاد أحفظه. أمسكت بالكتاب ونظرت إلى غلافه: كتاب آخر عن الإسكندر؟ قرأته أنا أيضا فى مكتبة أبى. أعرف أنك تهتمين بالإسكندر بسبب ما جرى له فى هذه الواحة. لكن لماذا كل هذه الكتب؟ ما الذى يستهويك فيه إلى هذا الحد؟

- مقبرته!

ضحكت فيونا بصوت عال: مقبرته؟ ظننت أن ما يهمك حياته لا جثته! ولو أنى قرأت عنه الكثير ولم تعجبني سيرته أبدا، سفك كثيرا من الدماء ودمر كثيرا من المدن، يكفى ما فعله فى ميناء (صور) فى جبل لبنان، أغضب جلالته كثيرا أن يقاوم أهلها غزوه لمدينتهم وأن يضطروه لحصارها طويلا قبل أن يقتحمها فقتل من أهلها الآلاف نباحا وصلبا...

- أعرف هذا وغيره يا فيونا، لكنى كنت أفكر قبل مجيئك فى أنه فعل أشياء عظيمة إلى جانب هذه المذابح، بنى مدنا جديدة فى كل مكان وحاول بعد أن غزا آسيا أن يوحد الشرق والغرب..

- بالطبع! يوحدهما عبيدا فى إمبراطوريته! هل سمعت عن أى إمبراطورية لا تعلن أهدافاً نبيلة؟ ألا تقول إنجلترا الآن إن رسالة إمبراطوريتها هى نشر الحضارة والتمدن فى العالم؟ تعالى أنظرى إلى هذه الحضارة المعوجة بالدم من

أيرلندا إلى مصر إلى الهند إلى ما لا أدري أين!
لم أشأ أن أدخل معها في جدل، يتعكر مزاجها دائماً كلما جاء في الحديث ما
يذكرها بالإنجليز ومذابحهم في أيرلندا لا سيما في (كونوت) مقاطعتنا التي
استباحوها مراوا.

قلت: على أي حال أنا لست مهتمة بامبراطوريته ولا بحروبه التي شغلت مئات
المؤرخين لكنني مشغولة بقبره كما قلت لك. كانت وصيته أن يدفن هنا في سيوة،
لكنهم دفنوه في الإسكندرية فأين قبره هناك؟

ردت في دهشة: ملايين من قبور العظماء والفقراء اندثرت واختفت مع مرور
السنين فما الغريب أن يكون من بينها قبر الإسكندر؟

- الغريب أننا وجئنا في الإسكندرية كثيراً من مقابر اليونانيين العاديين
وآثارهم لكننا لم نجد أي حجر أو أثر يشير مجرد إشارة إلى ضريح ملكهم نفسه،
الرجل الذي بنى المدينة والذي قال المؤرخون إن ضريحه أو معبده هو قلب
الإسكندرية وإن أباطرة وشعراء ومشاهير كثيرين زاروه هناك لمجرد الفضول أو
لالتماس بركته كإله.

قطبت فيونا حاجبها واستغرقت في التفكير ثم قالت نعم، تذكرت الآن أنني
سمعتك مرة تتحدثين مع أبي عن ذلك وأظن أنه افترض أن المقبرة غرقت في البحر
بعد زلزال ضرب المشاطىء، أليس كذلك؟ لكنه لم ينكر أن الإسكندر دفن في
الإسكندرية.

- ولا أنا أنكرت، لكنني أتساءل لماذا اختفى كل أثر له هناك؟
شرحت لفيونا فكرتي عن إمكان نقل جثمان الإسكندر سراً من المدينة التي
بناها إلى الواحة التي أرادها مقره الأخير.

استردت فيونا ابتسامتها وقالت: إن كنت تعتقدين أنهم أخفوا قبره هنا فدعيه
يا كاثرين يرقد في سلام، لا تحتاج إلى التنبش عنه وتذكره. لدينا الكثير من أمثاله

ورثته!

ابتسمت أيضا وأنا أقول لها: لاتخشى شيئا فلن أطلق راحته أينما كان. است
مجنونة وأنا لا أفتش عن ضريحه أو قبره. هذا بحث يحتاج رجالا كثيرين وأموالا
كثيرة لا أملكها. أنا فقط أبحث عن دليل - لا - بل عن مجرد إشارة. أفكر في
بحث أنشره مع دليل مقنع لكى يواصل غيرى العمل.

- ألعلى لم أفهم جيدا يا كاثرين - هل قلت إنك تبحثين عن دليل يثبت نظريتك؟
- نعم.

- على أى أساس إذن وصلت إليها؟

- بالحس.

- لكنهم علمونا فى المدرسة ألا نصل إلى نتيجة قبل أن يكون لدينا الدليل،
وأنت تبدئين بالعكس. تخيلت نتيجة وتبحثين على ما يدل عليها. ألا تجدين هذا
غريبا؟

- لا. كثير من الاكتشافات تمت بفضل هذا الجنون.

- وكثير من الجنون انتهى أيضاً إلى جنون!

كانت تضحك لكنها توقفت فجأة وقالت بنبرة جادة:

سامحيني يا كاثرين. أنا كنت أمزح بالطبع، لا تبالى بما أقول وواصل

عملك...

- بالطبع أفهم أنك تمزحين وإن أتخلى عن عملى. أنا لا أتخلى أبدا...

ثم جاءت نزوة فسألتها فجأة:

لكن قولى لى يا فيونا، لماذا تخليت أنت عن مايكل؟

ندمت بمجرد نطقى بالكلمات لكن الوقت كان قد فات.

بوغت هى فظلت تتطلع نحوى لفترة قيل أن تقول:

- ولماذا لا تتركين مايكل أيضا يرقد فى سلام؟ هو فى عالم لا يشغله فيه ما

يشغلنا.

- معذرة، لم أقصد.

سكنت من جديد تفكر ثم قالت: تقلقك هذه الحكاية كثيرا يا كاثرين. ناقشتني فيها قبل زواجك ورددت عليك فهل سيساعدك الآن في شيء أن أقول لك نعم أنا كنت أحب مايكل؟ ومفائدة مثل هذا الكلام الآن؟ ألم تكن أمامه واختارك ووافقت أنا بكل رضا؟ لماذا لا تقتنعين بذلك؟

لم أردُ فأكملت هي:

لكني سأعترف لك بأني دهشت عندما وافقت أنت على الزواج من مايكل. لماذا وافقت وأنت لم تكوني تحبينه؟

- لست أنسى ولكني دفعت الثمن.

- وكذلك دفعه هو.

- أحوال حياتي جديما، لم يكن يكف عن الشجار.

- حضرت إحدى هذه المشاجرات. كان ينتقد ترجمتك لمقال عن اليونانية على ما أظن. قال إن في الترجمة أخطاء فرددت أنت بأنه يفار منك.
- نعم، هو كان يفار مني.

- فلننس ذلك الماضي كله إذن. المهم الآن أنك تحبين محمود، أليس كذلك؟
خطاباتك الطويلة قبل الزواج وبعده أسعبتني كثيرا. فهمت منها أنك وجدت أخيرا رجلا تحبينه بحق ويحبك، هل أخطأت الفهم؟

- لا.

نظرت في عيني مباشرة وسألتني بهدوء:

- فلماذا إذن لستما سعيدين.. أنت وهو؟

فاجأني سؤالها فغممت: لم نعد كما كنا. حدثت أشياء في هذه الواحة.

- أتمنى أن تتغلبا عليها. لن أنطلق على أسراركم لكنكما تستحقان السعادة.

قلت بانفعال: علميني يا فيونا كيف أجد هذه السعادة! أمنت طول عمري بأن أعمل، ورثت هذا عن أبي كما أظن كما ورثت أنت عن أمي هذا الـ .. الهوس والطمأنينة. كان أبي يشجعني دائما على أن أستمّر. علمني أن يكون هدفى هو العمل - أن أتعلّم لغة جديدة أو أن أكتب مقالا أو ربما ذات يوم أن أؤلف كتابا. نفذت وصيته ولكن أين أجد السعادة وسكينة النفس ؟

- أنت أذكى منى بكثير يا كاثرين فكيف تسأليننى النصيحة؟ عندما كنت صغيرة كنت أغار منك كلما تعلمت لغة أو قرأت على ترجمة أو بحثا من تأليفك ثم أصبحت بعد ذلك فخورة بك. أشعر كائى أنا أيضا قد حققت شيئا واعتقد الآن أنك تجدين السعادة بالفعل فى العمل. فلا تهتمى إذن بما أقوله لك أنا أو غيرى. أنت تعرفين طريقك أفضل منا فاستمرى.



إذن فقد شعرت فيونا بخراب علاقتي مع محمود. بالطبع هي أذكى من أن يخدعها تظاهرها بأن كل شيء على ما يرام. لكن حتى لو وجدت الشجاعة لأقول كل شيء فكيف أفسر وأنا نفسي لا أفهم؟ لو قلت لها مثلاً إن زواجنا مات بموت مليكة فكيف أشرح لها الحكاية الحقيقية؟ مازال لقائنا الوحيد حياً. مهما كررت لنفسي أن شيئاً لم يحدث وأناى طويت هذه الصفحة فإنى أعيش تلك الرعدة التى شملتني وهى تقبلنى أو وأنا أؤس وجهها فى صدرى. مازال بلل دموعها ولعابها هناك لايزول مهما أنكرت. أحاول أن أطمئن نفسي بأنى عشت عمرى كله امرأة طبيعية وكنت أستمع كثيراً بالعشق مع محمود فيتسلل خاطر يهزأ منى، وكذلك كانت «سافو» تستمتع بالعشق مع الرجال. كانت طبيعية أكثر منى. هى كانت أمّاً على الأقل تحب ابنتها أما أنا فعقيم . لا! لم أبرأ بعد.

هل تظل فيونا فخورة بى كما قالت لو سمعت هذا كله؟ نقول إنها كانت تغار منى ثم أصبحت فخورة بى! لماذا؟ هى لا تدري إذن أنى أنا التى اعتدت أن أغار منها. أراها طول عمرى المثل الأعلى فى الجمال والطيبة التى تكسب بها قلوب الناس. هى أحب إنسانة إلى قلبى لكنى حسدتها دائماً على ذلك كله ولعلى مازلت حتى الآن أغار منها. لم تشأ أن تخبرنى إن كانت قد أحبت مايكل أولاً. تركت سؤالى معلقاً. لعلها محقة - فلنتركه يرقد فى سلام! ولنترك أيضاً سؤالها عن سبب زواجى منه معلقاً. لا أعرف الجواب، فلنترك كل أشباح الماضى. تكفى أشباح الحاضر وتزيد. شبح مليكة وحده يكفى.

فلأرجع بالفعل إلى العمل. إن لم أجد السكنية فى العمل فهو سينسينى البحث عن هذه السكنية التى لا تأتى أبداً. تنصحنى فيونا أن أستمّر، وهل هناك حلّ آخر؟ كأن هناك من يطارئنى لكى أستمّر.



انهمكت أياما في قراءة ما تحت يدي مما كتبه المؤرخون عن نهاية الإسكندر -
أستعيد ما أعرفه لأستنطقه بالجديد، لعلى أجد الدليل الذى تريده فيونا قبل
الحديث عن النتيجة. لا يكفى حدسي أو جنوني، معها حق. كالعادة دائما معها
حق!

سأرتب الوقائع لعلها تبوح بشيء. ما الذى حدث بعد موته؟ أراونا تنفيذ
وصيته بدفنه فى واحة آمون إلى جوار أبيه وقدموا له تكريماً أخيراً، بنوا عربة
هائلة الحجم لتكون ضريحاً متنقلاً ينقل جثمانه من بابل إلى مصر وزيروا جانبي
العربة بصور وتماثيل مذهبة تحكى سيرة الملك - البطل - الإله، وكانت تجرها
عشرات البغال التى تُسمع وسوسات المئات من أجراسها على مبعدة أميال وهى
تشق الطريق فى رحلتها الجنازية إلى مصر عبر الصحارى والوديان والغابات،
وعبر المدن التى بناها والأخرى التى دمرها.

قضت العربة سنتين لتقطع المسافة من بابل إلى وادى النيل، لكنها لم تكمل
الرحلة إلى مقصدها فى واحة آمون حسب الوصية. استقبلها بطليموس نائب الملك
وحول مسارها إلى عاصمته ممفيس فى صعيد مصر وأقام الضريح هناك ليكون
الإسكندر شاهداً وضامناً لمجد تابعه الطموح، الذى لم يتأخر فى أن يعلن نفسه
ملكاً. وعندما نقل العاصمة من الجنوب إلى الإسكندرية أخذ الجثمان إلى هناك
وبنى الضريح فيما بين الفناء المعجزة والمكتبة العامة التى أنشأها. لم يعد مجرد
ضريح بل صار معبداً للإله الإسكندر بن زيوس - آمون . أعمدته من الطراز
النورى اليونانى، تقصده مواكب الحجاج الغفيرة فى عيده السنوى ويأتى الحجاج
للتبرك به فى كل حين، لعبادة الإله المحنط فى تابوت من رخام، استبدلوا به بعد
حين تابوتا من الزجاج الشفاف ليجلو طلعتة. وعلى مدى قرون ظل المعبد مزاراً
لكل العظماء الذين مروا بالإسكندرية من يوليوس قيصر ومارك أنطونىوس اللذين
صحبتهما كليوباترة بكل تأكيد، ثم ومن بعدهما كثير من أباطرة الرومان. كلهم

كانوا يخشعون أمام البطل الفاتح الذي لم يُهزم أبداً، ولعلمهم كانوا يحسدونه لأن أحدا بعده لم يبلغ مثل مجده.

لكن فجأة بعد ستة قرون طوال يختفى ذكر الضريح والجثمان تماما. أصدر إمبراطور روماني متحمس لدينه الجديد مرسوماً بإغلاق كل معابد الآلهة الوثنية ومن بينها معبد الإسكندر بعد أن أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الوحيد. لكن أين ذهب الإله المحنط في تابوته الزجاجي، وأين معبده؟ لماذا لم يبق له أى أثر؟ هنا لا جواب لدى المؤرخين. هل غرق في البحر كما قال أبى أو اندثر بفعل الزمن كما تقول فيونا؟

لماذا يرفض عقلى هذه النهاية المبتورة لأسطورة طويلة وجميلة؟ وهل عقلى هو الذى يرفض أم أنى أنتشيت بأن يكون لى أنا أيضا إنجاز كبير فى حياتى؟ لم لا؟ قصيرة جدا هى الحياة مثلما فهم الإسكندريون على من يستطيع أن يخلف فيها أثراً ألا يتردد أو يتلکأ. هو فتح العالم وأنا أحلم فقط أن أراه فى حضن أبيه آمون وأن تتحقق وصيته وبذلك أحقق أنا أيضا مجداً متواضعاً شئ يعرض فشلى مع محمود ومع مايكل وينسينى شبح مليكة إلى الأبد. وحتى لو لم أنجح فهى محاولة تستحق أن أشغل بها الوقت. ستبقى السكينة بعيدة على أى حال.

ومع ذلك فإن حدسي يكمل القصة بنهاية منطقية ومعقولة، فالمسيحية لم تضع نهاية سريعة للوثنية فى الإسكندرية ولا فى مصر. كان هناك شهداء للمسيحية قبلوا التعذيب والموت دفاعاً عن عقيدتهم السماوية، ولكن كان هناك أيضا شهداء للآلهة الوثنية ارتضوا تعذيب المسيحيين لهم وضحوا بحياتهم من أجل آمون وإيزيس وحورس وغيرهم. لماذا إذن لا يكون من بين الأوفياء لهؤلاء الآلهة أتباع للإسكندر بن آمون - رع؟ كانوا كثيرين فى ذلك الوقت فماذا لو أنهم بعد إغلاق معبده قد نقلوا جثمان إلههم سرّاً إلى واحة أبيه؟ هى المكان المثالى. كانت بعيدة

عن حكم الرومان لم تدخلها المسيحية بعد، وظلت عبادة الآلهة المصرية مزدهرة فيها لقرون طويلة بعيدا عن أى سلطة تحكم مصر. من المنطقي إذن أن يفكر عبّاده الأوفياء فى نقله إلى هذا المكان وفى تنفيذ وصيته بعد قرون من القرية. علقى يقول لم لا؟ وحدهسى يقول إنه قريب ولكن أين الدليل؟

رجعت أيضاً أقرأ كل ما كتبه الرحالة الذين زاروا الواحة عن معابد سيوة وأثارها. توقفت مثلما أتوقف كل مرة عند وصف المعبد النورى المندثر قرب بحيرة خميسة. مساحة المعبد وأبعاده كما وصفه الرحالة الفرنسى «كايو» هى أبعاد معبد يونانى مثالى وأهم من ذلك إشارته إلى طراز أعمدته النورية وأنه الوحيد من نوعه فى الواحة . لكن أين هو هذا المعبد الآن لاستنتج منه دليلا على أى شىء؟ كان يمكن لليوزياشى وصفى أن يساعنى وأن نذهب معاً لنفتش هناك وفى أماكن لا أستطيع الذهاب إليها وحدى. لكن محمود مازال يفرض السجن. لا أستطيع حتى أن أدعو وصفى لأتناقش معه، فيونا نفرت منه منذ أن وصف الثوار بأنهم خونة ولا ترحب برؤيته. لماذا هذا التزمّت يا فيونا؟ هو يتكلم عن ثوار بلده فهو حرّ، والإسكندر الأكبر ليس هو (كرومويل) الإنجليزى الذى استباح كوثوت وذبح أهلها، فلماذا تصيبين غضبك على الملك المقدونى؟ ثم إنى أحتاج الآن إلى وصفى ليساعنى. يجب أن أفكر فى طريقة.

ولكن قبل ذلك يجب أن أتأكد بنفسى من شىء ما . فما العمل؟



قالت فيونا بحرارة: لم لا ياكاثرين؟ أخرجى!

وتطلعت أنا نحو زبيدة التى بدا فى وجهها المتغضن الرفض والشك. حاولت مع فيونا أن نشرح لها بالعربية والسيوية وبالإشارات أنى سأقترض حمارها لفترة قصيرة وأعيده لها سالماً، لكنها ظلت تكرر في عناد: الإيزيت مريض. الحمار مريض! اجتهدت لإقناعها بالإشارة أنى أن أرفقه وأن أتأخر بل ساكون قريبة من البيت.

حاولت فيونا أن تطمئنئها فأشارت بسبابتها إلى الأسفل «عساكر تحت»! أى أنهم سيحموننى ويحمون الحمار لو حدث شىء. ثم وضعت يدها على كتف زبيدة وقالت بابتسامتها الساحرة: سأشتري لك إيزيت غيره! فوافقت زبيدة على أن تعيرنى الحمار لكن على مضض.

لم أقل الحقيقة كاملة لفیونا. انتهزت فرصة وصول زبيدة بمفردها وقلت إننى أفكر فى نزهة قصيرة حول البيت إذا ما سمحت العجوز أن تعيرنى حمارها فوافقت فيونا على الفور قائلة أنت تحتاجين بالفعل إلى الخروج والتنزه قليلاً بدل البقاء سجيناً معى فى البيت. كان كلامها يشى بأننا تلوم أنفسنا فلم أجادل بأنه لا علاقة بهذا السجن. كنت أحتاج مساعدتها لكى تقنع العجوز العنيدة.

وفور موافقة زبيدة لبست الثياب التى أعدتها لأتخذ مظهر السيويات. ارتديت ثوباً قاتماً سابغاً وتحته سروالاً طويلاً ثم أحكمت حولى عباءة فيونا «التار فويت» من أعلى الرأس وأسدلتها على وجهى مثلثمة بها تماماً تاركة بالكاد فراغاً للعينين. وبينما أنزل السلم بخطوات بطيئة وقلبي يخفق لاحظت أن جنود الحراسة ينظرون نحوى باستغراب. لايهم! قبل أن يفكروا أو يفعلوا أى شىء ساكون قد رجعت.

ركبت الحمار كما تركبه زبيدة مدلية ساقى على جانبيه وغمزته ليتحرك بسرعة فى طريق أغورمى. طريق مليكة والشيخ يحيى والجوبة وأشياء كثيرة. اطمانت إلى أنى أتقنت التتكر. كان بعض الزجالة يخرجون من حدائقهم عندما يسمعون

نهيق الحمار وينظرون نحوى بشكل عابر ثم يرجعون إلى عملهم. مع ذلك كانت ضربيات قلبي تسرع أكثر. ما معنى قولى إذن بأتى لا أخاف من شىء؟ ها أنا خائفة! هل كنت أكذب على نفسى بهذا الوهم أيضا؟

ليس أمامى الكثير من الوقت لأفكر فى هذا أو فى غيره. رحت أستحث الحمار البطيء والضعيف بالفعل كما قالت صاحبتة. توقف مرات كثيرة فى الطريق وأخذ ينهق كأنه يئنّ، لكننا وصلنا فى النهاية. أدبرت البصر حوالى. لا أحد.

ربطت الحمار عند النخلة نفسها التى كان يرقد تحتها محمود الصغير ثم دخلت المعبد. كنت أخفى الكراس والقلم تحت العباءة فأخرجتهما وتوجهت بسرعة نحو الجدار الذى نقلت منه النص. مررت عليه بعينى وأنا أحرك أصابعى مع الحروف. لم أخطئ. هى بالفعل صلاة لأمون - رع - ولا أحد غيره. أريد أن أتحقق أيضا من الإشارة إلى الماء. لن أخدع نفسى يجب أن أحاول فك رموز أنهر الكتابة الديموطيقية المطموسة. اكتشفت وأنا أعيد قراحتها أنى أخطأت فى نقل بعض الأسطر حين نوبتها أول مرة. أسندت الكراس إلى الجدار وحاولت التدقيق وأنا أنقل ما أراه أمامى لكننى كنت أخطئ أيضا بسبب السرعة فأمحو ما كتبت وأعيده من جديد وألوم نفسى على الخطأ! لا وقت عندى لأضيقه!

لم أكد أنون صفحة واحدة عندما سمعت الهمهمة التى تحولت إلى لفظ ثم أصبحت أصواتا هادرة بينما تحولت نقات قلبي إلى طبل فى أننى. ارتجفت يدى فسقط الكراس من يدى وانحنيت لأتقطعه عندما رأيت وجوه الزجالة الفاضبة تحيط بمدخل المعبد.

كنت منحنية نحو الأرض فلم يصبنى أول حجر. لكن الحجارة تواتل ترجمنى فوضعت يدى ونراعى حول رأسى ووجهى وأنا أصرخ وهم يصرخون ثم صوت حصان يقترب ثم طلقة رصاص فيتوقف الرجم ويستدير الزجالة ينظرون فى اتجاه مصدر الطلقة.

بعد الصمت الذى حل سمعت صوت السلماوى الأجش وصوت الشاويش

إبراهيم يتأنيان ثم رأيتهما معا . وقف السلماوى وسط الزجالة وقد علق بندقيته على كتفه وأخذ يتحدث إليهم مبتسما وهو يريت على ظهورهم بينما اندفع إبراهيم نحوى وسألنى فى لهفة .

الهانم بخير؟ أصابك شىء؟

نظر إلى الحجارة المتناثرة حولى على الأرض فقال وجزعه يشد:

هل أصابك هؤلاء الأشرار بشىء؟

- لا .. يا .. شاوويش إبراهيم .

إن أصرخ . إن أتأوه . مواضع كثيرة من جسدى تؤلى لكتى تمكنت من حماية رأسى ووجهى . أردت أن أتأكد فتحسستهما بيدي . لا توجد دماء .

نجح السلماوى فى صرف الزجالة وهو يتكلم معهم بصوت عال ويضاحكهم بينما كان إبراهيم يسألنى بصوت حزين:

لماذا يا هانم؟

رددت عليه بسؤال وأنا أحاول أن يكون صوتى طبيعيا:

كيف عرفتما أنى هنا؟

- جنود الحراسة أبلغوا الأومباشى . عبادة زبيدة كانت متروكة على عتبة الباب فعرفوا أنها لم تكن هى التى خرجت لكن...

اقترب الأومباشىء السلماوى وقال: عفوا يا هانم، لكن يجب أن نرجع بأسرع ما نستطيع قبل أن يغير هؤلاء الرجال رأيهم وقبل أن يسمع سعادة المأمور بما حدث . جئنا نون أن نخبره بشىء .

التقطت الكراس ومشييت بثبات نحو النخلة . على الأقل لم يصب حمار زبيدة

بشىء .

امتلئ السلماوى حصانه وحمل الشاويش حملا تقريبا فأرشفه خلفه ثم سبقنى مشهرا بندقيته فركبت الحمار وتبعته . لم يعد هناك معنى للتنكر ، فأرخت العبادة وتركت وجهى مكشوفاً وأنا أتحمس مواضع الألم وأكتم تلؤماتى .



دخل محمود البيت مندفعاً كالمجنون.
فى وجهه المحتقن غضب لم أر مثله من قبل.
زبيدة انصرفت غاضبة أيضاً فور وصولى وهى تهذر بعبارات لوم وتائب لم
أبال بأن أفهمها، وللمرة الأولى لم تحتضن فيونا وتقبلها وهى خارجة.
جلست فيونا إلى المائدة قبالتى وهى تحنى رأسها وفى وجهها حزن وانكسار.
قبل أن ينطق محمود بكلمة قلت: أنا أسفة، أخطأت وأنا أسفة.
فتح فمه ليتكلم لكن العبارات كانت تختنق فى حلقة ووجهه يزداد احتقاناً
وأخيراً انفجر:

الهانم أسفة؟..

ثم عاد يتلجلج: وأ... أنا، أنا آخر من يعلم؟
تقدم نحوى وهو يمد ذراعيه وييسط كفيه كأنه سيضربنى بكلتا يديه أو
سيخنقنى لكنه رفع يداً فجأة خبط بها جبينه وتلجلج من جديد: «س... س...
سأخنى السمارى ومع إبراهيم، أنا آخر من يعلم؟ أقسم أن...»
- انتظر لحظة يا محمود!

سكت فجأة عندما وقفت فيونا تخاطبه، كان وجهها كالرماد لكنها كانت تتكلم
بصوت واضح يكتم انفعالا شديداً:
وجه كل لومك لى يا محمود، كاثرين لا ذنب لها، أنا التى طلبت منها أن تخرج
لتنزه.

وقف ينظر نحوها دون فهم ثم قال: حتى أنت؟ لكن لماذا؟
استدار ليخرج مندفعاً مثلاً دخل، ووضعت فيونا يدها على كتفى وكررت
السؤال بصوت مرتجف:
لكن لماذا يا كاثرين؟



١٨ - محمود

صحوت أبكر من المعتاد وسط ظلام دامس .

ليلة أخرى من النوم القليل .

وهذا الاسم ديرا .. ديرادا .. ديارادا؟

يدور فى ذهنى منذ فتحت عيني ولا أفلح فى تذكره، اسم صعب وحكاية أصعب يافئونا .

لا يواتنى الاسم الصحيح وتتوه منى التفاصيل، فى الحكاية ملك شرير أراد لنفسه هذه البرينة ديرادا التى تحب فارسا جميلا - لا أنكر هل قتل الملك حبيبها وأخويه الفارسين أو قتلهم غيره، وهل قتلت الجميلة نفسها غما على حبيبها أو أماتها الحزن، تتبخر التفاصيل لكنى أذكر النهاية تماما . صمم الملك أن يفصل بينها وبين حبيبها حتى فى الموت، دفنها بعيدا عن قبره يفصل بينهما نهر أو قناة، لكن نبتة نمت من قبرها، لعلها اللبلاب، استطالت وامتدت فى البر وعبر الماء فعانقت فى الضفة الأخرى فرعا نما من قبر حبيبها ونبتت من عناقهما شجيرة، أمر الملك بقطع الشجيرة وبتر الفرعين لكنهما نبتا من جديد وتعانقا مرة ومرتين ومرات كثيرة إلى أن ينس الملك وأوقف البتر . قهر حبهما فى الممات إرادة الشر .

لم تكن هى فيونا الباسمة التى حكى القصة فى الليل، وإنما فيونا أخرى غاب عن وجهها الدم وتقطر كلماتها بالحزن، سألتها كاثرين بلهفة عندما سكنت لماذا اختصرت الحكاية وأغفلت أشعارها الجميلة فقالت وهى تقوم، يكفى هذا الآن، أنا متعبة هذه الليلة .

بالفعل لم ينقطع سعالها المؤلم طول الليل . يزداد سوءا يوما بعد يوم ومعها

شعورى بالعجز، لم تصنع أعشاب الشيخ يحيى المعجزة التى تحققت مع إبراهيم
فما العمل؟ رفضت كاثرين أن تسافرا معا إلى القاهرة لعلها تجد هناك علاجاً
أفضل وردت علىّ بما أعرف: كيف؟ الرحلة ستقتلها، لكن بقاها هنا أيضاً يقتلها
ويقتلنى معها. لو كان هاجس الشيخ يحيى عن حالتها صحيحاً فلا أمل، وما زال
الحرّ بعيداً لكى نجربّ الأمل الأخير، فهل ستصمد إلى أن يأتى الصيف ويسخن
الرمل؟ هل ستعيش؟ لابد أن تعيش، لو أحد يستحق الحياة فى هذا البيت فلا يوجد
سواها، لا أنا ولا كاثرين.

هذه صوت السعال قليلاً فارتحت .. أصبحت أميز حالات السعال بكل وضوح
منذ انتقلت فيونا إلى الطابق السفلى. أرفف سمعى حتى لصوت تنفّسها. ما الذى
أريده منها، لاشئ سوى أن تعيش مثلاً قال الشيخ يحيى إنه تمنى أن تعيش
ملكة ليبقى للعالم معنى. لماذا إذن لا أستطيع التخلص من وجهها الذى يطاردنى
فى البيت والمكتب والطريق؟ حين أكون وحيداً فى الفراش أوحى ترقد كاثرين إلى
جانبي؟ ما نهاية ذلك الشئ الذى لا مطلب له ولا خلاص منه؟

تجدد السعال عنيماً هذه المرة وراح قلبى يضرب بعنف. يجب أن أخرج، أن
أبتعد. قفزت من الفراش ولم تستيقظ كاثرين، لا توقظها حركتى ولا سعال أختها.
عادت إلى نومها الثقيل بعد ليالى الأتني والتأوه من ألم الرضوض التى أصابتها
بها الحجارة. لا توقظها هموم سوى معابد الأجداد! ليتهم يدلا من رجمها
بالأحجار فى ذلك اليوم كانوا ...

لا، سامحيني يا فيونا، أنا لا أتمنى لأختك أى شراً
اغتسلت بسرعة وارتديت ثيابى وخرجت من البيت.



ما زالت الظلمة حالكة وتباشير الفجر بعيدة، لم أجد صاحباً في القسم غير جنود الحراسة الليلية الذين أدهشهم وصولي في هذه الساعة، لكن بينما أعبير الفناء رأيت شبهاً يتحرك في طريقه للخروج، لم أميزه في العتمة.
فوجيء بي هو أيضاً فتقدم مني يحييني مرتبكاً ثم وقف ساكناً.
قلت : أهلاً يا شيخ صابر.

رأيت مرة واحدة بعد الاعتداء على كاثرين في المعبد. جاء متظاهراً بالاعتذار عما فعله الزجالة وكان كلامه يبطن، كالعادة، أشياء أخرى. حمل تائبياً لكاثرين «لأن الهانم ذهبت إلى المعبد الذي يشك هؤلاء (الجهلة) أنها تمارس فيه سحراً»، وتائبياً لي لأنني مادمت قد سمحت للهانم أن تذهب إلى المعبد فقد كان الأفضل أن أرسل معها حراسة كافية. سلمت بيني وبين نفسي بأن الحق معه لكنني اكتفيت بشكره، وقلت إنني سأحرص على ألا يتكرر ما حدث. أصر وصفى على أن يدلنا الشيخ صابر على الزجالة المعتدين لكي نجلدهم أمام الجميع فيكونوا عبرة لغيرهم، فقلت بحسم إنني أقبل اعتذار الشيخ صابر وأعتبر الموضوع منتهياً.
في فناء القسم المعتم وقفنا متواجهين وصامتين، أخيراً قلت:

— هل حدث شيء يا شيخ صابر يحتاج تدخل الشرطة؟
فرد وارتباكاً يزداد: أبداً .. أبداً يا سعادة المأمور، أنا كنت عند حضرة اليوزباشي و .. كنا نراجع بعض الحسابات للضرائب.
ضحكت برغمي: تراجعاتها في هذه الساعة يا شيخ صابر؟
— نعم هو قال لي قبل صلاة الفجر. يجب العمل مبكراً.
— البركة في البكور فعلاً، مع السلامة يا شيخ.

انصرفت عنه وصعدت إلى مكتبي. أراد أحد جنود الحراسة الليلية أن يوقف الشاويش إبراهيم فمتعت، قلت سنبدأ العمل في موعده مثل كل يوم.
شعرت بالبرد بمجرد دخولي فأغلقت النافذة المفتوحة وجلست وحيداً في

الغرفة المظلمة، أحتاج الوحدة وهذا السكون لى أفكر.

أفكر فى أى شىء بالضبط؟ أمنت التفكير فى نفسى وكلما فتحت صفحة وجدتتها أسوأ من التى سبقتها. ليتنى لم أكن أنا! ليتنى كنت أخى سليمان مثلاً، أنا التاجر فى الشام وهو الضابط فى الشرطة، لم لا؟

الأب نفسه والأم نفسها، هى مجرد صدفة. كان ممكناً جداً أن يخدمنى الحظ فأكون هو. لم أره منذ سنين ولا رأيت زوجته وأولاده. ملامحه شعبت فى ذاكرتى. قطع الماضى كله وبنى حياة جديدة بعيداً عنا، لا ألومه على شىء، لم يقصر أبداً وظل فى حياة أمه يرسل لها بعض المال رغم أنه كان فى بدء تجارته ويحتاج إلى كل قرش. لكن حزناً فى نفسى أنه لم يحضر عندما أرسلت له بريقة نعيمها، ردّ برسالة عزاء يقول إنه لافائدة من حضوره بعد أن تمت الجنازة والدفن والأجدى أن توزع مصاريف سفره صدقة على روح المرحومة، تمنيت وقتها أن يأتى وأن نبكيها معاً، كنت أنا الذى أحتاجه، لكن ربما كان مافعله هو الأصوب. لو كنت سليمان ماعشت هذا العمر من الحيرة .. لو كنت سليمان .. لو كنت ..

السرايق واسع وأنا واقف أتقبل العزاء فى محمود عبدالظاهر لكن كل المقاعد خالية ولا أحد يأتى .. يجلس شيخ قارئ على دكة عالية لكنه يفتح فمه ويطلقه دون صوت ولا أحد يأتى .. ثم السرايق حديقة واسعة مزينة بالناس يلعب فيها كثير من الأطفال وأنا أسير وحدى أحمل طيات من قماش أبيض، أستوقف رجلاً عجوزاً وأسأله عن مكان المقابر فيشير بيده دون أن يتوقف ويقول استمر فاتبع إشارته وأجدنى على شاطئ نهر تحف به أشجار لبلاب تتدلى غصونها فى الماء وأنا أمسك بيدي فتاة جميلة ونضجك معاً، وأقول لها تصورى كنت ميتاً لكنى عشت من جديد فتقول بفخر هذا بفضلنى أنا، ويركب قارباً فى النهر وأكتشف أنها نعمة فاضحك وأسأله منذ متى غيرت لون شعرك؟ وترد منذ تركتني .. لكنها تصرخ فجأة وتشير بيدها خلفى ويظهر ناس كثيرون على شاطئ النهر يشيرون

بأيديهم إلى حيث تشير وألقت فلجد تمساحا هائلا فاغر الفم بهجم على القارب..
أسك بيد نعمة ونقفز معا من القارب .. نجرى بسرعة فوق الماء فنكون مرة أخرى
في السرادق وسط المقاعد الخالية وصوت القارئ لا يخرج لكنه يفتح فمه ويقلقه...
تقول نعمة في سخط لماذا لا يقرأ هذا الشيخ على الأقل؟ أتقدم منه غاضبا
فاكتشف أنه لا يقرأ لكنه يضحك. عرفته من عيني فأمسكت بتلابيبه وقلت ثائرا أنت
ياشيخ .. ثم صحت :

- أدخل!

أيقتننى فزعا من غفوتي طرقات إبراهيم على الباب.
يختلط كلامه ببقايا الحلم فلا أركز كثيرا على مايقول. فهمت من لهجته الحزينة
أنه يعاتبني لأنى لم أسمع بإيقاظه: هل لم تعد له فائدة فى القسم؟ طيب خاطر
وطلبت أن يحضر لى كوزا كبيرا من الشاي. نمت بعمق فلم أنتبه إلى حركة بدء
العمل فى القسم ولا إلى نور الصباح الذى دخل الغرفة رغم النافذة المغلقة، قمت
وفتحتها ثم رحت أتمشى فى الحجرة بسرعة لاستعيد شيئا من الدفء والنشاط.
عندما رجع إبراهيم ظل واقفا أمامى وأنا أرشف الشاي من الكوز بيد مرتجفة
فبتأثر رذاذه على المكتب برغمى وضعت الكوز على المكتب وسألته.

- هل تريد شيئا يا شاويش إبراهيم؟

بدا عليه التردد للحظات ثم أخبرنى أن الشيخ صابر جاء اليوم قبل الفجر
وقابل حضرة البيوزياشى.

- أعرف. قابلت صابر وقال انه كان يراجع حسابات الضرائب مع

البيوزياشى.

- حسابات؟ ولماذا يراجعانها فى السر سعادتك؟ لم تكن هذه أول مرة. يأتى
الشيخ كثيرا فى عز الليل ويختليان فى المكتب فلا يسمعهما أحد، ويخرج قبل أن
يصبحو من فى القسم، فهل هذه مراجعة حسابات؟

- انصرف أنت الآن يا شاويش ولا تتجسس على اليوزياشى ولا على غيره. لو كان هناك شيء فسنعرفه فى وقته.

قال محتجا: كيف يا أفندم؟ فى وقته متى؟ يجب أن نعمل حسابنا قبل أن تقع الفأس فى الرأس.

- إن شاء الله سنعمل حسابنا، انصرف الآن يا إبراهيم.

خرج متذمرا. كيف أقول له إننى لاتهمنى هذه الحكايات؟ كل مايمكن أن يصيبنى حدث وانتهى.



قضيت النهار أعمل فى القسم، أخترع أعمالا. تفقدت المخازن وبدأت أكتب خطابات للنظارة عن الميرة والنخيرة الناقصة التى نحتاج إرسالها مع القافلة المقبلة. وجاء اليوزياشى وصفى يعرض على كشوف الحسابات عن حصيلة الضرائب المتجمعة، قال إنه راجعها مع الشيخ صابر فى الصباح وإنها تفى بما طلبته النظارة. فهمت أنه سمع بمقابلتى مع صابر فجاء يعرض هذه الحسابات التى فات أوانها منذ زمن. كان يجلس أمامى ويتابعنى بعينيه اللتين لا تكفان عن الحركة وتثيران أعصابى فألقيت نظرة على الكشوف وشكرته وأنا أضعها جانبا ولكن كانت بيده أيضا مجموعة من الصحف قدمها لى وهو يقول وصلتنى مع القافلة الأخيرة، ربما تحب سعادتك أن تطلع عليها. كانت أعدادا قديمة من صحيفة (المقطم) التى أمقتها، قرأت عناوين بعضها بسرعة ثم أعدتها له كما هى وأنا أقول :

- يبدو أن الخديو الشاب يختلف عن أبيه، يبدو أنه لا يحب الإنجليز كثيرا.

- سيحبهم!

كان يتكلم بثقة كبيرة فسألته:

- كيف؟

- حكومتنا لا تستغنى عن الإنجليز. نحن نحتاج إليهم.

قلت باسمي : لكنك فى تلك الليلة كنت تؤكد عظمة أجدادنا المصريين وأنت

تمدح آثارهم ألا يستطيع الأحفاد أن يصلحوا مثل أجدادهم لحكم البلد؟

- ليس الآن، لابد أن نتعلم أولا الكثير من الإنجليز. أنظر سعادتك حتى آثار

المصريين وعظمتهم يكشفها لنا الإنجليز ونحن لا ندري عنهم شيئا. كادت مسز

كاثرين تخشى بحياتها من أجل العلم، فما الذى فعله بها الأغبياء الذين أرادت أن

تخدمهم؟

لم أقل شيئا، فأكمل بحرارة وعيناه تلعبان بسرعة أكثر من المعتاد: لم أستطع

أن أشرح لسعادتك وجهة نظري في تلك الليلة لأن الميس فيونا قاطعتني، أردت أن أقول إن فتنة العصاة عطلتنا عن التقدم، لابد أن سعادتك رأيت بنفسك الفوضى التي عاشتها البلد في تلك الأيام والتي حدثني والدي عنها.

- ما الذي رآه والدك بالضبط وحدثك عنه؟ ماذا كان يعمل أيامها؟
- كان لواء في الجيش.

- وهل كان يرأس قومسيون تحقيق مع العربيين؟

قال بدهشة: لا، لا أظن ذلك، على العموم هو الآن على الاستيداع لكنه يذكر كل تفاصيل الهوجة والفتنة. قال لي إن واحدا من هؤلاء الخونة، أظن أن اسمه محمد عبيد، بلغ به الأمر أن فكر في قتل مولانا الخديو تخيل سعادتك الخراب الذي كان يمكن أن يحل بالبلد.

قلت بضحكة خافتة: أتخيل يا حضرة اليوزباشي!

وأكملت بلهجة من يرغب في إنهاء الحديث: يعني باختصار أنت ترى أن العربيين أجزموا في حق مصر لأنهم أرادوا أن يحكم أهل البلد بلدهم.

مط شفتيه بازدياء وقال هذا يا أفندم هو الداء الذي يجر الخراب! عندما يتدخل العوام في الحكم تأتي الفوضى والضعف. أنظر سعادتك مثلا إلى فرنسا. منذ بدأت فتنة الثورة هناك واشترك العوام في الحكم ضاع البلد، حتى عندما وهبهم الله عبقرية حربية لا نظير لها مثل نابليون استطاعت إنجلترا أن تهزمه وتسحقه لأن حكومة فرنسا كان يحركها الرعاع أما حكومة إنجلترا فكان يديرها السياسة الأقوياء.

- السادة.

- السياسة يا أفندم.

- نعم السياسة السادة.

وقفت وأنا أقول لابد أن نناقش هذه المسائل ذات يوم يا حضرة اليوزباشي.

فوقف بدوره وقال: يسعدنى هذا، سأتعلم من سعادتك كثيرا.
أدى التحية بانضباطه المعهود وعندما فتح الباب ليخرج قلت بهدوء.
- اسمع يا وصفى.
- أفندم .

- عرابى باشا أشرف من عشرة خديويين مجتمعين، والبكباشى محمد عبيد
أشرف من كل الخديويين والباشوات الخونة الذين باعونا للإنجليز
وقف عند الباب المفتوح يتطلع نحوى مبهوتا فقلت بالهدوء نفسه: انصراف!
عدت أجلس إلى مكتبى وفى داخلى صوت يسخر منى - لكن كلامك تأخر
عشرين عاما يا حاضرة الصاغ! وإلى غير وصفى كان يجب أن نقوله!
لكن لماذا أيقظ كلامه النكرى؟ ما الذى يعيدنى إلى أيام المجد فى لحظات
الخيبة؟ لأنى كنت هناك يومها!

كنت هناك فى بيت سلطان باشا رئيس النواب مع اليوزباشى سعيد والملازم
طلعت نحرس الاجتماع، كانت مصر كلها هناك - نواب البرلمان والموظفون الكبار
وشيوخ الأزهر وقسوس الكنيسة وأعيان الريف وحتى أمراء البيت الخديوى، كنت
قريبا ورأيت الضابط الفلاح الوسيم طويل القامة يقف محتقن الوجه وعضلات
وجهه ترتجف وهو يشهر سيفه.

كان الخديو بعيدا فى الإسكندرية ووافق على إنذار الإنجليز بنفى عرابى خارج
مصر وإقالة حكومة الثورة. وخطب عرابى فقال إنه لا حل سوى عزل الخديو
وصفقه له الحاضرون، وأخرج طلعت مسدسه يريد أن يطلقه فى الهواء تحية
لعرابى فنهزه سعيد وأنزل يده المسكة بالمسدس. قال عرابى من كان معنا
فليقف! فوقف معظم الحاضرين لكن سلطان باشا وكبار الأعيان ظلوا فى
أماكنهم. شممت لحظتها رائحة الخيانة المقبلة وشعر بها محمد عبيد، فلوح بسيفه
وقال فى ثورة غضبه أقتله أنا يا باشا ثم اعدمونى بعد ذلك! فقال عرابى غاضبا

أيضا «أسكتوا هذا المجنون!».

لكن هذا المجنون ياباشا هو وحده الذى مات وهو يحارب الإنجليز من بين كل
من حضروا الاجتماع، بينما كان سلطان باشا فى فى ركاب جيش الغزو ولعل
أباك كان معه أيامها يا وصفى!

لكن هذا أيضا هو محمد عبيد الذى وصفته أنا ومن معه بأنهم «بغاة!» .
فلا داعى للتباهى أمام وصفى أو غيره! لا داعى للشجاعة المتأخرة.



أرسلت الشاويش إبراهيم إلى البيت يبلغ كاثرين أنى لن أرجع للغداء وبقيت فى القسم حتى حل المساء دون أن يكون هناك أى سبب لذلك، لا عمل ولا غيره. وعندما وصلت لم أر فيونا ووجدت كاثرين تفرش أوراقها وكتبها على المائدة وهى تقرأ وتكتب فى ضوء مصباحين غازيين كبيرين. تفعل ذلك كثيرا فى الفترة الأخيرة وتحتج بأنه ليست لدينا حجرة مكتب. لم أقل شيئا ولكنى أيقنت أن مصنيبة جديدة فى الطريق. انتهينا بعد حادث الرجم إلى تجاهل كامل من الطرفين. تجاهل يكاد يكون وديا. كيف لم نكتشف هذه النعمة قبل الآن؟ كانت منهمكة تماما فردت على تحيتى العابرة بشكل عابر أيضا، سألتها عن أختها فقالت إنها متعبة الليلة ونامت دون عشاء. ثم عادت إلى أوراقها تمنع النظر فى صفحات كبيرة مليئة برسوم ونقوش وتنتقل منها لتتكون كتابات فى أوراق أخرى. ظلت لحظة أرقب ما تفعله ثم قلت إنى داخل لأنام.

- دون عشاء أيضا؟

- لست جائعا.

- سألحق بك بعد أن أنتهى.

- خذى مايلزمك من وقت.

دخلت فى الفراش بسرعة لكن النوم استعصى مرة أخرى. لم أكن أفكر فى أى شىء لكنى بقيت مفتحة العينين أشعر أن أى نوم لن يزورنى هذه الليلة أيضا، ثم تأتى سعدة خافتة من بعيد فيملا الغرفة بريق مفاجئ. يسترخى جسدى المشدود ويحل بى سلام غريب. يأس مريح واستسلام نهائى: لا مهرّب فلا تحاول. ارض بما يحدث. تقبل نعمة ان علمت مالم تكن تعلم. ما أنت تعشق دون أن ترعب حتى أن تلمس، ليس مهما أن تفهم. لاضرورة لأن تسعد. هى جاءت. أنت أحبيتها لاتريد منها شيئا غير أن تعيش. هذا هو أول الأمر ومنتهاه. فلا تحاول!

بعد فترة طويلة لم أغلق فيها عيني وأرهفت فيها سمعى دخلت كاثرين الغرفة فى هدوء. غيرت ثيابها دون أن تحدث أى ضجة ثم تسللت إلى الفراش. تقلبت فى

مكاني فقالت في همس :

هل أيقظتك؟

- لا، لم أكن نائما.

قالت بصوت خفيض ينم عن انفعال لاتستطيع أن تكتمه:

يا محمود أنا وجدت إشارة!

ثم راحت تتمتم كأنها تحدث نفسها وجدت إشارة، وجدت بشارة.

قلت عظيم - ثم استدرت في الفراش وأغمضت عيني .



فجر آخر مظلم وايلتان دون نوم.

رأيت جنود الحراسة أمام الباب وقد لفوا رءوسهم بكوفيات من الصوف وأوقدوا نارا تطلقوا حولها ينفثون أيايهم. وقفت لحظة فابتعدوا عن النار وأخذوا وضع الانتباه. قلت إنهم يستطيعون أن يذهبوا الآن للنوم.

لكن وردية الاستلام لم تأت بعد.

لايهم.

أدوا التحية وانصرفوا مسرعين.

لم أجد وصفي في فناء القسم كالعادة. ناب عنه الأومباشي السلماوي في طابور الصباح ولحق بي وأنا أتأهب لصعود السلم، سألته عن اليوزياشي فقال إنه خرج مبكرا قبل الفجر ومعه بعض الجنود لاستقبال القافلة القادمة من كرداسة ووعد أن يرجع بسرعة قبل بدء العمل لكن الظاهر أنهم اختاروا الطريق الخطأ، لأن جنودا من القافلة وصلوا بالفعل وسلموا للأومباشي صناديق ذخيرة وبعض خطابات تركها على مكتبي.

إنن لم يكن هناك ضباط جدد ولا مدد من الجنود يدرهم وصفي!

لايأس!

استقبلني إبراهيم على رأس السلم وسبقني مسرعا بقدر ما تحمله رجله العرجاء ثم فتح الباب ودخل ورائي وأغلقه.

وقبل أن أجلس إلى مكتبي كان قول بانفعال كبير: ماذا قلت لسماعتك؟

— ماذا قلت يا شاويش إبراهيم؟ اختصر لأنني متعب هذا الصباح.

— ماذا قلت لك عن الشيخ صابر واليوزياشي وصفي؟

ودون أن ينتظر ردى أكمل كلامه: جاءه في عز الليل كالعادة قبل أن يخرج

اليوزياشي واستطعت أن أسمع بعض الكلام.

ثم سكوت لحظة وأكمل بلهجة ملقاة: هو يطمع في كرسيك يا ولدي والشيخ

الملعون يشجعه! حذرتك من أنهما يديران شيئا.

ضحكت وأنا أقول: مأمور؟ فى هذه السن؟ ولماذا لا؟ اليوم قبل الغد يا إبراهيم! لو الأمر بيدى لعينته مأمورا الآن وأرجعت إلى ..

قاطعتنى بغضب: ماعاش ولا كان من يريد كرسى سعادتك!

قلت لأهنت: إذن فلا تخف شيئا. ليس الشيخ صابر أيضا هو الذى يعين المأمورين، إنصرف الآن.

خرج منتظما ونظرت إلى أطراف النظارة الموضوعية على المكتب. أعرف جيدا ما بداخل كل منها، إيصالات باستلام الأخيرة يجب توقيعها، كشوف المرتبات، التعليمات الجديدة من النظارة، الترقيات والتنقلات .. الخ. معظمها أوراق ألقى عليها نظرة ثم أحفظها فى الملفات.

فتحت الظرف الأصفر الكبير ولم أجد فيه غير ما توقعت وإن استوقفتنى شيء وسط كشف الأخيرة الواردة. كان هناك إلى جانب عدد كذا بناتق جديدة وكذا من صناديق الخراطيش عدد واحد صندوق ديناميت! ديناميت؟

ما نفعه هنا وسط الرمال؟ لعلمهم أرادوا التخلص منه فى مخازن النظارة فأرسلوه إلى الصحراء، ربما لكى يشتروا غيره!

كانت هناك رسالة أخيرة خارج الظرف الكبير فتحتها فوجدت سطورا لا تتخللها أى أرقام، عدت إلى أعلاما فاكشفت أنها موجهة إلى اليوزباشى وصفى، وكان اسمه أيضا على الظرف. أوشكت أن أغلقه من جديد لأسلمه له حين عودته غير أنى رأيت اسمى يتكرر كثيرا وسط السطور، إذن فهى تخصنى أيضا. قرأت الرسالة مرتين وضحكت.

ما الداعى إلى الدهشة؟ حتى إبراهيم استطاع أن يتكهن!

لكنى مع كل البيانات التى تصلنى من النظارة لا أعرف هذا القسم المسمى مديرية النظام الخاص، ولا أضمن من هو رئيس هذه المديرية الذى اکتفى بتوقيع

س.ح. وكان يشكر اليوزباشى على تقريره الوافى، يقول إن معالى مفتش النظارة أعجب كثيرا بدقته ويهنئه على نجاحه فى كسب ود الأجواد وثقتهم، اهتم سعادة المفتش بصفة خاصة بما ورد فى التقرير عن تدهور علاقة المأمور بسكان الواحة ومحاولتهم الهجوم على القسم بالبنايق والمغامرة التى أقدم عليها المأمور بإطلاقه قنيفة مدفع فى اتجاه البلدة دون أن يرجع إلى النظارة أو يبلغها بما حدث، يرى معالى المفتش أن هذه أحداث خطيرة للغاية فى اتجاه خاطئ، كما قال بالنص These are very serious developments in the wrong direction.

وهو يدرس الآثار بكل عناية ويطلب مع ذلك من حضرة اليوزباشى الالتزام الكامل بالتعامل مع سعادة المأمور كرئيس وإطاعة أوامره طبقا للتعليمات والنظم إلى أن تتخذ النظارة الإجراء المناسب، ويؤكد معاليه ثقته بوهنى أفندى ويطلب أن يستمر فى اتصالاته مع شيخ الشرقيين الذى يطمح إلى منصب العمدة، يجب أن يبقى لديه الأمل لكن دون أن يعطيه وعدا محددا ودون أن يسئ إلى علاقته بمشايع الغريبيين، وفى النهاية يهنئ س.ح. حضرة اليوزباشى بثقة المستر هارفى ويطلبه بكتابة تقارير معاملة عن كل الأشياء التى تصل إلى علمه عن الأجواد والأهالى وعن حضرة المأمور وأن يحرص على أن تظل المراسلات سرية.

وتأتى بعد ذلك ملحوظة فى ذيل الرسالة بأنه اتصل بسعادة الباشا الوالد وهو يطمئن اليوزباشى على صحته وأنه فى خير حال بحمد الله .

أعدت الرسالة إلى الطرف ووضعتها أمامى على المكتب وأنا أضطك من جديد. ما الذى جرى لى؟ لماذا لا أشعر بأى غضب؟ لماذا لا أشعر بشيء على الإطلاق؟ هل هو عقاب أستحقه؟ ربما!

انتبهت إلى ضجة الخيول المسرعة المقتربة ودخلوها إلى فناء القسم، ثم وبأسرع مما توقعت سمعت طرقا على الباب ودخل وصفى.

أزاح إبراهيم بيده وهو يدخل ثم أغلق الباب. لم يغير زيه ولأول مرة أراه
أمامى بطريوش يعلوه التراب وثياب معفرة بالرمل. أدنى التحية بوجه ممتنع
مشفوعة بسؤال ملهوف:

– هل هناك ياسعادة المأمور..

قبل أن يكمل جملته مددت له يدي بالطرف المفتوح قائلاً: هذا الخطاب لك
ياحضرة اليوزباشى. فتحته لأنه كان مع رسائل النظارة الرسمية ولكن يمكن أن
تعتبر أنى لم أقرأه، انصرف.

وقف متردداً وهو يقلب الطرف بين يديه لكننى كررت بلهجة حاسمة:

انصرف!

ولم تمض دقائق على خروجه حتى عاد طرق ملح على الباب، أذنت بالدخول
فاندفع الأرمباشى السلماوى ووجهه محقق.

– أنا انتظلم ياسعادة المأمور!

قالها بصوته المتهدج الذى يوحى دائماً أنه على وشك البكاء.

– اهدأ يا أومباشى . ممن تتظلم؟

– اليوزباشى وصفى. وجدنى أسفل السلم وهو نازل من عند سعادتك

فصفعنى على وجهى دون سبب.

قلت لنفسى بل هناك سبب يا سلماوى كان لابد أن يصفع أحداً!

لكنى عدت إليه:

هل ارتكبت أية مخالفة يا أومباشى؟ هل أغضبت حضرة اليوزباشى؟

قال محاولاً أن يكتم غضبه: أبداً رأتى أمام السلم فصفعنى أمام الجنود ثم

انصرف دون كلمة. صفعنى أمام الجنود سعادتك.

رفع السلماوى رأسه المحنى وقال: أنا أطلب حقى ياسعادة المأمور. نحن بنو

ولا نقبل الذل، حسابه كبير لو أخذت حقى ييدى.

- لا تكرر هذا الكلام يا أومباشى. لا تكرر أمامى ولا من ورائى. أنت تظلمت وسأحقق فى تظلمك ، إن كان لك حق فستأخذه.

لكنى لم أر اليوزباشى وصفى أثناء النهار. أرسل جنديا يبلغنى أنه يشعر بتعب ويستأن أن يعتكف فى غرفته فوافقت على الفور. سيرحبنى على الأقل فى هذا اليوم الذى يهدنى فيه التعب من سماع ضجة التدريب وصيحاته الأمرة وصرخات الجنود وهم يجرون ويقفزون.

غادرت المكتب وصحبت معى الشاويش إبراهيم. كانت نظراته تنطق بفخول ولهفة لمعرفة مآدار فى المكتب المغلق مع وصفى والسماوى، لكنى لم أترك له فرصة، قلت لنينا عمل يا إبراهيم.

استدعيت الشاويش المخزنجى ثم ذهبنا ثلاثتنا إلى المخازن وراجعنا معنا الأسلحة والذخائر التى أرسلتها النظارة ثم وقع المخزنجى على إيصالات التسلم فأخذتها وعدت إلى مكتبى أستكمل الرد على رسائل النظارة. يمكن تأجيل هذا العمل لكنى أحتاج إلى أن أشغل نفسى بشىء، أحتاج إلى عدم التفكير فى شىء! وبينما أغادر المكتب بعد الظهر قال لى الشاويش إبراهيم إنه يشعر بتعب ويستأن فى أن يرتاح بقية اليوم. راقبت وجهه وكان يبدو عليه إعياء حقيقى لكنى سألته مازحا: هل يغار من اليوزباشى وصفى؟ قال يا شيمزآن: العياذ بالله.

.. بالطبع يستطيع أن يستريح كما يشاء ثم إنى إن أرجع بعد الظهر. اقترب وقال بصوت خفيض إنه يريد أن يطلب منى شيئا. نظرت له مستفهما فأحتى رأسه وقال بصوته الهامس: أستحلفك ياسعادة المأمور إن وافانى الأجل هنا أن تدفنى فى بلدى. لا تتركنى للغربة فى الرمل، أخاف الغربة فى الموت أكثر مما أخافها وأنا على ظهر الدنيا. انقبض قلبى وأنا أتأمل تجاعيد وجهه لكنى حاولت أن أواضل بالنبرة نفسها

كأنه لم يقل شيئا: الأجل بيد الله يارجل. طلبت هذا الطلب نفسه بعد كسر ساقك
 وما أنت كالحصان ماشاء الله، أنت بالذات ستدفننا جميعا وتمشي وراءنا ..
 ' قاطعنى بابتسامة باهتة: فال الله ولا فالك ياسعادة المأمور: -
 تابعته وهو يعرج منصرفا ببطء، لن أسامح نفسي أبدا!
 نزلت من المكتب ففوجئت باليوزياشى وصفى وقد غير زيّه وطربوشه ووقف
 أنيقا منتصب القامة، نادى على الجنود وبصوته الأمر وزعق فيهم أن يصطفوا
 لأداء التحية، غير أنني ردت تحيتهم من بعيد وانصرفت دون كلمة. سلّول
 التحقيق معه إلى الغد.



فى الطريق إلى البيت وجدت الجو دافئا على عكس الحال فى الصباح.
ليست هناك سوى سحبات خفيفة شفاقة وشمس العصر دافئة ومائدة تغرى
بالاسترخاء تحت أشعتها. لكن عندما فتحت الباب وجنتهما تجلسان معا حول
المائدة وقد فردت كاثرين فوقها أوراقها الكثيرة التى تشبه الخرائط.

قلت بدهشة: هل ستتقضى فراغة اليوم؟
فهمت كاثرين بحماس: سنؤجل الغداء قليلا بعد إنك. أنت وصلت قبل موعدك
لكنى سعيدة لأنك جئت الآن.

أريد رأيك، كنت على وشك أن أقرأ على فيونا ما جئت.
التفتت فيونا نحوى وقالت ببسالتها التى تشيع بعض الحياة فى وجهها:
الشاحب: أليس هذا رائعا؟ وجدت كاثرين أخيرا ما كانت تبحث عنه.
سعلت بشكل متقطع وهى تضع يدها على فمها ثم أكملت: أظن .. أظن أن
المؤرخين .. ال .. ال .. المؤرخين سيهتمون بها ..
نقلت بصرى إلى كاثرين وسألته فى حيرة.
- أى مؤرخين؟ ما الذى سيهتمون به؟
- الإشارة .. الدليل .. قلت لك هذا ليلة الأمس لكك لم تنتبه.
ظلت صامتا وأنا أطلع لها مستفهما فأكملت: تذكر يوم ذهبنا معا إلى معبد
أم عبيدة؟

- وكيف أنسى ذلك اليوم؟
أكملت بالانفعال نفسه: كان الدليل هناك يا محمود لكنى لم أهتم به، نقلته بيدي ولم
أنتبه، حسبته تضرعا عاديا للإله آمون، ركزت يقباض على البحث عن الكتابات
اليونانية مع أنه لم يكن إلها لليونانيين وحدهم. هو ابن آمون رع. إله الكون وإله
الشمس، وكان المصريون يعبدونه بهذه الصفة. بعض الأنهر كانت مطموسة ولهذا
ذهبت إلى المعبد مرة أخرى لأتحقق منها .. و

قاطعتها وأنا أصرخ تقريبا: من فضلك ما الذى تتكلمين عنه يا كاثرين؟

أنا لا أفهم أى شىء.

فصاحت بنورها: كيف لاتفهم؟ ألم أقل لك من قبل إنى أبحث عن دليل على

مقبرة الإسكندر فى سيوة؟

- مطلقا! تبحثين عن دليل على مقبرة الإسكندر هنا؟ فى الصحراء؟ وفى معبد

أم عبيدة المشنوم؟ لو سمعت منك هذا من قبل لقلت إنك مجنونة..

قالت يابتساما ظافرة: بالطبع! است وحدك! كثيرون غيرك كانوا سيقولون

إننى مجنونة! لكن اسمع من فضلك .. اسمع قبل أن تحكم .. بدأت تقرأ وهى

تركز على ألفاظ بعينها وتنقل بصرها بينى وبين كاثرين «أثريان» وكنت أنا أركز

بصرى على فيونا التى أصبحت وجهها أصفر تقريبا فى الأيام الأخيرة، لكننى

أرغمت نفسى على الاستماع إلى كاثرين وهى تقرأ كتابها ترتل وتنتظر إلينا بين كل

جملة وأخرى لتأكد أننا نتابع ونفهم:

أيها المعبود الخفى الأسماء .. يامن تفتح عينيك فتهب النور

للحياة وتغمضهما فيحل الظلام .. بالعدل تحكم عبادك .. تشرق

بالنهار على أرضهم وفى الليل ترحل لترعى أهل مملكتك الخالدين

فى الغرب .. إمتحنى بركتك يا إلهى .. زودنى بقوتك .. أنت يامن

قهرت كل الأعداء فى الأرض وفى أفق الغرب .. تقبل هذه الصلاة

من عبدك «سنحريب» الذى يحكم باسمك صحراءك المقدسة ..

غمسوا قدميك بعيدا فى الماء لكنك تعود لتبارك أرضك وأرض أبيك

.. أرفع لك صلاتي أنا عبدك فى هذا المعبد المشيد لمجدك .. معبد

أخيك الفرعون .. بن آمون..

سكتت كاثرين وراحت تنتظر لنا بفخر وهى تقول مع ذلك ببلهجة تسليم:

- اسم الفرعون غير واضح .. وفى مواضع كثيرة كان يجب أن استخدم

الخيال فى أنهر الكتابة المطموسة .. مثلا الإشارة إلى الماء .. سحة وتاككت منها
عندما رجعت لزيارة المعبد، لكن السياق أى العودة إلى أرض أبيه بعد ذلك - هنا
استخدمت خيالى لأن الكتابة معوجة تماما .. ثم من هو الذى قهر كل الأعداء فى
الأرض؟ إلى من غير الإسكندر يمكن رفع هذه الصلاة؟
حلت لحظة صمت فقلت فيونا: هذا كل شىء.

وردت كاثرين نعم..

ثم أكملت وهى تحوّل بصرها نحوى: إلى أن تسمح الظروف بزيارة بقايا معبد
بلاد الروم .. أظن أنه هو المكان المقصود فى هذه الصلاة، أظن أنه هو الضريح
أو أن الضريح فى مقبرة خفية إلى جانبه. يتفنن المصريون فى إخفاء مقابر
ملوكهم تفاديا للصوص كما تعلمان.

قالت فيونا بحدة مفاجئة: ولكن .. ولكن ما قرأته ليس دليلا على أى شىء
ياكاثرين!

قالت كاثرين محتجة: كيف؟ بذلك مجهودا كبيرا لأشرح ..
فقاطعتها فيونا وكانت هى التى تبذل مجهودا لتنتزع الكلمات وسط أنفاسه
المتقطعة لكنها تصر على الكلام.

- هذه صلاة .. أو مديح يمكن قوله عن أى إله .. أو عن أى ملك قديم .. وفى
أهم جزء منه تقولين إنك استعنت بالخيال .. أليس هذا ما كان ينتقده ماى..
لم تكمل الاسم لكنى فهمت أنها تعنى زوج كاثرين الأول التى ردت فى عناد:
- هذا لأنه كان معدوم الخيال. ستثبت الأيام أن نظريتى صحيحة وأن قبر
الإسكندر هنا ..

قالت فيونا بصوت شديد الخفوت : ربما .. معذرة ياكاثرين ..
سكتت لكنى رأيت الدماء تغيب عن وجهها وهى تلهث بينما اعتمدت يديها
معا على المائدة ونهضت بصعوبة ثم بدأت تترنح فجريت أسندها بيدى قبل أن

تهوى إلى الأرض.

صرخت كاثرين أيضا وهزات تسند أختها معي. نقلناها معا إلى السرير. راحت كاثرين تبلل وجهها بالماء وتقرب عطرا من أنفها. كان تنفسها ضعيفا لكنها فتحت عينيها مرة وحاولت أن تبتسم لأختها، ثم أغضت عينيها من جديد. راقبت الجسد الممدد على الفراش والوجه الذي أخذ يزرق وسألت كاثرين بهنو:

هل هي تموت الآن؟

فصرخت في وجهي وهي تضرب صدرى بقبضتيها: لا لا إياك أن تقول هذا! فقدت الوعي مرات من قبل ثم أفاق. ستبقى الآن! حالا!

- نعم، لا بد .

لم أرفع عيني عن الوجه النائم. العينان مغمضتان لكنهما محفورتان في ذهني.

قلت: الشمس تدفئ من جديد فعلا .. وستستطيع زبيدة .. أقصد وستنفع أنوية الشيخ يحيى .. لكنني لن أنتظر.

- ماذا تقصد؟ وإلى أين تذهب؟ هل تتركني الآن وحدي وأنت ترى حالتها؟ هل جنت؟

كانت تصرخ فصرخت أيضا وأنا أخرج: لن أنتظرا ولاحتنتي بصياحها.



فى القسم رأيت الیوزباشى وصفى من جدید.
تقدم منى وأنا أضبط سرج الحصان وأعلق الجرابین على جانبیه. لم یسألنى
أین أذهب بل وقف أمامى وقال بوجه كالح ونظرة تصميم فى عینیه :
یأسعادة المأمور، كنت أريد أن أشرح لمعالیک..
- لاتشرح أى شىء، لا أريد أن أسمع أى شرح. الغلطة فى الحیاة نفسها.
- معذرة. لم أفهم ما تقصده ساعتک. أى غلطة فى الحیاة؟
- ستفهم كل شىء بنفسک. لا، بل أنت فهمت مبکرا جدا.
وبینما أمتطى الحصان قلت بشكل عابر لكن أنصحک مع ذلك أن تسوى أمورک
مع السلماوى.

قال باستهانة: السلماوى؟ ومن یکون؟

- هو من هو، إنس ما قلته وافعل ما شئت، لكن لاترسله ورائى ولا ترسل أحدا
غیره، بل انتظر لحظة، أرسله هو والشاویش إبراهیم فوراً إلى البیت، ربما تحتاج
الهائم شیئا منهما. أما أنا فلا أحتاج أحدا ورائى. هذا أمر یایوزباشى. هل
فهمت؟
- أمرک أفندم.



همزت الحصان وخرجت من القسم. لم أتوقف عند البيت وأخذت طريق أغورمى ركضاً بالحصان وسط الحداثق فى ضوء النهار المتأخر، رأيت كالعادة بعض الزجالة والعصيبة يقفون أمام حدائقهم ولم ألتفت إليهم، اقتربت من المكان الذى ننحرف فيه يسارا إلى حديقة الشيخ يحيى، لم تنفع نصائحك لى أيها الشيخ الطيب ولا نفعت أنويتك لفيونا، ربما ستدفع الأبوية، لكن النصائح هى التى لم تنفع. ما العمل ياشيخ وكل الحكمة لاتفيد فى أن تهدى الراحة إلى القلب؟ الغلطة فى الحياة بالفعل، أنا لم أختَر حياتى. لم أختَر أن أتى إلى هذه الواحة ولا اخترت أن تدخل مليكة بيتى ولا أن تأتى فيونا إلى قلب الصحراء.

كل ما طلبته هو أن تعيش، لا شيء أكثر. جئت لك لتساعدنى لكنك لم ترنى. انتبهت فجأة إلى نهيق حمير وظهر أمامى جيش من الزجالة راكبى الحمير متوقفين ليسلوا الطريق عامدين. شب الحصان فجأة على ساقيه ثم توقف وراح يصهل ويدق الأرض بحوافره فى عصبية. كانوا ينظرون نحوى فى صمت وتحد وهم يهزون بحركة رتيبة سيقانهم المدلاة فى سراويلهم البيضاء الطويلة. ربت على رقبة الحصان وأنا أصبح فى غضب لا.

انتظرتكم دهرًا لم تفعلوا شيئًا فلا تعطلونى فى هذه الساعة! ثم همزت الحصان قائلًا لاتخذلنى الآن يا صديقى! اندفعت نحوهم فى ركض سريع، فانتاب الزجالة دعر مفاجيء وقفزوا على الأرض وراحت حميرهم تتخبط وتصرخ وهى تفسح الطريق للحصان الذى مرق وسطهم واحتك على الجانبين بالحمير التى أخذت تجرى فى كل اتجاه بينما أصحابها يطلقون الصيحات والسباب. افعلوا ما شئتم، لاشئ يصلح فى هذه الدنيا الغلط إلا الغلط!



واصلت الركض بالحصان إلى أن وصلت المعبد.
أعمدت وأضحة تماما في الشمس القانية التي مالت نحو الغروب.
أعمدة المدخل الذي طار منه الحجر وهشم ساق إبراهيم. أراها عالية لكني لا
أرى النقوش المحفورة فيها. النقوش التي شغلت كاثارين فلم تبال وهي تحل
طلاسمها أن ترى أختها تموت أمام عينيها. لا. لا تتكلم عن الموت! لكن هل تستحق
النقوش بالفعل هذا العناء؟ كل هذه البلادة وهي ترى شبح الموت حول أختها؟
هيا. لا وقت لنضيمه. بدأت كرة الشمس تسقط في أفق الخلود الذي تغنى به
وصفى، لن نتركها ترحل وحدها.
وثبت من فوق الحصان، أشباح كثيرة هنا حول هذا المعبد. أشعر بها دون أن
أراها، أشباح الفراغة؟ أشباح النخل؟ أشباح قتلة؟ من أرسلهم ورائي؟ صابر
ووصفى؟ طلعت؟ هارفي؟ كاثارين؟
مهمة وبدمعة تملأ أذني. نهيق حمير وحوافر خيول وغناء وقرع طبول. كل
أصوات هذا العالم الصغير المفلق، لا فلننجز العمل قبل أن يطيش العقل، يجب
أن نصفى الحساب بسرعة.
أمسكت برقبة الحصان فحول رأسه نحوي وراح يرمقني بعينه السوداء
المحمرة، ماذا تريد أن تقول؟ انه مازال هناك وقت؟ يمكن أن تأخذني إلى مكان
آخر لنجرب شيئا آخر؟ لكن أنا ماكتب لى أن أنجو. لو كان الألم والشقاء وطمعنا
الخيانة والظلم ثمنا للنجاة لنجوت ولنجا معي كل الناس، فهيا ابتعد. أخذت
الجرايين ثم ضربت كفه وهششت لكنه تلكا لا يريد أن يتحرك. طارده حتى آخر
النخل ثم تركته في الطريق. ظل واقفا هناك يحمم ويضرب بحوافره الأرض.
ليكن، المهم أنه بعيد بما فيه الكفاية.
عدت إلى المعبد ووقفت لحظة أتأمله والجرايان على كتفي. هذا إذن هو المجد
الذي يكتشفه لنا الإنجليز لنعرف أننا كنا عظماء وأنا الآن صغارا!

الأجداد لآبأس ! أما الأحفاد فلا يصلحون إلا للاحتلال.

فخور جدا وصفى بهذا الاكتشاف لىبقى الأسياذ أسياذا! يجب أن يزول هذا الكابوس، لا أصدق ما قاله الشيخ يحى إن مليكة كانت تحب هذه الخرائب الملعونة وإنها وجدت فيها جمالا فأحبها من أجلها.

لا أصدق! لايمكن أن يكون هناك شىء يجمع بين مليكة ووصفى!

الشيخ يتخيل أشياء فى شروده ويجب أن تزول كل أشباح الماضى هذه.

أخرجت أصابع الديناميت من الجرابين ودخلت المعبد. هنا، كثير من الأصابع تحت المدخل الذى يسند الصرح، ثم إلى الداخل. هناك بقايا أعمدة تصنع مداخل ودهاليز مليئة بالنقوش، نقوش الموتى.

لابأس، ما معنى يكفى. وأصابع أخرى تحت الجدران نفسها. يجب ألا يبقى للمعبد أثر. يجب أن تنتهى من كل قصص الأجداد ليفيق الأحفاد من أوهام العظمة والعزاء الكاذب، سيشكروننى ذات يوم! لابد أن يشكرونى!

مددت فتيلة من تحت الأعمدة والصرح إلى خارج المعبد.

الحصان مازال فى مكانه وهو يحمم فى غضب، لآبأس، وهل هذا صوت حوافره تخط الأرض أم حوافر أخرى أم هى من جديد تلك الأرقام فى سمعى؟

لايهم. يجب أن أسرع، أشعلت طرف الفتيل الممتد من أسفل الصرح ووقفت أنتظر. لماذا تتحرك الشرارة بهذا البطء؟ هيا أيتها النار المقدسة التهمى المعبد المقدس لتنتهى من هذه الحكايات كلها.

لم يحدث شىء. لغط كثير وأصوات كثيرة تقترب. هيا!

انفجارات ومطر من أحجار تتطاير فى الفضاء كنت أتمناها نارا تشعل المعبد كله، ما رأيك ياكاثرين؟ تصلح هذه الأحجار لبناء سلم جنيد متين؟ تصلح بيتا .. أو ربما مقبرة أخرى؟ افعلى بها ماشئت لكنك لن تجدى فيها بعد الآن أى نقوش.

أقسم ألا أترك لك فيها أى نقوش!

سامحيتى يامليكة، كنت أشجع منى، وسامحيتى يافيونا لأنى لم أنتظر،
وسامحنى يا إبراهيم فما أنا أسبقك كما وعدتك، ولكن الأحجار تسقط حوالى لا
فوقى فلماذا أنتظر فى الخارج؟ هل سيعاودنى الجبن فى آخر لحظة؟ لا أنا أت!
هيا .. جريا إلى داخل المعبد.

أجرى لكتى أسقط على الأرض قبل أن أبلغه. أراه قبل السقوط يندفع نحوى،
يرتطم الحجر برأسى فأسقط ويحل نوم، لكتى أصح مرة أخرى أمد يدي إلى
رأسى ورقبتى فأحس اللزوجة وسخونة الدم وألمس الشظية الكبيرة المرشوقة فى
رقبتى .. أحاول انتزاعها بيدي الخائرة فلا أفلح .. لم يكن هناك ألم .. وتوهج
فجأة نور فى داخلى، نعم، الآن يمكن أن أرى كل شىء .. أن أفهم كل مافانتنى
فى الدنيا أن أعرفه .. أحاول أن أرفع رأسى فلا أستطيع .. يخبى النور وتحل
هجمة السبات الثقيل وأسمع صوتا متهدجا أجش يزقق باسمى كأنه ييكى ..
فأقول وأنا أغمض عيني شكرا .. لك .. لأنك .. تأخرت!

على هامش الرواية

استأنست فى كتابة هذه الرواية التى تنور أحداثها فى عصور تاريخية مختلفة بعدد من الكتب والدراسات، من حق القارئ المهتم بمقارنة الحقيقة بالخيال أن يطلع عليها ويشترك معى فى بعض الخواطر حولها.

١- كان كتاب عالم الآثار الراحل د. أحمد فخري «واحة سيوة» هو مدخلى إلى هذا العمل. فقد لفتت انتباهى إشارته إلى علاقة المأمور محمود عزمى بما حدث لمعيد أم عبيدة فى عام ١٨٩٧ فحاولت فى هذه الرواية أن أفهم الشخصية وأفهم الحدث، أفدت كثيراً من هذا الكتاب، الذى يجمع بين دقة العالم الموسوعى وأسلوب الفنان المطبوع، فى استلھام أجواء سيوة فى القرن التاسع عشر، لاسيما فيما يتعلق بعادتى الحروب الداخلية والتعامل مع الأرامل.

٢- وقد اندثرت الآن عادات القرن التاسع عشر وأصبحت سيوة إقليمياً مصرياً خالصاً يتكلم كل أبنائها العربية التى يدرسون بها فى مراحل التعليم المختلفة بالواحة، وإن حافظوا على لفتهم الأصيلة فى التعامل فيما بينهم، وما زالت سيوة تتميز بجمالها النادر، الذى فتن منذ القدم هيرودوت اليونانى والرحالة العرب والأجانب باعتبارها أرض غابات النخيل والزيتون والبساتين والبحيرات العذبة والمالحة وعيون الماء التى تنبثق وسط أرضها الخضراء المحاطة بالرمال الصفراء من كل مكان. وما زالت أطلال «شالى» الهرمية المهيبة تتوسط المدينة بعد أن «أذابتها» أمطار غزيرة فى عام ١٩٢٦. وأضم صوتى إلى صوت محبى هذه الواحة الجميلة بضرورة أن تراعى جهود التحديث والتنمية طابع البيئة الفريدة للمكان.

٢- وما زالت سيوة أيضاً هي أرض الإسكندر الأكبر التي تلقى الوحي في معبدها الشهير الشامخ حتى اليوم، وقد استعنت في الصورة التي رسمتها الرواية للملك المقدوني الأشهر بعدد من كتب التاريخ، أبرزها كتاب المؤرخ الروماني «كورتيس» «حياة الإسكندر» الذي عنى فيه بالجانب الإنساني أكثر من التركيز على الغزوات والبطولات الحربية التي اهتم بها غيره.

كما قرأت باستمتاع شديد كتاب «مذكرات الإسكندر الكبير» وهي سيرة ذاتية متخيلة من تأليف الكاتب اليوناني المعاصر «نسطور مانتاس» ترجمها الأديب التونسي المعروف «الطاهر قيق» وأضاف لها هوامش غنية تضيف الكثير إلى النص.

٤- مقبرة الإسكندر - يذكر أبناء جيلي العناوين الصحفية المثيرة التي كانت تعلن عن اكتشافات «الجرسون» اليوناني- السكندري «إستيبيوس» وقرب عثوره على مقبرة الإسكندر تحت مسجد النبي دانيال. ولم تسفر جهوده عن شيء غير تهديد أساس المسجد فأوقفت السلطات نشاطه. وما زالت هناك حتى الآن بعثة بولندية للآثار تواصل البحث عن المقبرة في الإسكندرية. غير أن هناك من يبحث عنها في مظان ومواقع محتملة أخرى تتوزع بين قارات ثلاث! أما صاحبة نظرية وجود المقبرة في واحة سيوة فهي باحثة يونانية تدعى «ليانا سوفالترزي»، وقد شرعت في التنقيب في الواحة في عام ١٩٨٩ وتوصلت إلى اكتشاف بعض المواقع الأثرية هناك وتقول إنها كانت في طريقها لاكتشاف المقبرة ذاتها ولكن أبحاثها توقفت في مطلع عام ١٩٩٦ لخلاف مع مصلحة الآثار المصرية. وقد ألفت «ليانا» بعد ذلك كتاباً طويلاً عنوانه: «مقبرة الإسكندر الأكبر في واحة سيوة» يفند الاتهامات الموجهة لها من مصلحة الآثار وتثبت فيه أنها على الطريق الصحيح لأهم كشف أثري في العصر الحديث. من يرى؟

٥- بالنسبة لأحداث الثورة العرابية كان لي مرجعان أساسيان هما كتاب

عبدالرحمن الرافعى «الثورة العربية والاحتلال الانجليزى» وكتاب «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا لمصر» من تأليف «ألفريد بلنت».

٦- وأخيراً، وليس آخراً، فإننى أوجه شكراً خاصاً للصديق الشاعر والكاتب الكبير الدكتور «نصار عبدالله» الذى انتفعت بمشورته الثمينه أكثر من مرة أثناء كتابة الرواية. والشكر يمتد أيضاً إلى أصعب قارئتين وناقدتين لما أكتب، ابنتى الغاليتين دينا ويسر. هما قد فعلتا ما عليهما ويبقى فيما أمل أن أكون قد أفدت من ملاحظاتهما النفاذه.

٧- وهناك مع ذلك كلمة أخيرة. فقد ذكرت فى مدخل الرواية أنى لم أجد أى معلومات عن حياة المأمور الحقيقى «محمود عزمى» أو عن مصيره بعد حادثه المعبد. ولكن تجدر الإشارة إلى أنه يقال إن حجارة المعبد قد استخدمت فى بناء سلم جديد لقسم الشرطة وفى ترميم مسكن مأمور الواحة!

بهاء طاهر

القاهرة - أكتوبر ٢٠٠٦

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢١٩٣٥

I.S.B.N

977-07-1226-4

عن المؤلف



بهاء طاهر

- مواليد القاهرة عام ١٩٣٥ .

- حصل على ليسانس الآداب قسم تاريخ جامعة القاهرة عام ١٩٥٦ ودبلوم دراسات عليا في التاريخ الحديث والإعلام.

- عمل مخرجاً للدراما ومقدماً للبرامج ومذيعاً في البرنامج الثقافي بالإذاعة المصرية حتى عام ١٩٧٥ .

- عمل بمقر الأمم المتحدة في جنيف (١٩٨١-١٩٩٥) .

- كاتب روائي أصدر العديد من الإبداعات القصصية والروائية والدراسات النقدية .

- من مجموعاته القصصية، الخطوبة، (١٩٧٢) ، بالأمس حلمت بك (١٩٨٤ ، أنا الملك جلست، ١٩٨٦ ،

ذهبت إلى شلال، ١٩٩٨ .

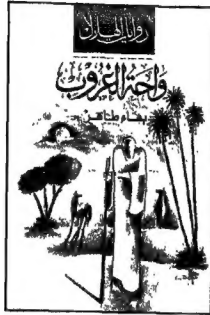
- وأصدر عن دار الهلال روايات شرق الخيل، ١٩٨٥ ، خالتي ضحى، ١٩٨٥ ، خالتي صفية والدير، ١٩٩١ ، الحب في المنفى، ١٩٩٥ ، نقطة اللون، ٢٠٠١ .

- ومن ترجماته المميزة رواية الكاتب البرازيلي كويليو «ساحر الصحراء» .

- ومن دراساته الأدبية والنقدية: عشر مسرحيات مصرية - أبناء رقاعة - في مديح الرواية عام ٢٠٠٤ .

- حصلت أعماله على تقدير كبير في مصر توجه حصوله على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٨ . كما فازت رواية خالتي صفية والدير بجائزة أتشيري الإيطالية كأفضل رواية مترجمة عام ٢٠٠٠

عن الرواية



تشكل هذه الرواية علامة مميزة في مسيرة بهاء طاهر الإبداعية حيث يقدم الكاتب تجربة جديدة يمزج فيها بين الذاتي والموضوعي والحاضر والماضي والواقع والتاريخ بصورة تجسد تلك السمة التي تميزه وهي حفاظه على هويته الخاصة حين يحمل هموم وطنه في قلبه ووجدانه ويعكسها عملاً إبداعياً يتسم بذلك الصدق الشفاف الذي يقترب من الذات.

وقد حشد أديبنا الكبير - كعاداته - خبراته الإنسانية والمعرفية في هذا العمل الجديد ، فجاء عملاً متميزاً وكاشفاً ودالاً على واقعنا اليوم من خلال ذلك المزج الساحر والرائع بين الواقع والخيال واستلهاه حقبه من تاريخ مصر وتراثها المتراكم خاصة حين يجعل من مسرح روايته بقعة نائية في خريطة مصر هي واحة «سيوه» حيث جعلها محوراً لعمل روائي مصري كما بعيد في هذا العمل تقديم تجربة العلاقة بين الشرق والغرب إنسانياً وحضارياً بما تحويه من صراع ورغبة في التوافق .

هذه الرواية بتكنيكها الفني العالي وتلك اللغة السردية الشفافة توظف جماليات الإبداع في نثر رائع وحرص على أن يكون الشكل مطابقاً للتجربة ، فضلاً عن تلك البساطة المعجزة في السرد والحوار .

شهرزاد على بحيرة جنيف



رواية جديدة للكاتب الكبير:
جميل عطية إبراهيم

تصدر، ١٥ ديسمبر ٢٠٠٦

أشهر الحوادث والقضايا



Bibliotheca Alexandrina



0613599



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع ١٠٠٨١ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٦٠١٠ ش كامل صدقي الضجالة - شارع الإسماعيلي بمشقة البكري ووكسي مصر الجديدة - القاهرة ١٨٢٢٧٩٢ - ٥٩-٨١٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ٢٥٨٦٦٥٠٠ - ١٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج ٥٠٠٠ ش يدوي محرم بك - الإسكندرية